
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

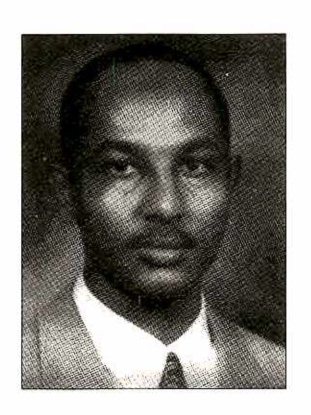
غوانتنامو

قصتي

سامي الحاج

غوانتنامو

قصتي





الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2017م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2312-0

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

صورة الغلاف والرسوم الداخلية للفنان **مصطفى إبراهيم مصطفى**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

مع تحية حب وتقدير لرفيقة دربي

التي قاسمتني العناء، أيجول إسماعيلوف،

وفلذة كبدي، محمد،

الذي انتظرته طويلاً من قبل أنْ يُيسِّر الله اللقاء.

الفصل الأول

في ظلمات ليلٍ عربيٍّ، أجلس وحيداً... أُصغي لصدى أنفاسي ونبض قلبي...

ويأتي طائر من طيور الليل، فيحطّ على مقرُبة منّي، ويأخذ في الغناء على نحو خافت، كأنما يدعو وليفاً غائباً!

أحاول تَبيُّنَ جسمه في الليل، غير أنَّ شَجَن غنائه يأخذني بعيداً، بعيداً جدًّا... إلى ساعة غير هذه، ومكانٍ غير هذا.

إلى حيث وضعني السجَّانون في زنزانة حبس انفرادي، نزعوا عنِّي ملابسي وزجُّوا بي في تلك الزنزانة الضيقة. كانت أجهزة التبريد تعمل بقوة، وما هي إلا لحظات حتى دخل البرد إلى عظامي. وبينما كنت أرتجف وأرتعد... تناهى إلى أذني، من زنزانة تقع عن يميني، صوت محتسب يردِّد في نبرةٍ مِلؤُها الجَلَد: أَحَدٌ أَحَد.

وما هي إلا لحظات ويعلو صوت سجين آخر في زنزانة مجاورة في ناحية الشمال يقول لي: يا سامي سكّت بلالاً الذي عن يمينك حتى أعالج ما أنا فيه من برد. وبالرغم من كل شيء، وجدتُ نفسي أبتسم!

كان ذلك في غوانتانامو، وغوانتانامو قصتي؛ أنا السجين رقم (345).

نعم، غوانتانامو قصَّتي وقصة أكثر من ثمانمائة سجين. كل واحد منهم عاش التجربة على نحوٍ ما، دونما ريب، متشابه.. دونما ريب، مختلف!

غير أن العطفة الحادة التي ملأتني مع الألم إيماناً وقوة عقلية ونفسيةً أوضحت، بل أكدت لي، أن في دواخل كلٍّ منَّا قوى هائلة تظل كامنة حتى نقدح فيها شرارة الصمود لكي تندلع ثم تشتعل ويشتد أوارها فَيَلْتَهِم كل المثبطات ويقضي على كل ريح مناوئة.

ولقد قدحتُ هذه الشرارة يوم بدأت رحلتي إلى عالم الجوع البدني والامتلاء الرُّوحي؛ وإنه لحق أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. فكَّرت مليًّا من قبل أن أضع إرادتي على حدِّ الرهان بالدخول في إضراب طويل وتام عن الطعام. ثم إنني قررت وأعلنت القرار. كنت أقهر وحدتي بذكر الله الذي هو معنا حيث ما كنَّا، وفي ذات الوقت أُحجِّم مطالب الجسد بلجام الروح. لم أكن على علم بأنني لم أكنْ وحدي فالجزيرة كانت تستصحب اسمي ومحنتي على نحوٍ يومي، بل بثّت ونشرت شعارها الذي ملأ الدنيا: "أطلقوا سراح سامي الحاج". كان الشريط الإخباري يعيد على الشاشة، الأكثر حضوراً وشهرة، اسمي حتى ملأ الدنيا وشغل الناس. وقد عرفت يوم إطلاقي أن أخي وضاح خنفر، الرجل الأول في الجزيرة، قطع زيارة عمل مهمة لكي يصل إلى مطار الخرطوم قبل وصول طائرتي وليكون أول المستقبلين.

حقًّا إنني ممتنٌّ وفخور بهذه المؤسسة التي تعاملت معي طوال محنتي كابنها ليس على سبيل المجاز وإنما بالفعل؛ فهي التي لفتت أنظار العالم إلى عدالة قضيتي بل إنها جعلت من تغطيتها الإعلامية

وسيلة ضغط هائلة حرّكت المؤسسات والمنظمات المعنية بقضايا حقوق الإنسان لكي تنشط وتعمل في أركان الدنيا الأربعة. ثم حولت التغطية إلى حملة دولية رسمية جعلت على رأسها في قطر د. فوزي أو صديق الذي أدّى دوراً كبيراً في التنسيق مع هيومان رايتس وتش وآمنستي ومنظمة العون المدني العالمية التي أدّى فيها الأستاذ حسن سعيد المجمَّر دوراً كبيراً، كذلك المكتب الدولي للجمعيات الخيرية والإنسانية بفرنسا الذي قاد الجهود فيه د. هيثم مناع، ثم هناك منظمة الكرامة لحقوق الإنسان بسويسرا التي أولاني الاهتمام فيها د. رشيد مصلي، إضافة لجهود كل من د. عادل جاسم الدمخي رئيس جمعية المقومات الأساسية لحقوق الإنسان بالكويت وخالد الأنسي المدير التنفيذي لمنظمة هود باليمن وعاصم قرشي مدير منظمة سجناء الأقفاص بلندن. ولعل الدور القانوني كان له تأثير كبير بما أبرزه من دفوع قدَّمها محامون مقتدرون عملوا إمَّا لحساب قناة الجزيرة وإما لاتحاد المحامين السودانيين أو القانونيين المختصين في المنظمات الناشطة في مجال حقوق الإنسان. إضافة لجهود الأفراد الذين تعاطفوا معي وآمنوا بقضيتي وببراءتي. فقد احتشدت الحشود في مسيرة صامتة أمام السفارة الأميركية في الخرطوم. وشارك أيضاً ناشطون من المجلس السوداني للجمعيات الطوعية، والهيئة العالمية لتنمية جنوب الصحراء، ومركز الخرطوم لحقوق الإنسان وتنمية البيئة، والمرصد السوداني لحقوق الإنسان، ومركز الأمل ومنظمة مبادرات تنمية المرأة والطفل.

ثم هناك الجهود الحثيثة التي تطلّبت الكتابة والحركة، والتي اضطلعت بها زوجتي العزيزة في صبر وإيمان.

لكم أشعر بأني مدين لكل أولئك الذين عملوا من أجلي وآمنوا بعدالة قضيتي. وهأنذا أجلس وحيداً أُصغي لصدى أنفاسي ونبض قلبي... مع كل شهقة وكل زفرة، مع كل نبضة ينثال منّي الشكر جداولَ للجزيرة التي كانت وظلّت الوالد العطوف الودود المثابر، كذلك شكري لكل المنظمات التي قامت مقام الأم ولكل الأفراد الذين عملوا من أجلي في أصقاع العالم المختلفة فصعدوا حقًّا إلى مرتبة الإخاء.

إنني الآن أقوى مما كنت عليه، أكثر تسامحاً وأكثر صحبة ورفقة في سكون هذا الليل العربي الحنون في المدينة التي أحب: الدوحة.

أستمع لغناء الطائر وأذكر أيام ألمي وشقائي وتعذيبي من قِبل رجال قساة القلوب، قساة الوجوه. لقد سلبوا منّي أجمل الأيام، أجمل الأسابيع، أجمل الشهور وأجمل السنوات دونما ذنب جنيتُه. لكنني هزمتهم بفضل عزيمتي التي منَّ بها عليَّ المولى عزَّ وجلَّ في حالك الليلات وطاعن النهارات، هو المولى الذي ألهمني الصبر على تحمُّل الجوع والأذى طوال أيام إضرابي عن الطعام، يا لها من أيام!

وغرَّد الطائر الليلي عند نافذتي يقول لي: أنا ههنا. وهبَّت نسمة رائقة من نسمات الخليج العربي تحمل دفء موجه الشفيف.

في الفصل التالي، سأحكي لكم ما غصَّت به أيام تعذيب وآلام وصمود طويل.

الفصل الثاني

قرَّرت أن أدخل في إضراب عن الطعام في وقت تزامن على نحو ما مع افتتاح المعسكر السادس في غوانتانامو. بالنسبة إليّ كان حفظ الأيام والتواريخ في داخل العنابر والزنازين أمراً بالغ الأهمية. وعليه، فقد بذلت جهدي، ما استطعت، في متابعته والحرص على تذكُّره؛ مع أنه كان أمراً بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً في بعض الأوقات، خاصة خلال الأيام التي كنت أُحبَس فيها داخل زنازين الحبس الانفرادي المغلقة بالكامل والمظلمة تماماً وعلى نحو دائم.

إضرابي عن الطعام وافق الأسبوع الأول من شهر يناير/كانون الثاني من العام 2007، بُعيد أيام من انقضاء شهر ديسمبر/كانون الأول للعام 2006. في البدء أخذتُ في تقليل الإصابة من الطعام ثم رُحت أقلّل من عدد الوجبات اليومية بتناول بعضها وردِّ بعضها. وبعد ردِّي تسع وجبات شملت الإفطار والغداء والعشاء أخلَوا الزنزانة التي عن يميني والأخرى التي عن يساري كيما يتأكدوا من أنه ليس من ثمة أحد يمرر لي بعض أصناف الغذاء خفية. وبعد ردي تسع وجبات أخرى دخل عليَّ الضابط والطبيب وقالا: سنعمل على فحص ضغط الدم عندك على نحو يومي. وعندما كانا يجدان الضغط منخفضاً كانا يجبرانني على شرب قارورتين من الماء. كانا أحياناً يقومان بقياس

ضغط الدم ثلاث مرات في اليوم. في تلك الفترة التمهيديــة كنــت أتناول القليل جدًّا من الطعام على فترات متقطعة، وداومت على ذلك لفترة من الوقت أُصبْتُ خلالها بإمساك حاد صحبته دمامل البواسير. لكنني طوال تلك الفترة التمهيدية كنت أجدِّد عزمي يوماً بعد يــوم على ضرورة التوقف التام عن تناول الطعام.

ثم – وعلى ما أذكر – أعلنتُ بعد عيد الأضحى مباشرة إضراباً تامًّا عن الطعام؛ في السابع من يناير/كانون الثــاني 2007، أرســلت رسالة إلى الجنرال طالبتُه فيها بخمسة مطالب قبل أن أرفع إضرابــي عن الطعام: أولها: احترام الدِّين. ثانيها: حقُّنا في التمتع بالحقوق الــتي تنص عليها اتفاقية جنيف الخاصة بالأسرى. ثالثها: إعطاؤنا الحــق في المرافعة عن أنفسنا أمام المحاكم المدنية؛ الأمر الذي كفلته لنا المحكمــة الأميركية العليا وأقدم الكونغرس على اغتصابه منَّا. المطلب الرابع تمثَّل في إعادة الإخوة الذين تم عزلهم في معسكر إيكو لفترات طويلة، أمَّا المطلب الخامس والأخير فقد نصَّ على ضرورة التحقيــق في مقتــل المعتقلين الثلاثة الذين قضوا في العاشر من شهر يونيو/حزيران العــام 2006. رفعتُ هذه المطالب وأمسكت بعدها عن تناول الطعام مــع مطلع فجر السابع من يناير/كانون الثاني 2007.

نجحت في الإضراب عن الطعام لشهر وأنا بعدُ في العنــبر. ولا يفوتني أن أذكر هنا أنهم عند دخولي مرحلة الإضراب الكامل وأنا بعدُ في العنبر تعمَّدوا أن يهملوني، وبالفعل تم إهمالي طوال ذلك الشهر من أجل أن أيْئس وأتراجع عن مطالبــي تحت وطأة الجوع والعطش. ثم إنه وفي أواخر ذلك الشهر بدأوا في تقــديم بعــض الإغــراءات لي كإيهامي بأنني سأخرج قريباً من المعتقل مع محاولة التقرب لي بالقول:

إنك لا تزال شابًّا وأمامك الحياة بكل ما فيها فَلِمَ تقتل نفسك وقتل النفس في دينكم حرام؟! ثم إن لديك أسرة هي الآن في انتظارك! لكن خاب ظنهم إذ تحملت بعون الله كل المشاق وقاومت كل الإغراءات وتمكّنت من إنهاء الشهر بعزيمة لا تفتر ومثابرة لا تكل. ولما انقضى الشهر وتأكدوا من أنني سأواصل إضرابي للشهر الثاني الذي كان قد أطل، خاصة وأن وزني كان قد نقص من تسعين كيلو جراماً إلى ستة وخمسين كيلو جراماً؛ حينها بدَوْا مجبَرين على نقلي إلى المستشفى وحجزي فيها.

في المستشفى، وعلى غير ما كانت عليه الحال أيام الإهمال المتعمَّد في العنبر، بدأوا أولاً بتغذيتي عن طريق الوريد؛ ما دفعني لمقاومتهم قدر ما تبقى في جسدي من طاقة، لكنهم كانوا يمسكون بذراعي ويغرزون الإبر على نحو مؤلم للغاية في عروقي. تلك الفترة كانت ملأى بالألم والأخطاء المتعمدة والاستهزاء والسخرية، غير أن كل ذلك لم يكن ليزيدني إلا عزماً وإصراراً على الاستمرار في إضرابي. ثم إنهم قرروا بعد فشلهم في استخدام غرز الإبر تجربة الضغط النفسي كوسيلة للضغط تجبرني على أن أخضع لتغذية قسرية عبر الأنبوب، خاصة أن حالتي الصحية لم تكن لتسمح بمزيد من التأخير المتعمد بحسب (الطبيب) المشرف على التعذيب. كانوا يقولون لي: إن أعزاء لك سيموتون وأنت ستموت جرَّاء رفضك للطعام وحقن الوريد، كذلك يتفننون في خلق الأجواء المرعبة والمخيفة وبالطبع التحدث معي على نحو مزعج وسيئ خال من أبسط قواعد الأدب واللياقة. كان الجوع قد دخل من لحمي إلى عظمي، لكنني كنت متسلحاً بإيماني بالله لذلك لم أكن منزعجاً بينما كانوا هم

بالمقابل يتعاملون بعصبية ونرفزة وانزعاج بالغ. كنت أستحضر في نفسي سيرة بلال بن رباح وكيف كان يصبر في هجير صحراء مكة على أصناف العذاب، كانت صورته وهو راقد والصخرة على صدره وهو لا ينفكُّ يردِّد: أَحَدٌ أَحَد.. لا تبارح ذهني. أيضاً كنت أتذكر مصعب بن عُمير حين أمسك الراية بشماله بعد أن قطعوا يمينه ثم أمسكها بعضديه بعد أن بتروا يده اليسرى، كنت أتذكر بطولة عبد الله بن رواحة وبسالة جعفر بن أبي طالب وشجاعة خالد بن الوليد الذي لم يبقَ في جسده شبر إلا وفيه ضربة من سيف أو طعنة من رمح أو رمية من نبل. نعم، وكما قال أرنست همنغواي: يمكنك أن تسحق رجلاً لكنك لا يمكن أن تهزمه.

وذات يوم كئيب لكنه كان مشهوداً، تجمَّع حولي طاقم المستشفى على نحو ما يفعل أطباء الطوارئ، وما هي إلا لحظات وأمسكوا بي فأحكموا القيود والأصفاد ثم انهمكوا في تقييد أطرافي الأربعة على نحوٍ لم أستطع معه الحركة، وبكل العنف والقسوة أدخلوا أنبوباً مؤلماً في أنفي؛ الأمر الذي أصابني بشيء من الاختناق والإغماء، ثم بدأ حلقي في الالتهاب وراحت آلامي تشتد في المريء والحنجرة. وحين أُفرغ الأنبوب في معدتي الخالية شعرت بالضبط وكأن جمرة من نار قد نزلت في جوفي وبغتةً وعلى حين غِرَّة راحوا بتعمُّد وقصد يدفعون الأنبوب داخل رئتيَّ ويفرغوه فيهما، ثم أعقبوا ذلك بقطرات من الماء ملأت رئتيَّ فشرقت وأخذني سعال شديد ثم اختناق شبه تام. لحظتها أحسست بأنني قد دخلت بالفعل في سكرات الموت، فجسمي تغير لونه وامتقع وجهي واضطربت أنفاسي، بينما راح العَرَق يتصبب غزيراً من كل خلية في جسدي وأعقب ذلك تقيؤ مريع.

وبعد نصف الساعة على وجه التقريب اعتراني ضَرْب من التشوش المصحوب بآلام معوية رهيبة، مضى وقت فتمكنت من التنفس وأفقتُ، ثم شيئاً فشيئاً أخذت أشعر بقليل من النشاط يدب في أعضاء جسمي. ثم إنني ورغم الآلام المتصاعدة من المعدة طلبت منهم - وقد بدت وجوههم كالحة وقسوتهم بادية - أن ينزعوا عنِّي القيد والأصفاد كيما أصلي، غير أنهم رفضوا رفضاً باتًّا متذرِّعين بحجج أمنية عديدة منها أنني قد أقوم بعمل عنيف في حال نزعهم القيود والأصفاد عني! فما كان مني إلا أن سألتهم مستنكراً: "ما عسى أن يفعل رجل في مثل حالتي هذه؟ لا تتذرعوا بهذه الحجج الأمنية ولكن قولوا لي: إننا لا نريد أن نسمح لك بالصلاة!" ساد الصمت لبرهة و لم يجبني منهم أحد فحمدت الله في نفسي على أنني مضربٌ عن طعام قوم هذه حالهم وتلك صفاتهم.

مكثت في المستشفى عدَّة أيام أكابد التشوش والقسوة والألم. كانت الساعات تمر بطيئة، لم أكن أميز الليل من النهار ولا أعرف كيف سيكون آخر المطاف. كان جسمي ينهار على نحو مزعج لكن ربي منحني صبراً وقوةً ما عهدتهما من قبل في نفسي. كنت أقاومهم ما استطعت وأنا في القيد والأصفاد لكنهم كانوا يتغلبون عليَّ آخر الأمر عازمين على تغذيتهم القسرية فيُدخلون أنبوبهم المؤلم ليقرِّح أنفي وحلقي. لا أدري كم من الوقت لبثتُ في تلك الحالة المأساوية في المستشفى، لكنني أتذكر أنهم جاءوا وأعادوني إلى العنبر ذات نهار.

بعدها رحت أتردد بين عنبر إيكو الذي أُمضي فيه سائر اليوم وعنبر إنديا الذي أذهب إليه للتغذية القسرية مرتين لليوم وهو العنبر

المخصَّص للمضربين آنذاك؛ وكان من المفترض أن أبقى فيـــه بعـــد رجوعي من المستشفى لكن الإدارة خشيت أن يشجعني بقائي فيـــه على المقاومة ورفض التغذية القسرية، لا سيما أن إخوة علــــى ذات نهجي كانوا هناك؛ ولقد أصَرَّ بعضهم على الإضراب لعامين متتاليين، منهم الأخ أحمد المكي والأخ عبد الرحمن المدني. غير أني وبعـــون الله صمدت رغم صعوبة ظروف المكان الذي كـــان مخصَّصـــاً أصـــلاً كمكان لتعذيب المضربين عن الطعام.

سمتان كانتا تميزان ذلك المكان، هما: العزلة التامة ودرجة البرودة القاسية الناجمة عن المكيِّف العالي، فكثيراً ما كانت تصـــل درجـــة البرودة في زنزانتي إلى ما تحت الصفر وأنا عارٍ إلا من سروال خفيف (شورت)، لكنني ومع تذكري لبلال وكل أولئك الرجـــال كنـــت أُحِسُّ بطاقة جبارة تجتاح رُوحي وكياني بل وتسري في أوصال مـــا يجعلني، ويشهد الله، أشعر بالدفء يسري داخل كـــل خليـــة مـــن جسمي ولا أبالغ حين أقول: إن الزنزانة كانت في بعـــض الأحيـــان تتحول لمكان عامر بالدفء لعشر أو خمس عشرة دقيقة، وذلك مـــن فضل الله. وإذا كان لي أن أقول شيئاً واحداً فإنني سأقول مع المؤرخ البريطاني آرنولد توينبـــي: إن الكائن الإنساني كائن لا يُقهَـــر، بـــل وأزيد: إن من يمتلئ قلبه بالإيمان يكون في مقدوره تحمل ما لا يتحمله الصخر في جبله.

زاد كذلك من قسوة المكان أسلوب الحراس فيه الـــذي كـــان أسلوباً همجيًّا أرعن سيئاً للغاية؛ إذ كانوا يقتحمون الزنـــازين بفـــرق الشغب بلا سبب ويُفرِطون في الضرب والتعذيب بغيـــة التخويـــف لنتراجع عن مواقفنا الصلبة ونتخلى عن مطالبنا العادلة. وفرق الشغب

هذه كل فرقة فيها مكونة من سبعة جنود يرتدون الحاميات والواقيات، وهم يدخلون عليَّ في زنزانتي يرافقهم مسؤول يمسك بيده غازاً مُسيلاً للدموع كنّا نسمِّيه: رجل الفلفل، صاحب البخَّاخ الحارق. كان هذا المسؤول يتقدم منِّي ويأخذ في التحدث إليَّ بهدوء ثم بغتةً يوجِّه علبة الغاز إلى وجهي ويضغط عليها، وعندما أغمض عينيَّ وأنا أتلوى من الألم يقوم السبعة الآخرون بإدخال وجهي في فتحة المرحاض ثم يشرعون في تقييد قدميَّ ويديَّ حتى لا أقاومهم، بعدها يقومون بضربي، وهم يا للعجب يضربون ضربة الخائف رغم كثرتهم وتسلحهم، وإن ضربة الخائف لأشد إيذاءً وألماً. في كثير من الأحياء كانوا يقطعون الماء عن صنبور الزنزانة حتى لا أتمكن من غسل الشورت الذي يتلوث مني بالقيء والأوساخ، لم أكن لفترة طويلة أرتدي سوى ذلك الشورت بينما البرودة التي تصل إلى ما تحت الصفر تعصف بي وبجدران الزنزانة. ومن المؤكد أن شخصاً مثلي ترعرع ونشأ في جو السودان الحار تكون البرودة عذاباً حقيقيًّا لأن جسمي لم يستطع مطلقاً التكيف معها، كان ترياقي الوحيد هو التلذذ بقوة الإيمان واستدعاء ذكرى الرجال الذين صمدوا أمام أهوال تفوق أهوالي.

بعد مضي شهر تقريباً على برنامجي اليومي بين إنديا وإيكو تم نقلي إلى عنبر شارلي، ولم يمضِ وقت حتى تم إخلاء عنبر إنديا من كل المضربين؛ حيث تم نقل ثلاثة منهم إلينا في شارلي، هم: الأخ أحمد المكي والأخ عبد الرحمن المدني والأخ محمد الشنقيطي. ثم خصَّصت لنا وحدة الإدارة المشرفة علينا عنبر هوتيل المقابل لعنبر شارلي للتغذية القسرية، التي كان يتم إخضاعنا لها مرتين في اليوم.

وإني لأذكر أن فترة شارلي كانت أكثر مراحل الإضراب هدوءاً رغم المضايقات التي صحبتها كالحرمان من النوم ومصادرة كل شيء ما عدا الحصير والملابس البرتقالية، كذلك مُنعت عنا الرسائل وسائر وسائل التواصل والمراسلة مع الأسرة. ولعل ما دفع الإدارة لتهدئة الأجواء في شارلي هو تراجع بعض المضربين عن إضرابهم وتناولهم الطعام والانتظام في الوجبات نتيجة وعود قطعتها لهم الإدارة، وهذا أسلوب مكين في أساليب الإدارة البراغماتية المراوِغة في غوانتانامو، فكلما تراجع عدد المضربين عن الطعام تُخفّف الإدارة من الضغط على الباقين علّهم يتراجعون، وكلما كان عدد المضربين عن الطعام في تزايد اشتدت الضغوط علينا. وبالفعل لم يمضِ وقت حتى اكتشف الكثيرون زيف الوعود التي قطعتها لهم الإدارة فعادوا مرة أخرى للإضراب عن الطعام. وأُسقط في يد الإدارة كرَّةً أخرى. ولمَّا لم يُجدِ مكرُها وكيدُها انتهى بها الرأي في فترة لاحقة إلى تجميع المضربين عن الطعام بعد أن ازداد عددهم مجدَّداً من أربعة إلى ما يقارب العشرين.

هذه المرة كان عنبر دلتا هو المكان الأنسب لتلك المهمة غير الأخلاقية؛ فزنازين عنبر دلتا مصمَّمة على شكل عنبر روميو أي إنها مغطّاة بالبلاستيك المقوّى، كما أن نوافذها موصدة على نحو دائم مما يجعل التنفس أمراً عسيراً غاية العسر. كثيراً ما كان يصعب عليَّ التنفس، لا سيما أن النوافذ المغلقة عزَّزت ألسنة الرطوبة التي كنتُ أراها تتلوى وتتكاثف حتى كأنها بخار الماء تطلقه آنية تغلي من تحتها جمر. إضافة لكل هذا كان ذلك المسؤول المصاحِب لفرق الشغب يطلق علينا أبخرة لاسعة حارقة من البخاخات المسيلة للدموع، تلك البخاخات التي كنَّا نسميها ببخاخات الفلفل، كان يدخل بغتة علينا

برفقة الفرقة ذات الرجال السبعة ويضغط بخاخاته علينا دونما سبب وبلا سابق إنذار. أذكر أن مفعول البخاخ كان يتضاعف بل لا يُطاق نتيجة لجو العنبر الموصد من كل الجهات. وعندما ينتهون قد يأخذون البعض منّا بدعوى أنهم يريدون غسل أثر الغاز من العينين، لكنهم يقتنصون تلك الفرصة لكي يعطوني رسائل أسرية وصوراً فوتوغرافية لابني يزعمون أنها وصلت حديثاً بينما الحقيقة أنها وصلتهم قبل وقت طويل وقاموا بحجزها عنّي. ومع الصور والرسائل يأخذون في تقديم الإغراءات بغية أن أعود لأتناول الطعام. بعد رؤية صور ابني ورسائل أسرتي كنت أحياناً أحظى ببعض الاسترخاء والهدوء، أمَّا النوم فذلك أمر لم أكن لأحلم به من شدة الإزعاج المتعمد بالغسيل الليلي والتفتيش العشوائي، فضلاً عن ضجيج الآلات المزعجة في غوانتانامو، تلك التي لم تكن لتتوقف عن العمل على مدار أربع وعشرين ساعة من اليوم.

ومع إصراري على عدم رفع الإضراب في تلك الأوضاع المأساوية كانت تتم تغذيتي القسرية على كرسي الإعدام الذي صُمِّم ليبث الرعب أولاً في نفسي، ثم لأُقيَّد عليه، أنا الناحل المضرب عن الطعام بأكثر من اثني عشر حزاماً حتى يتسنَّى (للطبيب) أن يتفنن في إدخال وإخراج أنبوبه الملعون بلا شفقة ولا رحمة داخل أنفي وحلقي ورئتي ثم من بعدُ معدتي. كان ذلك الأنبوب يؤذيني أشد الأذى، كان يجرح ويُقرِّح أنفي وحلقي ويملأ رئتي فأشرق به حتى يخنقني ويمنع عني النَّفَس. وعندما أتقيأ ألتقط أنفاسي وأفتح عينيَّ دون أن أستطيع من وطأة الألم والتعذيب تحريك أيِّ عضو من أعضائي لأن الأحزمة القاسية كانت لا تربطني فقط وإنما تلصقني على كرسي الإعدام على

نحو كامل الإحكام. أمَّا غرز الإبر بحجة أخذ الدم للتأكد من حـالتي الصحية فحدِّث ولا حرج! إذْ لم يبقَ لي عِرْقٌ إلا وقد وُخِزَ وغُرزت فيه الإبر بغرض التعذيب والإيذاء، وأيضاً بغرض تدريب المستجدين من الطواقم (الطبية) على جسمي الذي أقل ما يمكن أن يوصف بـه هو أنه جسم قد هدَّه الجوع وأصابه الوهن.

هكذا مرت أيامي الأخيرة في ذلك المعتقـل التعـيس، أكثـر المعتقلات مأساوية وسوداوية في تاريخنا الحديث. حقًّا هناك جنـود قاموا بالتعذيب وضباط شاركوا وأمروا به، وذهـب الكـثيرون إلى المبالغة في اتهام الجنود والضباط وتحميلهم المسـؤولية عـن تعـذيب المعتقلين في غوانتانامو، وهم صادقون. لكن العقل المدبِّر والمختـرع الرئيس لوسائل التعذيب البدني والنفسي المتنوعة في الحقيقة هم هؤلاء الأطباء الذين أبدعوا في القسوة والألم وإيذاء بني البشر. وقد صرَّحوا لنا ذات يوم قائلين: سنعذبكم دون موت.. ولن نسمح لكم بالموت عندنا، ولكن ستعيشون بين الموت والحياة. كان هذا هو شـعارهم اللعين. بل إن الصحفي الأميركي في مقاله المنصف "التجنُّب والهروب والمقاومة" قال بالحرف الواحد: وحسب معايشتي لهؤلاء الأطباء فقد كانوا مشرفين حقيقيين على كل مراحل التعذيب مبيِّنين كل منـاطق الألم ومراكز الإحساس، وقد تجاوزوا مجرد الاستشارة في أكثر مـن حالة. ورغم حرصهم على أن يظلوا خلف الستار، فهم مسـؤولون عن أنواع من التعذيب والإيذاء بل ونقل الإفسـاد مـع الترصـد والإصرار. إنه لهولٌ مفزع فالأطباء الذين وضعوا أنفسهم في خدمـة الألم بعد أن أهَّلتهم جامعاتهم وعوائلهم ليكونوا أعداء لـه وبعـد أن أقسموا القسم الطبـي أثناء تخرجهم، أصبحوا يمارسون من مـثيرات

الألم أصنافاً شتَّى وأنواعاً كثيرة، تبدأ من إعطاء المريض دواء منتهي الصلاحية، وهذا ما حدث عندما أعطي "الكرمن" (قطرة العين) للأخ "عبد الرحمن الغامدي" فالتهبت عينه وازداد ألماً على ألم.. وآخر أُعطي قطرة الأذن بدلاً من قطرة العين، وغيرهم كثير. أمَّا العمليات الجراحية في المعتقل، فتنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: يزعمون فيه الأخطاء الطبية، وهذا أمر لا محيد عنه، ومتعارف عليه في غوانتانامو. وقد سمعت في تقرير أن الأخطاء الطبية في عموم الولايات المتحدة تبلغ سنويًّا 150 ألف خطأ رغم التقدم التقني والخوف من المتابعة القضائية، فكيف بمستشفيات غوانتانامو حيث لا رقيب ولا حسيب، وحيث السوء يتجلّى في أبشع صوره. ومن نماذج ضحايا الأخطاء الطبية المفترضة أو المفتعلة على الأصح في غوانتانامو، الأخ عبد الرحمن المصري الذي قُطعت رِجله بطريقة بشعة، حيث تركوا قدراً يسيراً من الساق تحت الركبة رغم أنه كان بإمكانهم أن يتركوا خمسة عشر سنتيمتراً، بدلاً من خمسة سنتيمترات. زد على ذلك أنهم نزعوا من اللحم أكثر من اللازم فأصبح العظم معرضاً للألم، وينكأ الجرح كلما لامسه ثوب أو قيد أو أرضية الغرفة فيكاد يُصعَق من فرط الألم.

النوع الثاني: هو عمليات مُفشَلة (تم تعمُّد إفشالها)، كما وقع للأخ "أنصر الباكستاني" الذي أجريت له عدة عمليات فاشلة، حتى أُصيب بالشلل شبه الكامل، بعد أن كان من أقوى الناس جسماً وأقومهم شكلاً وأحسنهم مشية.

النوع الثالث: هو "العمليات العبثية"، وهي تُجرَى لثلاثة أسباب: أحدها: تأديب قادة الاحتجاجات؛ فالمعتقل "عمران

الطائفي" أُجريت له عشرون عملية جراحية لعرقلة نشاطه في قيـــادة تلك الاحتجاجات. وثانيها: تدريب المتدرِّبين على إجراء العمليات. وهناك حالة أو اثنتان على الأقل أُجريت لغير الغرضـــين الســـابقين، ويزعمون أنها مجرد "عمليات جراحية عادية".

قصتي فيها الكثير مما لم أكن أتوقعه، لكن كيف بدأ كل شيء؟ وكيف انتهى؟

الآن، حينما أجلس وحدي، يلفُّني صمت الليل وظلامه.. أتأمل الصيرورة وقد طوت في مسيرتها كل تلك الأيام والأعوام.

أسأل نفسي: ما اللحظة التي أمسكَتْ فيها مزالق القدر بقدمي، لتأخذني إلى ذلك الطريق، الذي قادني إلى بوابة ســـجن غوانتانـــامو لتنفتح فأدخل مُقيَّداً أرسف في الأغلال، وتنغلق من ورائي في جـــوٍّ رهيب.

نعم، في الحياة مزالق تزلُّ بها القدم على حين غرَّة، فيفعل القدر فعله.. تماماً كما يفعل منحدَرُ السيل بالسيل.

قرب شواطئ الخليج العربـــي أجلس الآن في حجرتي المظلمة، وحيداً.. تملأ نفسي ذكرى معاقل خليج آخر، غريـــب.. ذكـــرى أسلاك شائكة، قعقعة سلاح، نباح كلاب، ألوان قمصاننا التي تُذكِّر بلون الدم، لون الموت.

وتظل تتناهى إلى أذنيَّ أصوات الألم تنبعث من الأماكن حولي. لم يكن السجانون يوفرون شيئاً، ولقد عانى النزلاء ما عانوا.

فجأة يصرخ الطائر فزِعاً؛ أراه تحت ضوء النجوم البعيدة يقـــف وحيداً يتلفت كالهائم على إفريز النافذة يجاهد في ضم جناحه الأيمـــن

إلى جسمه؛ أقوم من مقعدي وأمشي ثلاث خطوات، أدنـــو منـــه، ولكنه يُصاب بالذعر، فيضرب جناحه الأيسر ويطير بينمـــا يتـــدلى جناحه الأيمن تقطر منه قطرات دم تحت ضوء النجوم!

ما الذي أصاب جناح الطائر المسكين؟

وعاد الزمان القهقرى إلى اليوم الذي تمزقت فيه أربطة ركـــبتي أثناء الرحلة بطائرة الشحن من باكستان، يومَئذٍ كنت أصـــرخ مـــن شدة الألم، ومع كل صرخة كان يضربني أحد الجنود. سقطتُ مـــن الإعياء، من البرد والألم، جرُّوني على الأرض لأني لم أستطع المشـــي، سحبوني بقوة ورفسوني بأحذيتهم الخشنة الثقيلة، ثم واصلوا سحبـــي حتى أدخلوني إلى غرفة، ثم نزعوا عني الكيس الذي كانوا يغطون بـــه وجهي ورأسي، فوجدت نفسي وسط مجموعة من الجنود يُشـــهِرون أسلحتهم في غرفة مضاءةٍ إضاءةً قوية.

كان الضوء مسلطاً تماماً على عينيَّ، وكان الجنود يحيطون بـــي من كل جانب، وقال لي أحدهم وكان يقف أمامي: لا تتحـــرك، لا تفعل أي شيء، لا تأتِ بأدنى حركة، عليك أن تنصاع لأوامرنا، أي حركة منك ستنجم عنها طلقة رصاص تستقر في دماغك.

كان الجنود من حولي يرفعون عصيهم، ويشـــهرون بنـــادقهم ومسدساتهم. قطعوا حبلاً كان يحيط بمعصمي، وحالما تمكنـــت مـــن تحريك يدي، طلبوا مني خلع ملابسي فبدأت أخلعها ببطء، كنـــت أرتجف من البرد وأتمايل من الوهن والإرهاق، وهم يتصايحون مع كل ميلة.

خلعت أولاً اللبس الأزرق الذي جعلوني ألبسه قبـــل الصـــعود للطائرة من باكستان، وكان قطعة واحدة مثل ثيـــاب الميكـــانيكيين

الذين يصلحون السيارات. ثم طلبوا مني خلع البنطلون والقميص. كنت أرتدي تحت البنطلون والقميص ملابس داخلية طويلة وقاية من البرد، فطلبوا مني خلعها! وقفت حائراً متردداً، فتصايحوا: إن لم تفعل أطلقنا عليك الرصاص.

خلعت القميص واستبقيت السروال فظلوا يتصايحون وأنا في ذهول يداي متشبثتان بالبنطلون أرفض خلعه وأتلفت يميناً ويساراً فلا أرى سوى أسلحة تُشهَر وأفواه تصرخ ووجوه قاسية صلدة مرعبة مخيفة مفزعة.

تقدم نحوي الجندي الذي يقف قبالتي تماماً وهو يسحب أمامه مدفعه الرشاش، وطلب مني أن أخلع السروال الطويل وبدأ في تحريك الكلب الذي كان ينبح بصوت عال. خلعت السروال الطويل ثم طلب مني أن أنظر أمامي ولا ألتفت إلى الوراء. كنت في ذهول تام أشعر بألم ما فوقه ألم، ولا أدري أهو ألم المرض أم ألم الأَسْر أم ألم القهر والإهانة التي كنت أشعر بها من إكراهي على خلع ملابسي أمامهم وأمام كلابهم ومجنداهم؟

ذلك الجرح أصبح أكثر غوراً يوم حكى لي أخي الشيخ علاء ما قد مرَّ به، قال: أخذوني بعنف وقسوة من تحت إبطي ويدي إلى الخلف، معصوب العينين موثوق المعصمين، دفعاً وقسراً إلى الأمام، ثم غيروا قيودي بأخرى، وشدَّدوا تلك التي في الرجلين من المادة البلاستيكية الحادة التي تجرح كالسكين، ألبسوني كِيساً أسودَ على رأسي، سحبوا مني نظارتي ثم اقتادوني وجرُّوني على نحو سريع. لم أدرِ كيف يمكن لي أن أجاريهم وأنا موثق الرجلين، سقطت منكفئاً على وجهي فرفعوني إلى سيارة، بعد قليل أنزلوني منها ومع كل

صعود ونزول كان يتم تفتيشي بطريقة وحشية همجية يتبعها مشيٌ سريع عنيف، في منحنىً متصاعد إلى الطائرة. كان ذلك كافياً جداً لإرهاقي إلى الدرجة القصوى؛ إذ إنني أعاني عموماً وهناً بدنيًّا مع ضعف في السمع والبصر. أدخلوني الطائرة وأجلسوني على الأرض، ثم مددوا رجليَّ إلى الأمام، وجمعوا يديَّ بقيد واحد، مربوط بقيد آخر في خصري، وفيه حبل مرتبط بقيد القدمين.

بجوار رجلي وضعوا كلباً كنت أشعر بملمسه، ثم وضعوا حبلاً حديديًّا على رقبتي، وشدُّوه بإحكام إلى درجة قريبة جدًّا من الاختناق، وكنت أسمع صوت شد الحبل وكأنه يشدُّ بماكينة. لم ينسوا أن يضربوني بكعوب أحذيتهم العسكرية الثقيلة مِراراً على أطراف يدي، وأن يلكموني مرات عديدة على رأسي والحبل يخنقني. توقفت الطائرة فسمعت أصواتاً كثيرة تدل على أن آخرين يُرغمون على ركوب الطائرة. عرفتُ فيما بعد أنهم كانوا مجموعة من المحبوسين نُقِلوا معنا في رحلة واحدة إلى باغرام. وفي النصف الثاني من الرحلة فكُّوا الحبل الحديدي وحوَّلوه من رقبتي، وما كدت أحمد الله تعالى، حتى وجدتهم قد حولوه إلى صدري من الأمام وعلى ظهري من الخلف، وبدؤوا يعصرونني كقطعة من القماش ويضيِّقون ويضيِّقون حتى كاد الحبل يدخل في عظامي. ومما ضاعف عليَّ الآلام أن الحبل كان موضوعاً محل جرح عملية جراحية كنت قد أجريتُها في بيشاور من قبل، وتم فيها استئصال جزء من الرئة. استمرت الحال حتى هبطت الطائرة في باغرام، وعند النزول دفعوني بكل قوتهم وجرُّوني مسافة كبيرة فاستسلمت بين أيديهم. لم يكن بمقدوري مجاراتهم في جريهم مع قيودي وهم يحولون دون سقوطي على الأرض، فما كان

منهم إلا أن رموني كما يُرمى الكيس، فوقعت على بعض الإخــوة الذين كانوا قد انتهوا من دورة الجري والعذاب هذه.

استأنست كثيراً بوجودي بين أجساد الإخوة، و لم أكد أهنأ بهذا الاستئناس اللذيذ حتى وجدتهم يلقون فوقي ببعض الإخوة. بعد ذلك بدأت جولة أخرى: امشِ.. مشيتُ، اصعد.. صعدت، انزل.. نزلت، اعبر.. عبرت، أسرع.. أسرعت، اِخفضْ رأسك، اخفــضْ، اِنحــنِ اِنحنِ. وبعد زمن ليس بالقصير لعلهم أصابهم التعب أدخلــوني وأنــا مُنْحَنٍ إلى مكان أظنه غرفة تحقيق، سمعت فيها أسئلة تنهال على أحد المستجوَبين. تركوني فترة دون سؤال ثم أخذوني إلى مكــان آخــر ورموني مرة أخرى كما يُرمى الكيس، وتركوني فترة ثم عادوا وغيَّروا القناع إلى قناع نصفي يمكنني الرؤية من ورائه شيئاً ما، بعدها قــالوا لي: تخلع كل ملابسك وتقف عارياً كما ولدتك أمك، ثم تقف على رجل واحدة والكل ينظر رجالاً ونساءً! الأدهى والأمر في كل ذلك هو أنهم لابد أن يكشفوا على الدُّبر بالقهر والقوة حتى يطمئنوا علــى صحتنا!

الفصل الثالث

وانقطع حبل ذكرياتي جرَّاء حفيف أجنحة طـائر الليـل ذي الجناح المهيض؛ إنها حقًا مصادفة غريبة لتدفق هذه الذكريات وظهور هذا الطائر الوحيد؛ لكأنه يحاكي وحدتي في هذا الظلام!

وتتزاحم في ذهني خواطر من قبيل: ماذا كان ليجري لو أنَّـك ركنت لتلك الملاطفات التي يبدو لك اليوم أنها لم تكن إلا بداية طريق لإغراءات قد لا تنتهي ومساومات لا تربح مطلقاً؟!

قبل ترحيلي إلى غوانتانامو، قال لي المحقق بلطف لم أعهده مـن قبل و لم يتقن هو تمثيله: "أنت تعلم أننا في حرب، وأن الحرب تقـع فيها أخطاء وتصرفات غير محسوبة، وقد تأكدنا من خلال تحقيقاتنـا معك أننا مخطئون. وعلى ذلك، فقد قررت إدارة المعسـكر إطـلاق سراحك وإرجاعك إلى بلدك، وسنعطيك ملبساً ومبلغاً مـن المـال يكفي لتوصيلك إلى بلدك". عندما نظرت إليه قال: "لا تحسـبن أن المبلغ كبير، فهو محدود، محدود ولكنه يكفيك لتصـل إلى بيتـك"؛ بادرته قائلاً: "إن لديَّ تذاكر توصلني الدوحة ولديّ مبلغ من المـال يكفيني، وكل ذلك موجود في الأمانات لديكم، فلا حاجـة لي بما تعرضونه عليَّ. أنا في حاجة فقط لورقة منكم تعترفون فيها بالخطـأ، وتكون موجَّهة لقناة الجزيرة حتى أعود إلى عملـي". ردَّ بالإيجـاب

وقال: "سنعطيك الرسالة التي تريد شريطة ألا تنشرها".

تعهدت له بذلك، وودعني على وعد بإطلاق سراحي خلال أيام.

وبعد أسبوع من ذلك الزعم نادوني للتحقيق معي مجدداً، واستقبلوني بصورة مغايرة لما اعتدته منهم في السابق. تلقاني المحقق هاشًّا وأسرع يقدم لي كرسيًّا لأجلس عليه وبطانية لأتغطى بها، تعامل معي بلطف، حتى الأسئلة كانت ودية تأخذ منحىً خاصًّا بحياتي العائلية بعد الزواج وعلاقتي بأذربيجان. لاحظت أن المحقق هذه المرة كان يتكلم بهدوء ويرتدي ثياباً مدنية عكس سابقيْه، ويتكلم الإنجليزية بلكنة بريطانية، لا علاقة لها بما ألفتُه لدى الأميركيين!

أعلمُ أن الأميركيين خليط من الشعوب والقوميات، وربما يكون هذا المحقِّق مهاجراً أو مقيماً، كما لم أستبعد أن يكون موظفاً لديهم من جنسية بريطانية.

بعد ذلك بشهر، حقَّق معي جندي وبمعيَّته مجنَّدة، رحَّبا بي وأجلساني على مقعد، وذكر الجندي أنهما يعرفان أنني مصور لقناة الجزيرة وأنني أتيت إلى أفغانستان لأداء مهمة إعلامية، وأكَّدا أنهما يعرفانني جيداً.

رددت عليهما بهدوء، قائلاً: حسناً، أنتما تعرفانني، فمن أنتما؟

قالت المجندة هازئة: "نحن توم آند جيري، هو توم وأنا جيري".

لم يكن يعنيني أن أبتسم للنكتة، فأظهرت الجدية وقلت لهما: ما الذي تريدانه منِّي؟

فأجابا: نحن نعرف أنك على وشك الخروج والسفر، ونود أن نسألك بعض الأسئلة: أيُّ الأشخاص أكثرُ احتراماً داخل الخيمة التي

تقيم فيها الآن؟ أو بتعبير آخر، من الأمير أو الشخصية الأهم في تلك الخيمة. ذلك الشخص الذي إذا تكلم أصغى له الجميع وإذا أمرهم أطاعوه؟

فقلت لهما: لا يوجد بيننا شخص بهذه المواصفات، نحن كلنا أشخاص عاديون. فردًا بالسؤال: وكيف هو حمزة البطل؟ وكم بطّانية لديه؟ وكم وجبة يأكل يوميًّا؟

حمزة البطل هذا، مواطن تونسي أقل ما يوصف به فعلاً أنه رجل شجاع، لا يهاب ولا يخاف في الحق لومة لائم، ولا يستكين للجنود الأميركيين في أي طلب، وكان يرد عليهم بقوة. قلت لهما: إن حمزةَ رجل عادي وإنسان طبيعي تماماً، يحترم الآخرين ويؤدي صلاته ويعيش كأي سجين ليس له أي تسلُّط وليست لديه أي امتيازات.

بعد أن ساد صمت ثقيل سألاني عن موضوع آخر، قالا: نريد أن نسألك: مَنْ في خيمتكم يفكّر في الهرب أو في تنفيذ أي عمل عنيف ضد المعسكر؟

فقلت لهما: أين المهرب!؟ نحن في قندهار، في المطار، حيث القاعدة العسكرية الأميركية، يحيط بنا الجنود من كل مكان. فبأيِّ منطق نفكر في الهرب؟ وحتى لو خرج أحدنا من المكان وتجاوز كل هؤلاء الجنود فإن الأفغان كفيلون بتصفيته، كيف يفكر أيٌّ منا في الهرب؟

فردَّ عليَّ الجندي قائلاً: إذا لم تكن أنت تفكر في الهرب فغيرك يفكر.

قلت لهما: لم أسمع بذلك. وأردفت: إن الجميع لا يعرفونني وربما يأخذون حذرهم مني. باختصار: لم يَبُحْ لي أيٌّ منهم بسرٍّ كهذا.

وجاءت اللحظة التي أفصحا فيها عن نيتهما وقصدهما الخبيث: "إذن نريد منك أن تتعاون معنا. إذا سمعت أيًّا منهم يقول إنه يريد الهرب أو يقوم بعمل غير بريء أو يحظى باحترام خاص أو منزلة غير اعتيادية، فبلِّغْنا عن ذلك كله، وبلغه للجنود، وسنستدعيك هنا ونعطيك ما تريد من طعام وبطانيات وغيرها". لم يكن أمامي غير تكرار أنني لا أريد منهما أي شيء، ولست بحاجة إلى شيء، وما أطلبه هو إطلاق سراحي وإرجاعي إلى زوجتي وابني وعملي، فكان ردهما: "سنطلق سراحك قريباً، وحتى يتم ذلك سنقوم برعايتك وتوفير احتياجاتك مقابلٍ ما نطلبه منك". جدَّدت اعتذاري عن عدم القيام بتلك المهمة، قائلاً: إنني لا أعرف هؤلاء الناس، وليس بإمكاني تقديم المساعدة، فهم لا يعرفونني ولا يثقون بي، وكل ما لاحظته فيهم أنهم أناس عاديون بعيدون عن التفكير في الهرب وما شاكل ذلك. عندئذٍ أنهوا اللقاء وأرجعوني إلى الخيمة.

عندما يعود أحدنا يلتف الجميع حوله لسماع ما دار معه من تحقيقات، ويجتمع لديه ثلاثة أشخاص؛ إذ يُمنع تجمع عدد أكثر من ذلك، ويجلس الباقون على مسافة قريبة يسترقون السمع، والناظر إليهم يظن أنهم يتحدثون فيما بينهم أو كأنهم يستمعون لشخص آخر وهو يتكلم بصوت عالٍ حتى يسمعه الجميع. عند عودتي إلى الخيمة هذه المرة، ناديت حمزةً التونسي، وقلت له: "إن المحققين يسألون عنك، ويقولون: إنك أكثر احتراماً، فقلت لهم: إنك رجل عادي وطيب وتؤدي صلواتك".

فردَّ عليَّ حمزة قائلاً: لقد أصبتني في مقتل من غير أن تقصد! لقد كنت أقنعهم بأنني بائع مخدرات في إيطاليا ولا علاقة لي بالتدين

والدين! فعليك أن تؤكد لهم ذلك في المستقبل إذا رجعت إليهم.

بالفعل استدعوني للتحقيق معي مرة أخرى، وابتدروني هذه المرة بالسؤال: هل تعرف قتلة أحمد شاه مسعود؟

فأجبتهم بأنني لا أعرف من قتله. فكرَّروا السؤال وكررت الجواب.. ثم قالوا: لا، أنت صحفي وبإمكانك الوصول إلى معلومة كهذه، فمن تعتقد أنه قتل الرجل؟

قلت لهم: إذا كان الأمر يتعلق بوجهة نظر، فأنا أرى أن الذي قتل أحمد شاه مسعود هو إحدى الجهات التي لها مصلحة في ذلك، على سبيل المثال: أميركا يمكن أن تكون هي التي قتلته؛ لأن لها مصلحة في ذلك؛ إذ من المعروف أن للرجل علاقات متميزة بفرنسا، ومن المعروف أن أميركا غير راضية عن تلك العلاقة؛ فمن مصلحتها تصفيته، خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار نفوذه الواسع في الشمال، وهو ما يؤهِّله ليكون شخصية فاعلة تجتمع حولها القوى الأفغانية متى سقط حكم طالبان.

سألني المحقق عن الاحتمال الثاني وهو يدوِّن المحضر، فقلت له: لا شك أن لطالبان أيضاً مصلحة في قتله، فقد وقف سدًّا منيعاً أمام توسعها في الشمال.

قال: ثم من؟

قلت: القاعدة أيضاً لها مصلحة في ذلك، باعتبارها حليفاً لحركة طالبان وهمها مصلحة الحركة.

قال: ثم من؟

قلت: باكستان كذلك، فأحمد شاه مسعود يناهض النفوذ الباكستاني ولا يُستبعد أن تستهدفه باكستان التي يعاديها ويعادي

حلفاءها من قبيلة البشتون. كما لا أستبعد أن تكون تصفيته في إطار صراع حزبي داخلي، فهذه المنظمات العسكرية لا تخلو من صراعات أجنحة، تعززها نزاعات قومية ونزعات عرقية يدعمها تنافس دولي وإقليمي حاد. وفي ضوء ذلك، لا يمكن استبعاد عامل الثأر في مجتمع قروي بدوي تتحكم فيه جرائم الثأر. كما لا يمكن استبعاد الروس، فتاريخ المواجهة بين الفريقين عنيف أيام الجهاد الأفغاني حين كان الاتحاد السوفيتي يحتل البلاد.

ثم أضفت: كل هذه احتمالات قد يَصدُق أحدها، وقد تتقاطع فيها الأدوار.. لكن، من نفّذ العملية؟ ولحساب من؟ ذلك ما لا يمكنني الإجابة عنه.

كتب المحقق تقريراً بكل هذا الكلام وأردف بتكرار السؤال: ألا يوجد طرف آخر محتمل؟

قلت له: هذا ما ساقني إليه التحليل ولا يمكنني افتراض جهة أخرى.

فأعادوني إلى الخيمة بعد انتهاء الجلسة التي يمكن تسميتها بالتحقيق في مقتل شاه مسعود.

الفصل الرابع

تقدَّم الليل وطائر الليل لم يزل جاثماً على إفريز النافذة يغني طوراً وتارةً يغني لجمال الليل العربي، مستني كفٌّ حنون وسمعت صوتاً لطيفاً يسألني: "سامي! لَم تراك تجلس مستيقظاً؟ هل من شيء؟" كانت تلك زوجتي التي حرمني منها الزبانية سنوات طويلة.

"لا شيء، فقط أشعر بالراحة أنني في بيتي مع أسرتي وأحاول تسجيل ما مضى من أيام قاسيات كلها انقضت بعون الله".

"لكنني لا أراك تكتب! إنْ منحك الله القدرة على تذكُّر تلك الأيام الصعبة فيتعين عليك تسجيل كل لحظة فيها".

"معك كل الحق زوجتي العزيزة".

وغابت ثم آبت تحمل أقلاماً وأوراقاً، وضعتها جميعاً ثم جلست إلى جانبي تنظر إليَّ مرةً ومرةً إلى الطائر، "هذا هو رفيقي هذه الليلة انهضي وخذي قسطاً من النوم، هيا". ونهضت بينما أخذت قلماً وجعلت أكتب: كان التحقيق في مرحلة الوعد المزعوم مقتصراً على أسئلة تتناول أشخاصاً وطلبات تعاون على غرار ما أوضحت، كنت في كل مرحلة أقول لهم: إنني متعاون تماماً في ما أعرف، مؤكداً أن رغبتي هي العودة إلى أهلي. وقد ظلوا يقولون لي في كل مرة: إنها وشيكة، لكنهم كانوا يُلحُّون علي بأنَّ تعاوني لا يزال غير كاف. وفي

الفترة الأخيرة تركزت أجوبتي على التكرار بأنني لا أدري، إذ كانت أكثر الأسئلة تتناول أشخاصاً أو وقائع مجهولة.

خلال الأشهر الستة التي قضيناها في قندهار، نُقِل أغلب المعتقلين إلى غوانتانامو، وكانت أول طائرة أقلّت معتقلين إلى ذلك المكان سيئ السمعة قد أقلعت يوم الحادي عشر من يناير/كانون الثاني.

هل هي مصادفة أم أنهم تعمدوا اختيار ذكرى مرور أربعة أشهر على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001 ليقوموا بنقل من ظنوهم مسؤولين عن تلك الهجمات؟ لا أدري! فهم وحدهم يملكون الإجابة، والمستقبل قد يكشف ذلك.

كانوا يأخذون في كل فوج زهاء عشرين معتقلاً، ويفصلون بين الفوج والآخر بنحو يومين إلى ثلاثة، وعلمنا فيما بعد أن أفواج المعتقلين تسبَّبت في زحمة السجن المؤقت بغوانتانامو، مما اضطرهم لبناء سجن "دلتا"، فكانوا كلما بنوا وحدة سجون جديدة هناك أخذوا يملؤونها من قندهار. وهكذا خلال خمسة أشهر كان ثمانون في المئة من المعتقلين في قندهار قد نُقلوا إلى غوانتانامو.

كُنَّا بين الفينة والأخرى نلتقي بمعتقلين جدد تباينت قضاياهم. التقيت بمجموعة من الأفغان جِيء بهم بتهمة الانتماء لحركة طالبان والتهيئة لعمل عسكري. والحقيقة كما أثبتتها التحقيقات التي هيَّأت لإطلاق سراحهم، أنهم تجمَّعوا في مسجد لبحث قضايا اجتماعية تخصهم. فأبلغ عنهم أحد الأفغان، فأحاط الأميركيون بالمسجد واعتقلوهم ليُخلَى سبيلهم لاحقاً بعد تحقيق وتعذيب وتنكيل.

في إحدى المرات جيئ بمجموعة تتبع لزعيم الحرب الأفغاني الأوزبكي، الجنرال عبد الرشيد دوستم، وقد أحضروهم بأزيائهم

العسكرية ومنعوا الاتصال بهم، ليتبين لاحقاً أن هؤلاء دخلوا في معركة مع قوات زعيم الحرب، الجنرال فهيم، للسيطرة على مصنع للإسمنت في الشمال، وأن القوات الأميركية تدخلت واعتقلتهم لفكِّ الاشتباك!

على هذه الشاكلة كانوا يأتون بمجموعات من الأفغان بين الفينة والأخرى، ليطلقوا سراحهم لاحقاً. لكن المعتقلين العرب وذوي الجنسيات الأخرى غير الأفغانية لم يُطلَق سراح أيٍّ منهم، فالخطأ في اعتقالهم لم يكن وارداً على ما يبدو في أذهان السلطات الأميركية حينئذ. ومع نهاية شهر مايو/أيار، لم يبقَ من المعتقلين في قندهار إلا ما بين عشرة إلى عشرين في المئة، فكنتَ لا تجد في الخيمة الواحدة أكثر من سبعة أشخاص.

في اليوم الثالث عشر من شهر يونيو/حزيران بدأ نقل البقية إلى غوانتانامو، ويبدو أنه صدر قرار بنقل الجميع وإغلاق معسكر قندهار نهائيًّا، فنظموا رحلات بمعدل رحلة واحدة كل يومين. كانوا ينادون على رقم المعتقل المرحَّل، ويُنقل إلى خيمة أخرى عند صلاة الظهر، ويبقى هناك إلى ما بعد صلاة العشاء فيُنقَل إلى طائرة تُقلُّه إلى غوانتانامو.

استدعوني في منتصف نهار يومٍ شديد القيظ، فيه يظن الإنسان أن الشمس مُسلَّطة على رأسه وحده!

خرجت من الخيمة مع عدد من المعتقلين، وقبل أن ننطلق أوثقونا بالحبال وأجلسونا على الأرض جثِيًّا على ركبنا، وغطوا رؤوسنا في ذلك الحر في انتظار تجميع بقية المعتقلين من الخيم الأخرى، ثم جمعونا في صف واحد.

سيق ذلك العدد إلى خيمة النقل، كنّا مقيَّدي الأيدي والأرجل، ويربط بين صفوفنا حبل يشد بعضنا إلى بعض. خرجنا من الحوش الأول إلى حوش آخر، وبين كل سوريْن خيامٌ للحراسة وأبراجٌ عالية لمراقبة خيام المعتقلين. وفي السور الثالث أدخلونا إلى إحدى الخيام، وبقينا مقيدي الأيدي في انتظار الترحيل، يحرسنا العسكر وكلابهم.

وبعد المغرب كانوا يأخذون كل معتقل إلى خيمة أخرى، وهناك تبدأ حلقة جديدة من مسلسل الإهانة والذل، حيث يَشُقُّ ويمزِّق الجنود ملابس المعتقل كلها ليبقى عارياً تماماً كما ولدته أمه! ثم يقومون بفحصه فحصاً مذلاًّ! وبعد ذلك يسلّمون المعتقل ملابس برتقالية ويلتقطون له صوراً عدَّة بتلك الملابس التي تحمل رقمه.

في شهر إبريل/نيسان غيروا أرقامنا فمنحوني الرقم (345) بدلاً من (448)، وكانوا يقومون - كما أسلفت - بتصويرنا بالرقمين ثم يجرون بعض الفحوصات، وأهمها عينات من الدم وشعر الوجه واللعاب، ثم يأخذون بصمات العين والأصابع. بعد ذلك ينقلون المعتقل إلى الطائرة وهو مقيَّد بسلسلة قصيرة ترغمه على أن يبقى مطأطِئَ الرأس محدودباً. والأدهى أنهم يشدون الأقفال على يديك ورجليك حتى تتألم بفعل انحباس الدم، ثم يضعون على يديك قفازات لا أصابع لها بحيث تكون الأصابع الأربع في وعاء واحد، وتبقى الأصبع الكبيرة (الإبهام) في وعاء آخر، ويوضع غطاء الرأس الأسود على رأسك، ويضعون كمامة على فمك، وعلى عينيك نظارات سوداء معتمة كتلك التي يستخدمها فنيو الحدادة واللحام. ولا يكتفون بكل هذه الأنماط المتعددة من الإهانات والإمعان في الإذلال، بل يضعون سماعات كبيرة تحجب الصوت عن أذنيك. ثم تقاد في

صف مقروناً بحبل مع المعتقلين الآخرين، تتنابح من حولك كــلاب الحراسة ويلاحقك صياح الجنود وسبابهم وهمهماقم. وفي منتصـــف الطائرة يُجلسونك على مقعد خشبـــي طويل شبيه بخشـــبة الـــنعش ويربطونك من قدميك المقيدتين أصلاً بأرضية الطائرة بسلسلة حديد ثقيلة، وتظل على هذا الوضع حتى تحط الطائرة على أرض المطار.



الفصل الخامس

ويتناهى إلى أذني حفيف الموج في الخليج العربـــــي القريـــب فأعود أذكر معاقل الخليج الآخر، الخليج الغريب. أذكـــر الأســـلاك الشائكة، قعقعة السلاح، نباح الكلاب، ألوان قمصاننا الـــتي تُـــذكّر بلون الدم، لون الموت، وتعلو صرخات الألم المنبعثة من كل مكان!

أحياناً تنتابني موجة ذهول تخفّف ألم البدن ولكنها تعمّق جراح النفس، وأعود أسأل نفسي: كيف بدأ كل شيء؟

وأتذكّر صبيحة وصولنا إلى مدينة كراتشي الباكســتانية، يــوم أقلّتنا منها طائرة الخطوط الباكستانية إلى إسلام أباد.

وفي مطار العاصمة، وجدنا فريقاً من السفارة القطرية، فذهبنا معهم إلى مباني السفارة حيث التقينا نفراً منهم السفير آنذاك، عبد الله فلاح؛ بقينا معهم في جو ضيافة عربية، في قاعة كبيرة فُرِشت فيها المناضد بصواني الأرز، من فوقها الخراف الكاملـــة المســـلوقة والمحمرة على الطريقة العربية، وعلى الزوايا أباريق القهوة العربية. انتقلنا إلى فندق قريب، التقينا فيه بمراسل الجزيرة الزميـــل أحمـــد زيدان.

مكثنا ثلاث ليال في ذلك الفندق في إسلام أباد، وقد ســـاعدنا أحمد زيدان في الحصول على التأشيرات المطلوبة من السفارة الأفغانية.

أذكر أن السفير يومئذ كان عبدالسلام ضعيف، وقد أصبح رفيقاً لنـــا في غوانتانامو فيما بعد.

خلال الأيام التي مكثتها في باكستان، بدأتُ أستعيد وقع اللغـــة الأوردية الجميلة في أذنيّ، كما كنت أســـتمتع بصـــحبة النـــاس في الشوارع والأزقة والتحدث إليهم، وتناول أطباق البرياني والجـــيكن، وشرب الشاي الكرك ذي البهار؛ فأنا لست غريباً عن شبه القـــارة الهندية وأصقاعها؛ إذ جعلتني سنوات الدراسة الجامعية في الهند آلـــف تلك الأرض والسحنات، وأحبها وأحب أهلها وأتعاطف معهم على اختلاف مشاربهم. سنواتي في الهند من أهم سنوات التكوين؛ فقـــد جعلتني أنفتح على ثقافة ضخمة وتاريخ لحضارة تضـــرب بعيـــداً في أصل التاريخ.

بمجرد حصولنا على التأشيرات، انطلقنا من إسلام أباد متوجهين إلى منطقة كويتا. وهناك نزلنا في فندق يضـــم جميـــع الصـــحفيين الأجانب وبالأخص الزملاء في "سي.إن.إن" التي كانت تربطها يومئذ بالجزيرة اتفاقية تعاون. كنت دائماً أُكِنُّ احتراماً خاصًّا للعـــاملين في مجال الصحافة والإعلام، منذ سنوات الطفولة الأولى. ميولي الصحفية ظهرت منذ دخولي المدرسة الإعدادية، فقد قادني ولعي بالكتابـــة إلى تحرير صحيفة "المشكاة" الطلابية، وهي صحيفة جدارية أخذ بيـــدي فيها أساتذتي، وأعانني عليها زملائـــي مـــن الطـــلاب، فصـــمدت "المشكاة"، وظلت تصدر بانتظام طوال سنوات الإعدادية.

و لم تكن فترة دراستي في الهند خلوًّا من تلك الميول الإعلاميـــة، لكنها كانت تتخذ في الأغلب شكل نشاط في المنتديات والأعمـــال الثقافية، وأحياناً تلبس لبوس الإنشاد الشعري. لكن خـــلال تلـــك

السنوات لم يكن هناك عمل صحفي بالمعنى المهني، ولعله كان مجرد فضول صحفي، فضول تحوَّل احترافاً وسط عمالقة من المحترفين.

كانت "سي.إن.إن" تغطي للجزيرة مناطق شمال أفغانستان، وكانت الجزيرة تغطي لـ "سي.إن.إن" منطقة كابول وبعض المناطق الأخرى، وكان لـ "سي.إن.إن" بيت في قندهار يقيم فيه مراسلهم هناك؛ فأقمنا فيه معه.

مكثنا في كويتا ثلاث ليال، وقابلنا فيها مراسل الجزيرة، حسن الراشدي، الذي كان يغطي تلك المنطقة. ثم دخلنا إلى أفغانستان عن طريق المنطقة الحدودية: جمان، ثم بولدق، وهي بداية المناطق الأفغانية، بداية الطريق إلى غوانتانامو في ليلة لا كَلَيْلَتِي هذه.. ليلة لا تعرف طائراً ولو مهيضَ الجناح.. إنها ليلة من ليالي قندهار.

في الساعة التاسعة ليلاً تقريباً أقلعت بي مع آخرين طائرة غربية في رحلة قُدِّر لها أن تكون رحلة لعذاب سيمتد لما بين أربع إلى خمس ساعات، كنَّا خلالها ممنوعين من النوم يراقبنا جنود يشتموننا ويضربوننا كلما مال أحدنا على أخيه، أو حاول أن يميل على فراغ في المقعد الخشبي الصلد.

خلال الرحلة كان كل شيء ممنوعاً؛ فالأكل ممنوع، وقضاء الحاجة ممنوع، والنوم كذلك ممنوع. الشيء الوحيد المتاح هو جرعة ماء تذكِّرك بأيام المهد وحياة الأطفال الرضع، يجرعك إياها الجندي بعد أن يزيل الكمامة عن فمك. لك الحق في رفضها بإيماءة من رأسك المغطى بذلك الغطاء الذي يشبه قبعة المهرج.

رفضت، كما رفض زملائي، شرب الماء عندما عرفنا أن الحمامات غير متاحة. والحقيقة أنني لم أكن محتاجاً للحمامات،

ولكنني كنت في حاجة ماسَّة لتحريك رجلـــي بفعـــل آلام الركبـــة والآلام الناتجة عن القيود الضاغطة على الأوردة.

بعد أربع ساعات أو خمسٍ من الطيران أنزلونا في مطار، ثم نقلونا إلى طائرة أخرى. أحسسنا ببرودة الجو، وقد أدخلونـــا في الطـــائرة بالطريقة السابقة نفسها، وأجلسونا على كرسي خشبـــــي صــــلد، وربطوا أرجلنا إلى أرضية الطائرة بسلسلة ضاغطة ثقيلة. ولئن كانت الرحلة الأولى نحو أربع ساعات، فإن هذه الرحلة استغرقت ما بـــين اثنتي عشرة ساعة إلى ثلاث عشرة ساعة. كانت رحلة شاقة تجمدت فيها أطرافنا وأصابنا إرهاق غير عادي، فقد مُنعنا من النـــوم ومـــن الحركة.

غريب أمر الإنسان، فبينما هو يسبح في أمانيه ومشروعاته الـــتي لا حدَّ لها، تصبح أقصى أمانيه أن يحرك رجله أو يدير يديه أو يفـــتح عينيه. وأذكر أنني عندما نزلت، بل أُنزلت على الأصح، من الطـــائرة صاح صائح: "أنت في قبضة المارينز الأميركي، لا تتكلم، لا تتحرك". كنت أعاني ضعفاً ووهناً وإرهاقاً غير عادي ولا يمكن وصفه. أنزلونا ثم طلبوا منَّا المشي ولم تستطع أرجلنا أن تحملنا. كانوا يوقفون أحدنا فيسقط، لأن قدميه فقدتا الإحساس ولم تعودا تقويان على التحـــرك، فيحاولون إيقافه مرات دون جدوى. ويضـــربونه علـــى الأطـــراف والجنبين كيفما تيسر، رفساً بالأرجل ولَكْماً بالأيدي. فإن لم يُجْـــدِ ذلك، سحبوه سحباً حتى يُدخلوه في حافلة كانت تقف في الانتظار على أرضية المطار.

لم تكن في الحافلة مقاعد، فكانوا يجلسوننا علـــى أرضـــيتها في شكل صفوف. كانت جلستي غير مريحة وكنـــت أحـــاول أن

أعتدل، فكان الجندي يضربني كلما تحركت طوال الرحلة من المطار إلى القاعدة العسكرية التي تحوَّلت سجناً ليس كالسجون الأخرى، بل إنها العار الذي لطَّخ جبين الإنسانية، والفضيحةُ التي كشفت زيف الادِّعاء باحترام حقوق الإنسان، والشنارُ الذي لحق بأدعياء الحرية.

غوانتانامو.. ذلك المكان الذي مُلئ جوراً وعُبِّئ بالكراهية المفرطة ودِيست فيه كل القيم والأعراف التي نادت بها الأديان والمعتقدات. إنه الوجه البشع لتحوُّل الإنسانية مُنزلقاً هو أسوأ من حياة الغاب وأردأُ مما قرأناه عن القرون الوسطى!

غوانتانامو تجسيد وصورة نابضة لتسلط القوة وتحولها كابوساً!

أذكر أنني حينما كنت في تلك الحافلة في طريقنا نحو لظى غوانتانامو، كان أحد السجناء المساكين يئنُّ من فرط الألم، ويظن الجندي أنني صاحب ذلك الأنين فيضربني.

عرفنا فيما بعد أن الجزيرة التي هبطت فيها الطائرة هي غير الجزيرة التي يوجد فيها السجن، وبعد رحلة الحافلة أخذونا في عبَّارة مدة عشر دقائق تقريباً إلى جزيرة أخرى، ثم نقلتنا حافلة أخرى بالطريقة السابقة نفسها، وكنا نسمع أصوات طائرات الهليكوبتر والسيارات.

بعد حوالي ساعة من تحرك الحافلة الأخيرة، أنزلونا ثم أدخلونا إلى مكان وأجلسونا على الأرض وأرجلنا ممدودة إلى الأمام. أرخوا القيود الموضوعة على الأرجلِ وسمحوا لنا بمد أرجلنا وبسطها إلى الأمام بعد أن كان ذلك مستحيلاً بفعل القيود المشدودة بسلسلة أقصر من القامة

طوال رحلة العناء والكرب ما بين قندهار وغوانتانامو. بقيت الأيدي مقيدة ولكن الوضع كان أرحم منه في الطائرة. بعد ذلك، بطحونا على الأرض.

في حدود منتصف النهار شعرت بآلام حادَّة في قلبي، فطلبت المساعدة وأخبرهم بتلك الآلام، فكانوا في البداية يضربونني ويقولون لي: أنت قوي ولا تعاني شيئاً. فلما تكرَّر إصراري وتعددت شكاتي، حضر أحد الجنود ووضع يده على جهة القلب، ومع إحساسه بضعف النبض أخذني مباشرة إلى داخل المبنى، وهناك سألوني: ما الذي تعانيه؟ فبينت لهم أنني أشعر بآلام في القلب وضعف في النبض تنتج عنه آلام حادة.

قصَّ الجنديان اللذان أدخلاني جميع الملابس التي كنت أرتديها، وأدخلاني إلى غرفة بها حمام مخلوع الباب، وأخبراني بأن عليَّ أن أستحم بسرعة على مرأى الحرَّاس! فتحوا الماء فانصبَّ على جسدي، وبعد دقائق قلت لهم: إنني انتهيت من الاغتسال وأريد الذهاب إلى الحمام. فقالوا: لا يوجد حمام!

أخذوني إلى جندي آخر يقوم بالفحص الروتيني المعروف بما فيه من إهانة، ثم أعطوني ملابس برتقالية أخرى غير التي قصوها من قبل، ووضعوا القيود من جديد في يدي ورجلي، وأخذوني إلى مكتب وجدت فيه محققين سألوني عن اسمي وعمري وبلدي وميلادي، ثم التقطوا لي صورة وأنجزوا لي بطاقة.

كانت المفاجأة أنهم سلَّموني ورقة صغيرة، وقالوا لي: اكتب إن شئت رسالة لأسرتك. كتبت رسالة على ما أذكر من خمسة أسطر، كان مضمونها على هذا النحو:

بسم الله الرحمن الرحيم
إلى الزوجة الحبيبة أم محمد،،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
أنا الآن موجود في جزيرة غوانتانامو، في كوبا.
تم ترحيلي إليها وأعتقد أنه سيتم فحص ملفاتنا هنا
وسيعرفون أنهم أخذوني بالخطأ، وسيقومون بإعادتي إلى بلادي
أو إلى قطر في القريب العاجل.
والسلام عليكم ورحمة الله

أذكر أن هذه الأسطر هي التي كتبتها بالضبط وأضفت إليها طلب تبليغ السلام لابني محمد وضرورة الاهتمام به.

أخذوني بعد ذلك إلى عيادة، وأدخلوني فيها مقيَّداً، وسألني الطبيب عمَّا أشكو منه، فبيَّنتُ له ما أعانيه من ضعف في النبض وآلام في الصدر من جهة القلب. فأجرى لي فحوصات سريعة وعامة وسألني إن كنت أعاني أمراضاً معينة. فبينت له أنني أعاني مشكلة في الغدَّة، ولديَّ دواء كنت أستعمله بانتظام بحسب توجيه الأطباء. وأخبرته بأنني أعاني تمزقاً في الرقبة وبعض أعراض الروماتيزم المزمن. لم يكن الرجل مهتمًّا بتلك الأمراض، فنهرني قائلاً: نحن لا نسأل عن هذه الأمراض، إنما نسأل إن كنت تعاني أيَّ مرض مُعْدٍ. فسألته: ما الذي تعنيه؟ قال: هل تعاني الإيدز؟ قلت له: معاذ الله، ليس عندي مرض من ذلك القبيل. قال: هل تعاني الملاريا؟ قلت له: كانت تأتيني على فترات متباعدة. قال: سنعطيك حبوباً وعلاجات لها. ثم طلب من الجنود أن يخرجوني فجرُّوني إلى التحقيق مباشرة.

وعلى الحدود الأفغانية وجدنا أفغانيًّا ينتظرنا يُسمَّى قاري سيب، أو قاري حافظ[1].

كان يتكلم اللغة العربية وكان دليلنا إلى قندهار التي وصلناها تلك الليلة، وعندما وصلنا إلى أبواب قندهار، كان هناك قصف جوي مكثف على مطار المدينة. وأذكر أن الزميل يوسف الشولي أنجز أول مقابلة صحفية وظهر على الهواء مباشرة، وأعلن أن مطار قندهار يُقصَف بالطيران في تلك اللحظات.

أقمنا في البيت الخاص بـ "سي.إن.إن"، وتابعنا عملنا اليومي من قندهار، وكان تركيز الحرب في الشمال، وكانت حركتنا مقيدة في المدينة التي تعتبر حاضرة حركة طالبان يومئذ. وأذكر أننا خرجنا في إحدى المرات إلى السوق وكنت أقوم بالتصوير فاعتقلتْنا عناصر من حركة طالبان يوماً كاملاً، حتى تحققوا من أوراقنا وتأكد لهم أننا نعمل لحساب قناة الجزيرة.

طلبوا منَّا في نهاية اليوم ألا نغادر البيت إلا بإذنهم، وواصلنا عملنا هناك حيث كنَّا نغطي القصف الأميركي للمنازل، والمناطق المختلفة. والحقيقة أنه كان قصفاً غير مركز ينصب غالباً على البيوت السكنية، فكثيراً ما رأينا أطفالاً في المستشفيات، وبيوتاً مهدمة، وغير ذلك من مؤشرات قصف الأهداف المدنية.

من المشاهد المؤثِّرة العنيفة التي رأيتها يومئذ، قصف شاحنة وقود لم يتمكن صاحبها من الهرب، فتفحمت جثته. هزَّني أن الحادثة وقعت أمامي ولم أستطع مساعدة الرجل ولا أن أُسهم في

(1) علمت بعد خروجي من السجن أنه قُتِل وتذكرت أبناءه اليتامى الذين كانوا يأتون معه.

إنقاذه. لقد كان منظراً مؤذياً وحدثاً محزناً.

ومما علق بذاكرتي أيضاً أن أحد جنود حركة طالبان أخبرنا عن قصف وقع في اليوم السابق لإحدى القرى التي تقع شمال قندهار، فذهبنا في سيارة لمشاهدة آثار القصف، واستمرت الرحلة على طريق كابول المسفلت لمدة ساعتين.

شمال قندهار وجدنا القرية مدمرة تماماً؛ حيث مُسحت بالصواريخ والقنابل، ولم تَسْلَم المقابر ولا المساجد. أكثر ما شدَّني قهر الرجال، لقد كانوا يبكون من هول المصيبة بكاءً مُرًّا، كانوا يدفنون قتلاهم، ويجمعون أشلاء أسرهم التي غادروها بأمان بحثاً عن الرزق، وسعياً في سبيل حياة قروية عادية وهادئة. كان هناك رجل كبير السن يبكي بحرقة، سألت عن قصته، فقيل لي: إنه غادر القرية إلى قندهار لبيع شياه يشتري بثمنها حاجيات عائلته البسيطة، فلما عاد وجدهم جميعاً زوجةً وأولاداً ووالدةً ووالداً وإخواناً وأخواتٍ، وهم ثمانية عشرَ فرداً قد قُتلوا بلا استثناء. كان يتكلم بالأفغانية وعرفت من المترجم أنه يتساءل: بأي ذنب قُتل أفراد أسرته؟ وبأي ذنب قُتل ذلك الرضيع الذي غادره وبشاشة الحياة في عينيه، ليجد أن القصف الأعمى أطفأ ذلك الوهج ظلماً وعدواناً؟ رأيت بأم عينيَّ أحد الصواريخ منغمساً في سرير لطفل صغير. ترك القصف حفرةً كبيرةً دَفَنَ فيها الأهالي ما وجدوه من أشلاء موتاهم.

لماذا قُصِفت تلك القرية؟ كانت إجابة أولئك الرجال المقهورين عن سؤالنا أن القرية تعتبر سوقاً شعبية تنتظم كل ثلاثاء ويَؤمُّها القرويون. ويبدو أن تجمع الناس في ذلك اليوم أخاف الأميركيين، وجعلهم يحسبونه تجمعاً لطالبان، ولم يتحرَّوا كعادتهم، فقصفوا أولئك

المساكين، وتركوهم وتلك القرية أثراً بعد عين.

أنتجنا تقريراً عن تلك القرية بثته قناة الجزيرة في نشراتها الإخبارية تلك الأيام. وقبل إرسال التقرير، وعندما حان وقت صلاة العشاء طلبنا من الإمام أن يصلي بنا كالعادة، ولكنه رفض متعللاً بأنه على حالة غير طيبة، وبعد إلحاح تركناه وصلّى بنا الزميل يوسف.

تنحَّيت جانباً بالرجل بعد الصلاة، واستفسرت منه عن سبب رفضه الصلاة بنا كالعادة، فقال إنه تعرض لموقف صعب أثناء وجودنا في القرية المنكوبة، فلأول مرة في عمره يطلب منه منكوب المساعدة فلا يستطيع مساعدته. سألته: كيف؟ فردَّ سؤالي بسؤال: أتذكر عندما كنَّا نصور الرجل الذي كان يبكي أسرته، حيث حضر رجال يبكون وتكلموا معنا؟ أجبته: نعم، أذكر ذلك.

فقال: لقد ذكروا أن الطائرات التي أبادت هذه القرية قد قصفت قريته أيضاً هناك عند سفح الجبل، وأن أسرته توجد الآن تحت الأنقاض، ويريد من يساعده لرفع تلك الأنقاض ودفن الأشلاء. وأضاف إنه لم يستطع أن يكلمنا لأنه رآنا مستعجلين على العودة إلى قندهار (لإرسال التقرير)، فعاد منكسر الخاطر لردِّه ذلك الرجل ومعه أولئك القوم من أهل القرية التي عند سفح الجبل دون مساعدتهم.

وعدته بأن أخرج معه بعد صلاة الفجر لنحاول مساعدة أولئك المنكوبين، ولأصوِّر حالتهم وأكتب عنهم وعن القرية تقريراً، وانطلقنا مع شروق الشمس.

بعد سلوكنا دروباً وعرةً أوقفنا سيارتنا، وصعدنا الجبل مشياً على الأقدام لمدة ساعتين، ولأني غير متعود صعودَ الجبال خصوصاً أن

سفح الجبل كان بارداً جدًّا، أخذني اللهاثُ والرهق، ولكني تحاملت واستطعت المشي.

في الطريق إلى القرية، وجدنا شظايا من الصواريخ، وحفراً عميقةً جرَّاء القنابل التي كانت تُسقطها الطائرات الأميركية. حُفَراً عميقة أحدثتها تلك القذائف الصاروخية الهائلة، لدرجة أن الحفرة يمكن أن تبتلع شخصاً معتدل الطول وتخفيه بداخلها تماماً. بالنسبة لي كان ذلك أول دليل يؤكد أن تلك القنابل تحتوي على أطنان من المواد المتفجرة. وبالفعل علمت فيما بعد أنها كانت تتجاوز في الوزن عشرة أطنان للقذيفة الواحدة. واصلنا المسير المضني بين تلك الحفر المرعبة، وبعد جهد جهيد وصلنا إلى مشارف القرية، حتى إذا وصلناها ودخلناها وجدناها كلها تحت الأنقاض! وما هي إلا وهلة حتى تبدَّى لنا جليًّا أن أهلها الذين طالهم القذف ولحق بهم الضرر ما هم إلا بعض البدو البسطاء الذين لا شأن لهم بالأميركيين ولا ارتباط لهم مطلقاً بحركة طالبان. كل ما في الأمر أن هؤلاء البدو نتيجةً للصقيع وشدة البرد غير المحتمل يحفرون مساكنهم في الجبل تاركين فتحاتٍ علويةً بغرض التدفئة، ما يجعل من ينظر إليها من فوق يحسبها خنادق. وكالعادة وعلى عجل قصفها الأميركيون على أساس أنهم يقصفون خنادق لطالبان دون أن يتحققوا من حقيقة تلك الفتحات أو يتأكدوا من هوية ساكنيها الأبرياء.

فيما بعدُ، مررت بتجارب أكدت لي أن الأبرياء يموتون كلَّ يوم فقط لأن القتلة على عجلة من أمرهم لا يريدون أن يُحققوا أو يتحققوا أو يتأكدوا، فما حدث لأهل قرية الجبل تذكرته يوم قُتل ديلاوار سائق التاكسي الأفغاني البسيط في معتقل قاعدة باغرام. قُتل

ديلاوار في ديسمبر/كانون الأول 2002، وقد كشف تحقيق أجراه الجيش الأميركي الطريقة الرهيبة التي قُتل بها؛ إذ ورد في التقرير أنه اعتُقل لأنه كان في المكان الخطأ في الوقت الخطأ، وظل مقيداً بالسلاسل بسقف زنزانته لفترت طويلة خلال أربعة أيام مغطى الرأس والوجه معظم الوقت، وتم أحياناً تجاهل توسلاته لإعطائه جرعة ماء. وبحسب تقدير التقرير ضُرب أكثر من مئة مرة على ساقه فوق الركبة مباشرة خلال أربعٍ وعشرين ساعة. وبحسب ما قاله أحد المراقبين: "تحولت ساقاه إلى ما يشبه العجينة".

وأُنشئ معتقل قاعدة باغرام آنذاك ليكون أولى محطات الاعتقال للحرب على ما يسمى الإرهاب، وكان الهدف منه التحقيق بأسرع ما يمكن مع المعتقلين لانتزاع معلومات تفيد في القبض على المطلوبين الكبار كما كان يحلو لهم أن يسموهم. وعليه، فقد كانت فترة معتقل باغرام بالنسبة إلينا من المراحل الشديدة الألم؛ إذ كُرِّست فيها المعاملة السيئة وفنون التدجين الأولى. كانت مرحلة المباغتة بالضرب والتعذيب والإهانة وتدنيس الكرامة والدِّين، مرحلة مباغَتة شخص مدني عادي لتحيله مسجوناً عليه أن يُذعن ويسمع ويطيع، بل ويكذب حينما يُطلب منه ربما لتوريط من يسعى الأميركيون لتوريطه، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله!

نحن نعيش في عالم يتصدَّع، لأن قيمه التي ما انفكَّ يرفعها قد تهاوت.

كان الاعتقاد السائد في أواخر القرن الماضي أن العالم المتحضِّر يتجه نحو المثالية في احترام حقوق الإنسان، بيد أنَّ هذا الاعتقاد بدأ في التقهقر على نحو مريع في السنوات الأخيرة، ولا سيما في ظل ما

يسمى "الحرب على الإرهاب"، التي نجم عنها تراجع في احترام قيم حقوق الإنسان المعترف بها، بحيث أصبحت هذه القيم الإنسانية تشهد انتهاكات صارخة.

يحدث هذا ليس فقط من قِبل الأنظمة الديكتاتورية الشمولية، بل من قبل الحكومات والدول التي راحت على الدوام تدعي أنها حامية حقوق الإنسان والحريات والتحرر. لقد أفرزت الحرب على الإرهاب أشكالاً جديدة - قديمة من الانتهاكات لهذه الحقوق بما يتعارض مع كل ما عُرف من معاهدات ومواثيق دولية، مثل: التعذيب، والاحتجاز في مراكز سرية، وتسليم المشتبه بهم إلى دول تمارس التعذيب، إضافة إلى الاعتقال لفترات طويلة دون محاكمة؛ لمجرد الاشتباه! ثم الحرمان من الحق في التقاضي والحق في الصمت إلى حين توكيل محامٍ أو جهةٍ قانونية.

لم يكن للمرء أن يتصور أن الولايات المتحدة (راعية الديمقراطية في العالم، ورائدة العالم الحر) سوف تلجأ إلى ممارسات بوليسية وتدير سجوناً سرية. أضف إلى ذلك الملاحقات عبر الحدود والاختطافات لأناس لمجرد الاشتباه فيهم، واستخدام أساليب التعذيب الجسدية والنفسية! لكن الرئيس بوش قاد الولايات المتحدة إلى تلك الطريق، طريق الحرب. وللانتصار قال: إنه ينبغي في الأساس الحصول على معلومات من إرهابيين معروفين أو مشتبه فيهم. وقبل ذلك التصريح لبوش بأربعة أيام فسَّر نائبه، ديك تشيني، في مقابلة له في برنامج ميت ذا بريس (Meet the press) على شاشة "إن.بي.سي" NBC بأنه لكي نتغلب على عدو أميركا الجديد يجب علينا الاعتماد على الجانب المظلم في عالم الاستخبارات، يجب أن نعمل بعيداً عن الأضواء؛

فالكثير مما يجب القيام به هنا، يجب القيام به بهدوء، مـــن دون أيـــة مناقشة، وباستخدام مصادر وطرق متاحة لوكالات الاســـتخبارات لكي نتمكن من تحقيق النجاح.

الفصل السادس

نفض الطائر رأسه وضرب جناحيه كأنه يطرد النعاس فحدقتُ إليه مليًّا ثم سمعته يعود للغناء فابتسمت ودفعت القلم علـــى الورقـــة وكتبت: بقيت في أفغانستان وواصـــلت تغطيـــة الأحـــداث إلى أن سقطت كابول، وانسحب الزميل تيسير علوني وسافر إلى باكستان، ثم خرج منها إلى الدوحة في قطر، بينا أنا ومن معي تمر الأيام و لم نزل في قندهار. ثم شيئاً فشيئاً بعد سقوط كابول بدأ التركيز على قندهار، فتركز القصف الأميركي عليها. كنَّا نشاهد يوميًّا عشرات القتلى من المدنيين الأبرياء أطفالاً ونساءً وشيوخاً يكتظ بهم المستشفى الوحيد في المدينة والمعروف بالمستشفى الصيني.

تقع قندهار في الجنوب وهي ثالث أكبر مدينة أفغانية بعد كابول وهيرات، وأهلها من البشتون، واسمها مختَلفٌ فيه، فقيل: إنه مقتـــبسٌ من كلمة غراندهارا وهي مملكة مجاورة للحدود الأفغانية الكشميرية، وقيل: إنه اسم مقدوني من الأسماء التي اختارها الإســـكندر الأكـــبر لتسمية مدن تلك البقاع من آسيا؛ فالإسكندر هو أول من أحيا المدينة التي أصبحت من بعده هدفاً للإمبراطوريات المتعاقبة نظـــراً لموقعهـــا الاستراتيجي. وقد دخل الإسلام قندهار في عهد العباسيين، وتعزَّزت ركائزه مع العرب ثم لاحقاً مع الأتراك. وفي القـــرن الثـــامن عشـــر

صارت قندهار عاصمةً لأفغانستان مع صعود البشتون، ولكنها سرعان ما فقدت تلك المكانة لمصلحة كابول التي ظلت عاصمة حتى اليوم.

لكن ما يعنيني الآن هو أن كابول قد سقطت في أيدي الأميركيين، وازداد القصف على هيرات حتى سقطت، ليشتد التضييق على قندهار. كنا لا نستطيع النوم ليلاً في قندهار، فكنا نقضي ليلتنا خارجها ثم نعود في الصباح على الرغم من أن التفجيرات تتواصل، وازداد الوضع سوءاً بقطع الكهرباء، ولم يبقَ لنا من مأوى إلا المستشفى الصيني، فكنا نلجأ إليه لإرسال تقاريرنا.

في تلك الظروف حلَّ علينا شهر رمضان المبارك، وفي أول يوم منه أبلغتنا حركة طالبان بأنها ستنسحب وتُخلي مدينة قندهار، يومئذٍ نصَحَنا المترجم الأفغاني بمغادرة المدينة، وقيل لنا: إن الحركة إذا انسحبت فإن الأمن سينعدم وسيتقاتل الأفغان، وأذكر عبارة قالها لي المترجم ولن أنساها أبداً، قال لي: يا سامي، أنت لا تعرف الأفغان عندما يتقاتلون بعضهم مع بعض، إنهم أشرس من الكلاب، وإني أنصحكم جميعاً بأن تغادروا قندهار.

وبالفعل خرجنا، أنا ويوسف الشولي والمهندس إبراهيم نصار، في أول يوم من رمضان، وأظنه صادف يوم جمعة، إلى منطقة "بولدق" الحدودية، وهناك انتقلنا إلى جمان، ومن جمان عدنا إلى كويتا.

أقمنا في كويتا عدة أيام؛ حيث علمنا أن الطيب آغا السكرتير الخاص بالملا محمد عمر سيعقد مؤتمراً صحفيًا في منطقة بولدق، فرجعنا أنا ويوسف الشولي وإبراهيم نصار مع الصحفيين، وحضرنا المؤتمر الصحفي في تلك المنطقة الأفغانية. كما قمنا بتغطية أوضاع

المهاجرين من البدو الأفغان، وهناك كانت لنا ذكريات مريرة: ذهبنا مرة لتغطية مخيمات المهاجرين في بولدق، شدتني صـــورة امـــرأة في العشرينات من عمرها كانت تغسل ملابس أطفالها بماء عكر ولـــيس بيدها قطعة صابون، كانت تغسل بيد وباليد الأخرى تحمـــل طفـــلاً يرضع من ثديها بينما كان إلى جوارها في الوقت نفسه ولـــد آخـــر يُراوح عمره بين ثلاث وأربع سنوات، كان يبكي بجوارهـــا وهـــي تغسل تلك الملابس وتحمل رضيعها. قررت تصوير تلك الوضعية التي أراها تختصر جزءاً كبيراً من المأساة الأفغانية حتى يدرك العالم على من تدور الحروب، ومن هم المتأثرون بها والمكتوون بـــنيران الولايـــات المتحدة الأميركية، التي تدَّعي أنها راعية السلام والحقـــوق، وراعيـــة الديمقراطية، والداعية إلى السلام العالمي.

أخذتُ الكاميرا، وبدأت أصور المرأة التي قدَّرتُ أن عمرها بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، صادفت أمامها حقائب محترقـــة مسودة كأنها تأثرت بآثار حريق. بدأت أصور أمتعتها المبعثرة تحـــت الشمس، رأيت مصحفاً احترقت أجزاءٌ منه، ولما اقتربت منه لتصويره وجدت صرَّةً من قماش حمراء اللون تتكوَّر فوق المصحف. حاولت إبعاد قطعة القماش، فشهقت المرأة شهقة غير عادية، وصرعت كمن تلبَّسه جِنٌّ، وهي تصرخ وتتلوَّى وتتفوَّه بكلمات قوية لا أفهمها.

تعجبت من أمرها وسألت المترجم عن سبب ثورتها وهياجها إذ تحوَّل كلامها رغواً وزبداً، وسر تلوِّيها إلى ما يشبه النوبة. قلت لـــه: يجب أن تمسكوها حتى لا تنكشف. وفجأةً برزت لي أُمُّها وأقبلـــت تعدو مسرعة، ودفعتني وهي ترطن بالأفغانية، فسألت المترجم عمَّـــا قالت، فأجابني بأنها تحتج على إمساكي صرة القماش الحمـــراء الـــتي

كانت موضوعة على المصحف، وأن تصرفي ذلك تسبَّب فيما وقع لابنتها من صرع. وأوضحَتْ في كلامها للمترجم أن هذه الصرة الحمراء فيها أشلاء زوج الشابة المصروعة وأبيها وإخوانها وزوجات إخوانها. تبين لنا فيما بعد أن الطيران أغار على قرية أهل هذه المرأة وقتل جميع أفراد أسرتها، و لم يبق لها إلا تلك العجوز وطفلاها. كما احترقت كل أغراضهم و لم يبق لهم إلا ما تجمع من أشلاء في تلك الصُّرَّة التي تصطحبها معها في كل مكان تذهب إليه.

تلك الصورة أثَّرت في نفسي تأثيراً بالغاً، مشهد تلك المسكينة وأهلها من صغار وكبار خصوصاً أن هؤلاء لا علم لهم بما يجري حولهم، فهم لا يدركون حتى أن كابول عاصمة بلد اسمه أفغانستان وهم يحملون جنسيته، وأنها قد سقطت في حرب مع الولايات المتحدة، وأن الحرب تُشن على الإرهاب وأن ذويهم الذين فقدوهم هم من الإرهابيين بمعنى أو بآخر في سياق هذه الحرب العنيفة. تلك لعمري ميلودراما رهيبة: أن تفقد كل شيء لأسباب لا تفهمها!

قضينا أياماً في بولدق نقلنا فيها أوضاع المهاجرين، ومنها عدنا إلى جمان بعد أن علمنا أن حركة طالبان على وشك الانسحاب من هناك.

عُدنا مباشرة إلى باكستان ليلاً بإذن دخول خاص مدته اثنتان وسبعون ساعة، فقد انتهت مدة صلاحية التأشيرة التي دخلت بها إلى باكستان، إذ كان دخولي الأول حين قدمتُ من الدوحة، والثاني عندما عدت من قندهار بعد تغطية الحرب هناك.

كان هذا أيضاً هو وضع زميلي يوسف الشولي الذي مُنح أيضاً إذن دخول باثنتين وسبعين ساعة فقط. وعلى ضوء ذلك تحركنا إلى

كويتا، ومن كويتا حزمنا حقائبنا وأردنا العودة إلى إسلام أباد. وكنا نتوي السفر مباشرة والعودة إلى الدوحة، لأنه في ذلك الوقت سقطت حركة طالبان تماماً، وانتهى حكمها وتغير الوضع داخل أفغانستان، وكانت مهمتنا تقريباً قد انتهت ونحن في إسلام أباد.

عندما عدنا إلى إسلام أباد دعانا السفير القطري، عبد الله أبو فلاح، إلى وجبة إفطار إذ لم نزل في شهر رمضان. أذكر أننا ذهبنا للإفطار أنا والزملاء: يوسف الشولي والمهندس إبراهيم نصار وأحمد زيدان وميا بيضون، ومعنا أحد المصورين الفلبينيين من قناة الجزيرة. أثناء ذلك الإفطار قابلت مسؤولين من السفارة السعودية، وأخبرهم بأمر بعض السعوديين الذين تم اعتقالهم على الحدود الباكستانية، وبأن هناك أخباراً عن اعتقال أسر بكاملها من العرب الذين كانوا مهاجرين في أفغانستان في طريق عودتهم إلى باكستان؛ حيث تم توقيفهم عند الحدود في نقطة شمن. كانت هناك أسر تتكون من نساء وأطفال، يتجاوز عددهم مئة أسرة أغلبهم من الجنسية اليمنية.

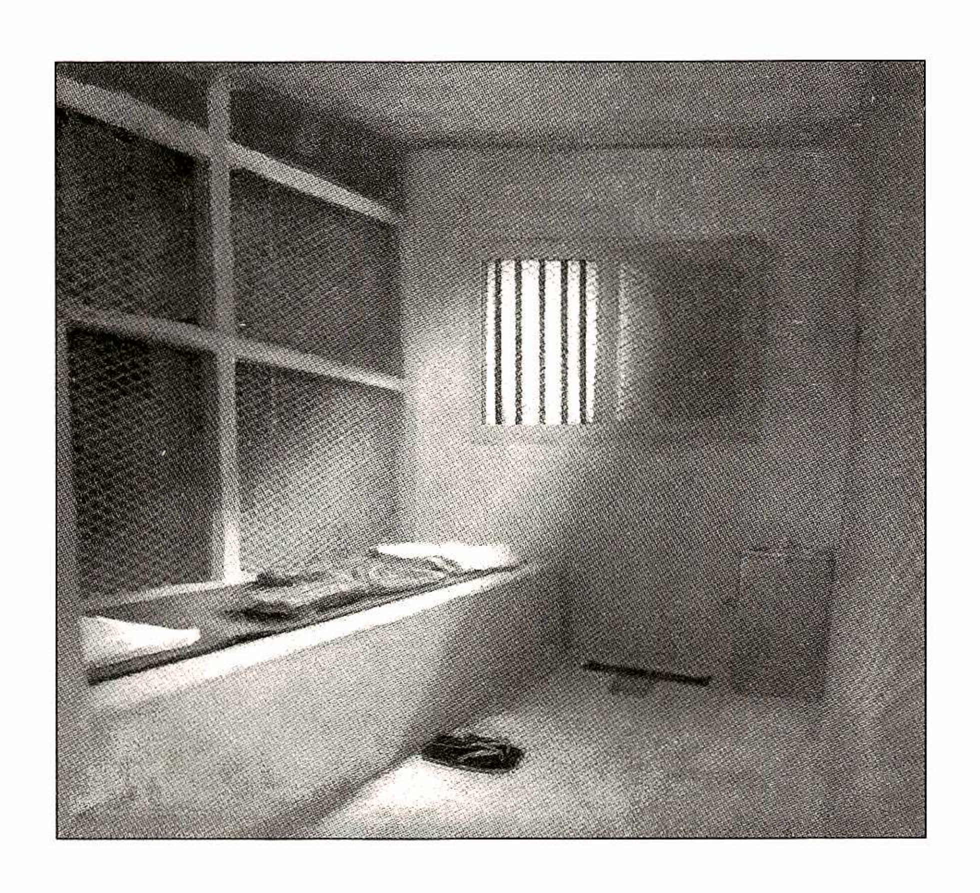
أخبرني السفير القطري، أبو فلاح، بأنه هو عميد السفراء العرب، وقد سمع بهذه الأخبار، واتصل بالسفير اليمني الذي أخبره بأن هناك معلومات وصلته بشأنهم، وأنه سيقوم بإرجاعهم إلى اليمن في أقرب فرصة. وعندما عدت إلى الفندق لأستعدَّ للعودة إلى الدوحة، اتصل بي السفير وأخبرني بأن السيد محمد جاسم العلي، مدير قناة الجزيرة، اتصل به، وطلب أن أبقى في باكستان وأن تُجدَّد لي تأشيرة الدخول إلى أفغانستان، وأرافق الزميل الصحفي الجديد المقبِل من الدوحة، عبد الحق صداح، وذلك لتغطية تسلُّم الحكومة الجديدة لقندهار. وعلى ضوء هذه المكالمة، طلبت منِّي السفارة أن أرسل لها

الجواز لتجديد إقامتي داخل باكستان لمدة ثلاثة أشهر أخرى، وبعد التمديد اتصل بي أيضاً السيد السفير، وأخبرني أن هناك رحلة سيقوم بها السفير الإماراتي إلى كويتا بطائرة خاصة، وطلب مني مرافقته حتى أقابل في كويتا زميلي، عبد الحق صداح، وأرافقه إلى قندهار.

في اليوم الثاني ذهبت إلى المطار مبكراً بعد الفجر، وسافرت مع السفير الإماراتي إلى كويتا، وقابلت الزميل عبد الحق صداح هناك. ولكن عندما وصلنا مع السفير الإماراتي بالطائرة الخاصة إلى مطار كويتا، كانت هناك طائرة عسكرية تنتظر السفير الإماراتي، وكان معه أيضاً في الطائرة أحد الجزائريين وهو صحفي من قناة "أبو ظبي" ومعه مصور، وكانوا ذاهبين في مهمة تغطية للأعمال الإنسانية التي تقوم بها دولة الإمارات على الحدود الباكستانية. أخبرت السفير الإماراتي برغبتي في الذهاب معهم لتغطية تلك المخيمات، غير أن الجنرال الباكستاني الذي كان ينتظرهم في المطار اعتذر بعدم وجود مكان لشخص آخر في الطائرة، فالأماكن محدودة، محجوزة للسفير والصحفيين المرافقين له من تليفزيون "أبو ظبي" على ما زعم؛ فاعتذر لي السفير.

اصطحبني أحد المسؤولين العسكريين إلى المطار، وهناك راجع أوراقي الثبوتية، وسألني عن الجهة التي أقصدها، فأخبرته أني أريد الذهاب إلى الفندق في كويتا حتى ألتقي بزميل لي هناك، ونحن بصدد الذهاب إلى قندهار لتغطية الأوضاع بعد سقوط دولة طالبان، فأكمل لي إجراءات الخروج من المطار، وركبت سيارة أوصلتني إلى زميلي عبد الحق صداح، ورتبنا أمورنا للذهاب إلى قندهار.

في اليوم التالي غادرنا كويتا إلى منطقة شمن الحدودية لندخل إلى أفغانستان، فوجدنا صعوبة في الدخول، كما انقطعت صلتنا بالمترجم الأفغاني الذي كان يعمل معنا في الفترة الأولى، ثم وصلتنا معلومات تحذّر من خطورة الطريق داخل أفغانستان لانعدام الأمن، واستهداف ذوي السحنة العربية خصوصاً، والأجانب عموماً. كانت الرسائل التي تصلنا تحذرنا بشتى الأساليب من أن حياتنا في خطر. وبقينا مرابطين في منطقة شمن، وأنجزنا بعض التغطيات والمتابعات على الحدود. وأذكر أننا لاحظنا أن الجيش الباكستاني والسلطات الباكستانية الحدودية قد توغلت نحو كيلو مترين إلى ثلاثة داخل الأراضي الأفغانية، ورفعت هناك الأعلام الباكستانية، ونقلت أنشطتها إلى تلك المنطقة.



الفصل السابع

كرَّةً أخرى مستني الكفُّ العطوف "سامي! يكفيك السهر". قالت زوجتي. "إن ذاكرتي تتدفق بتفاصيل دقيقة وحيَّة كما لم يحدث لي من قبل. أريد أن أسجِّل كل شيء...، كل شيء"، والتفتتْ إلى النافذة وهمستْ وهي تبتسم وتشير بأصبعها: "وصديقُك الليليُّ لم يزلْ يغنِّي لك! إذن لا تثريب عليك". قالت وانسحبت بهدوء بينما رحت أكتب:

رابَطْنا في المنطقة الحدودية أياماً عدَّة، وفي اليوم الأخير من رمضان تحديداً في الخامس عشر من شهر ديسمبر/كانون الأول قررنا الدخول إلى قندهار، بعد أن استأجرنا مجموعة من المسلحين لحمايتنا وإيصالنا إلى قندهار. وقد رتَّب لنا مدير قناة الجزيرة، محمد جاسم العلي، مع "سي.إن.إن" التي سبقتنا في الدخول إلى قندهار لاستضافتنا في بيت الضيافة التابع لها في قندهار كما حدث في المرة الماضية. وتسلَّمنا عن طريقه العنوان وأرقام هواتف العاملين في قندهار. وبالفعل في صباح ذلك اليوم الأخير من رمضان، الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول، تحركنا مبكرين عند الساعة الثامنة إلى نقطة الحدود، فسلَّمنا جوازاتنا وبطاقات عملنا للعاملين على النقطة الباكستانية لختم أختام الخروج من باكستان، والدخول إلى أفغانستان.

وجدنا في نقطة العبور الحدودية أكثر من سبعين صحفيًّا من وكالات الأنباء المختلفة يهمُّون كلهم بالدخول إلى قندهار في اليوم نفسه، فسُرِرنا كثيراً بوجود رفقة جيدة في الطريق الموحشة إلى قندهار. تأخرت المعاملة فتساءل زميلي صداح الذي يمرُّ بالتجربة لأول مرة عن أسباب التأخير، فقلت له: إن المسؤولين الباكستانيين يطلبون رشىً بشكل دائم، وردَّ صداح بأن الأوراق كاملة وسليمة ولا يمكنهم طلب شيء. شرحت له أن ذلك من المسلَّمات هنا في هذه التخوم لدى هؤلاء الرسميين الذين يبدو أنهم يعيشون ضُروباً من الوحشة يريدون أن يتقاضوا ثمنها عنوةً أو على أي نحو. ربَّما فهم صدَّاح لاحقاً قسوة كل شيء خصوصاً حينما لا يكون الحظ حليفاً له، فقد اتضح من أحد الضباط الرسميين الحدوديين أن المشكلة لم تكن في المبلغ الذي ينبغي أن يُدفع، بل تتعلق بقضية أخرى، هكذا قال لنا الضابط المسؤول! وعندما سألناه عن الأمر، قال: إن ثمة سوء فهم. فاستفسرته عن طبيعة سوء الفهم، فقال إنه سيخبرنا لاحقاً.

وطال انتظارنا ساعة أو ساعتين، وعاد بورقة سلَّمني إيَّاها لأقرأها، فتبين أن الصحفي السوداني المصوِّر لحساب قناة الجزيرة، والمسمَّى سامي، يجب إيقافه وإرجاعه إلى باكستان! وتحمل الورقة معلومات خاطئة عن تاريخ المِيلاد، ورقم الجواز، وتهجئة الاسم الإنجليزي.

قال لي المسؤول: نحن ندرك أن هناك خطأً ما، فقد عبرْتَ الحدود من قبل ونحن نعرفك، لكن هذه الورقة وردت إلينا منذ أربعة أيام أو خمسة، فأوضحت له أنني في هذا الوقت كنت في إسلام أباد، ولو كان أمر التوقيف من حينها لأُوقفت هناك في العاصمة. وعاد

لتكرار مقولة: إن هناك سوء فهم، وإنه يعرف أنني صحفي مررتُ من هنا من قبل، وتولّى بنفسه إجراءات دخولي وخروجي، وطلب وقتاً لتصحيح الخطأ.

جلسنا وانتظرنا ساعاتٍ عدَّة. كان الزملاء في الجزيرة يتصلون بنا لمعرفة استعدادنا لتقديم تقرير أو إضاءة حول خبر ما، ونحن نبيِّن لهم أننا لم نتجاوز الحدود بعد حتى اتصل بنا المدير محمد جاسم العلي، وسألنا عن سبب التوقيف فشرحنا له وضعنا، فقال: إن الأمر على ما يبدو هو من باب سوء الفهم فعلاً، وإنه سيتصل بالسفارة القطرية لتتدخل في الموضوع. وفعلاً اتصل بنا السكرتير الثاني في السفارة القطرية مستفسراً عن الوضع فشرحنا له ما حدث، فاستهان بالأمر وقال إنه سيعالجه قريباً، وطلب منا الانتظار.

انتظرْنا.. وفي منتصف النهار اتصل مدير الجزيرة محمد جاسم العلي مرة أخرى فأخبرناه بأننا ما زلنا عند الحدود، وأننا نراجع ضابط الحدود الذي كان يؤكد دائماً أن الاستخبارات لم تردَّ عليه بعد. وفي الساعة الثالثة تقريباً حضر أحد ضباط الاستخبارات وعاين جوازي وبطاقتي الصحفية، كما عاين الورقة التي أرسلتها الاستخبارات، وأكد له ضابط الجوازات أنه رآني من قبل أدخل مرتين، فقال رجل الاستخبارات: إن في الموضوع خطأ وسيُصحِّحه مع المركز في كويتا، ثم خرج ولم يرجع في ذلك اليوم.

قضينا ليلتنا هناك، وفي الصباح كان يوم العيد. اتصل ضابط الجوازات بالاستخبارات وأبلغهم أنه في حال لم يتسلّم أدلة تسمح له بتوقيفي، فسيسلمني جوازي ويسمح لي بالمغادرة. وكان رد الاستخبارات حاسماً: "سنضعك في السجن إن قمت بذلك". لكن

الرجل أصرَّ وقال لهم: خلال ساعتين إذا لم يأتِني رد حاسم سأترك الرجل يغادر. وفعلاً خلال ساعتين وصلت سيارات الاستخبارات العسكرية، وطلبوا مني مرافقتهم، وبعد ذلك لم أَرَ زميلي عبد الحق صداح.

الفصل الثامن

في مكتب الاستخبارات أعطوني غرفة، وأكدوا لي أنهم سيقومون بتصحيح الخطأ، وقضيتُ معهم بقية يوم عيدهم، وهو بالنسبة لي اليوم الأخير من رمضان. وفي اليوم الثاني جاءني السكرتير الثاني في السفارة القطرية يرافقه أحد رجال الأمن والاستخبارات القطرية، وبضعة موظفين من السفارة. جاؤوا بالسيارة في رحلة استغرقت أكثر من ثماني عشرة ساعة، لعدم حصولهم على تذاكر بالطيران المحلي.

جاء الوفد لينهي اللَّبْسَ الموجود لدى رجال الأمن ولأسافر معهم عائداً إلى الدوحة. وبالفعل أخرج السكرتير الثاني ورقة رسمية تثبت أنني الصحفي سامي الحاج، وأنني لست منتحلاً لهذه الصفة إجابة عن شكٍّ الاستخبارات الباكستانية. وكتب ذلك بالإنجليزية، وختمها بالطابع الرسمي للسفارة. وأوضح الدبلوماسي القطري لضابط الاستخبارات أنه، فضلاً عن ذلك، يعرفني شخصيًّا، وأنني ترددت إليهم مرات في السفارة، نافياً بذلك أي لبس في تطابق اسمي وشخصي.

تسلّم ضابط الاستخبارات إفادة السفارة القطرية وأرسلها بالفاكس إلى رؤسائه، وانتظرنا عدة ساعات ولم يأتِ الرد. اقترح

الضابط على الدبلوماسي القطري أن يأتي في اليوم التالي لأنه لم يتسلم رداً على رسالته، ربما لانشغال أهل المكتب في كويتا بالعيد، عيد الفطر المبارك.

عاد السكرتير ومرافقوه إلى كويتا ليستريحوا في فندق هناك، ولمتابعة القضية أيضاً ووعدوني بالعودة غداً أو إذا جدَّ جديد.

في اليوم الثاني اتصل بي الدبلوماسي القطري، وأخبرني بأهم راجعوا مكتب كويتا وقابلوا المسؤول هناك، وأخبرهم أنه لا يستطيع الفصل في الموضوع ما لم تأته إشارة من إسلام أباد، وأن المسؤولين مشغولون بإجازة العيد، والتهديد الهندي إذّاك باجتياح الحدود الباكستانية من جهة كشمير، وأن الاستخبارات مشغولة بهذا الحدث، وأن وزير الداخلية مسافر مع الرئيس في مهمة إلى الصين.

وبعد يومين اتصلت بي السفارة مجدداً لتؤكد لي أهم لم يصلوا إلى نتيجة مع مكتب كويتا، وأهم سيعودون إلى إسلام أباد لمتابعة الوضع من هناك. وبقيت هناك في الغرفة التي خُصِّصت لي في مكتب الاستخبارات، وطلبتُ من الضابط الباكستاني واسمه، على ما أذكر، (أفتاب) السماح لي بالاتصال بأهلي تليفونيًّا. كان ذلك الضابط الذي كنت أسمعهم ينادونه بالنقيب يُظهر اقتناعه بأنني صحفي وأن القبض عليَّ قد تم عن طريق الخطأ. وعليه، لم يتردد في السماح لي باستعمال الهاتف، وأعطيته مبلغاً من المال فاشترى لي بطاقات، واتصلت بزوجتي أم محمد وكانت في أذربيجان، فباركت لها ولعائلتها العيد. واتصلت بأهلي في السودان و لم أخبرهم بأنني موقوف في مكتب الشرطة، ووعدت زوجتي بأننا سنلتقي قريباً في الدوحة. وبقيت على أمل أن يأتي اتصال وينهي هذا الوضع. لم يكن لي أي

اتصال بصدَّاح الذي علمت من وفد السفارة أنه وصل إلى قندهار وينتظرني هناك للِّحاق به.

ظللت في تلك الغرفة بمبنى الاستخبارات ثلاثةً وعشرين يوماً تقريباً من السادس عشر من ديسمبر/كانون الأول إلى السابع من يناير/كانون الثاني، وفي صباح ذلك اليوم أخبروني بأنهم تلقَّوا أمراً بتسليمي إلى حكومة السودان، فسعدت. اتصلت بالسفارة القطرية، وأبلغت السكرتير الثاني بما أبلغني به الباكستانيون، فقال: إنهم يخدعونك، وقد طلبنا ملف جوازك لتفنيد زعمهم بأنه مزوَّر، وتبين أن بالملف خطأ طلبنا تصحيحه وأعدناه للباكستانيين الذين تبين أنهم مصرُّون على أن تقابل بعض الشخصيات الأميركية للتأكد من شخصيتك، ونحن ما زلنا على اتصال بهم، وسيلتقي سعادة السفير وزير الداخلية اليوم في موضوعك.

كنت حتى ذلك الوقت أتحرك بحرية، وإن لم يسمحوا لي بمغادرة المبنى، ولم يقيدوني ولم يستخدموا معي السلاسل، ولكنني في ذلك اليوم رأيت السلاسل والقيود. كنت في بعض الليالي أرى حارساً يجلس أمام غرفتي وهو يحمل بندقية، وكنت أتعجب من ذلك. كان معي جهاز راديو، وكنت أستمع لما حصل مع بعض المعتقلين العرب حيث كانوا يُنقَلون في حافلات، ودخلوا في اشتباكات مع الشرطة قُتل فيها أشخاص من الطرفين، وفهمت أن ذلك التشديد هو على خلفية تلك الحوادث.

كنت خلال تلك الأيام العشرين أتحرك في المبنى بحرية، فكنت أخرج للحمامات وهي منفصلة عن المبنى، وكنت أسخِّن الماء لأن الوقت كان شتاء، كما كنت أشتري الأكل من مالي الخاص، وأذكر

أنني توعكت في الأيام الأولى فجاؤوني بطبيب أعطاني أدوية اشتريتها من حسابـــي الخاص كذلك. وكنت أجلس في الساعات الأولى من الصباح كل يوم، وأستمع للأخبار، وكان كثير من الموظفين الـــذين يعملون في داخل المكتب يأتون ويجلسون معي، ونتجاذب أطـــراف الحديث.

في أحد الأيام كنت جالساً في الغرفة، فأتاني أفغاني وسلّم عليَّ، وتكلم معي بلغة عربية مكسرة، فقال لي: أنا صديق الضابط (أفتاب) وأستطيع أن أساعدك، فقلت له: كيف تساعدني؟ قال: إنني أستطيع أن أطلب منه إطلاق سراحك، وسيقوم بذلك. شكرته باقتضـــاب، وقلت له: إنني لا أحتاج إلى تدخل من أحد، فموضوعي يتعلق بخطأ سيتم تصحيحه. وفي اليوم الثاني رأيت هذا الشخص الأفغاني وسألته: أين تعلمت العربية؟ فقال لي إنه زار دبـــي من قبل.

جلست أستمع للأخبار، وكان هذا الأفغاني وأحد الباكستانيين العاملين في المكتب يتناقشان حتى احتد بينـــهما الجـــدل، فتوجهـــا بكلامهما إليّ، وطلبا مني أن أكون حَكَماً بينهما.

سألتهما عن فحوى الخلاف، فقال لي الباكســـتاني: إن هـــذا الأفغاني يدَّعي أنه يملك صواريخ "ستينغر" أميركية وقد كذّبته. أمَّـــا الأفغاني فردَّ بأن الصواريخ موجودة لديه فعلاً، وقال للباكستاني على وجه التحدِّي: كم تدفع لي إذا أتيتك بهذه الصواريخ؟ فما كان مـــن الباكستاني إلا أن قال له: سأدفع لك مئة ألـــف دولار عـــن كـــل صاروخ، ورد الأفغاني بأن لديه صاروخين سيحضرهما له.

اشتد الخلاف بينهما عندما أدرك الباكستاني أن الأفغاني جاد في كلامه، فقال الباكستاني للأفغاني: إن تلك الصواريخ أصبحت عديمة

الفائدة ولو سلّمنا بوجودها لديك، فصواريخ "ستينغر" أُعطِيت إلى الأفغان من قِبل الحكومة الأميركية إبَّان الحرب الأفغانية - الروسية، وهذه الصواريخ صُنعت في أواخر الثمانينات، وصاروخ "ستينغر" لا تتجاوز صلاحيته للعمل خمس سنوات، وبعدها يصبح عديم الفائدة، وطالما أن هذه الصواريخ صُنعت في تلك الفترة فقد أصبحت الآن لا تساوي شيئاً. فرد الأفغاني بأنه لا يعنيه إن كانت هذه الصواريخ مفيدة أو عديمة الفائدة، وقال: لقد تشارطنا على أن تعطيني مئة ألف دولار عن كل صاروخ "ستينغر" أحضره لك، وأنا سآتيك بصاروخين. ولما أدرك الباكستاني جدية الأفغاني تراجع عن الكلام، وعن الالتزام بالشرط السابق.

بعد ذلك تكلم معي الأفغاني بعربية مكسرة، وتحدثت مع الرجلين وعاودت سؤال الأفغاني عن مكان تعلمه العربية فقال إنه زار دبي، وإنه تاجر مخدرات يأخذها من بولدق، ويدخل بها من شمن الباكستانية، ثم ينقلها من شمن إلى كويتا، ومن كويتا إلى كراتشي، حيث يبيعها هناك. ويضيف: إنه قرر إكمال المشوار والسفر إلى دبي ليتفق مع تجار المخدرات هناك. سألته: بكم تشتري هذه المخدرات؟ فقال لي: طبعاً، المخدرات عندنا في أفغانستان رخيصة جدًّا، فإذا كان سعر كيلوغرام الكوكايين في بولدق مئة دولار، فإن سعره يتضاعف مباشرة في كويتا، ليصل إلى خمسة أضعاف في كراتشي، وهذا السعر الأخير يتضاعف عشر مرات في دبي. فقلت له: كيف تهرِّب هذه المخدرات وتوصلها إلى المناطق المقصودة؟ فقال لي: إنني متفق مع هذا الضابط الباكستاني، يعني المقدم أفتاب، وأسافر من شمن إلى كويتا في رحلة تستغرق أربع ساعات إلى خمس؛ حيث

توجد نقاط تفتيش كثيرة للشرطة الباكستانية في منطقة جبلية لا يمكن فيها سلوك غير الطريق المعبَّد.

ويضيف التاجر الأفغاني: عادة ما أصعد مع أفتاب في سيارته لتجاوز التفتيش، ويوصلني إلى كويتا لأدفع له مبلغاً من المال مقابل ذلك، ثم أتفق مع ضابط الاستخبارات الخاص بكويتا وأعطيه مبلغاً آخر، وهناك أبيع المخدرات، وقد سافرت إلى دبي مرة للتباحث مع التجار هناك على إدخال المخدرات وإيصالها إليهم.

بعدما انتهى من شرح ما يقوم به، سألته: بأي دِين تَدين؟ فقال إنه مسلم. قلت له: أنت مسلم وتبيع المخدرات، ولا تعرف أن ذلك حرام، وأنه من الفساد البيِّن في الأرض، لما فيه من تدمير للشباب، وإهلاك للمال والصحة؟ فقال لي: نحن نبيعها لغير المسلمين؟ قلت له: ومن أباح لك ذلك؟! ثم إنك تبيعها في كراتشي وفي دبي وهذه مناطق مسلمين؟ فتعلل بأن مذهبهم يجيز بيع المخدرات وزراعتها. قلت له: إنني لا أريد مجادلتك حول مذاهبكم، ولكنني أعرف شيئاً واحداً يعرفه كل مسلم، وهو أن المخدرات من المحرمات في الإسلام ولا يجوز بيعها، ولا نقلها، ولا تعاطيها. وأردفت أنصح الرجل بالتوبة وأن يسترزق بالحلال، ويترك هذه الطريق المحرمة، فأصرَّ على موقفه وقال إن له مخارج وصفَها بأنها "شرعية"! فأبيتُ التواصل معه بعد تلك الحادثة، ولكنني كنت ألاحظ تردده الدائم إلى المكتب.

وفي يوم السفر، وفي تمام الساعة الثامنة ركبنا الحافلة، وقبل أن نركب رأيت خمسة قيود، فاستغربت الأمر. وعندما هممت بصعود الحافلة تقدم أحد الجنود ليقيدني، فنظرت إلى أحد المسؤولين، وكان الذي تجادل مع الأفغاني في موضوع صواريخ "ستينغر"، فنهر الضابط

الجندي وقال له: لا تقيده، إن سامي لم يفعل شيئاً، وسيسلَّم لبلده فلا تضع في يديه القيود. وودعني وأعطاني رقم هاتفه، وطلب منِّي الاتصال بالهاتف إن عدت إلى أهلي.

في تلك اللحظة علمت أنه كان في المبنى موقوفون غيري، فعندما ركبت الحافلة رأيت خمسة يظهر من سحناهم أنهم عرب. فلما دخلت الحافلة ألقيت عليهم السلام فلم يردُّوا، وجلست محاذياً لهم. كانت هناك سيارتا شرطة تسير إحداهما أمامنا والثانية خلفنا، وكان الضابط أفتاب يستقل سيارة ويركب معه الأفغاني تاجر المخدرات، وذلك ما جعلني أصدق ما تحدَّث به عن تجارته اللعينة.

كنت أرتدي بنطلون جينز وقميصاً، وكانت ملامحي سمراء ورأسي حليقاً، ما أعطى انطباعاً بأنني غير عربي، أو أنني من الأميركيين السود، فقالوا لي لاحقاً بعد التوثق مني: ظننَّاك أميركيّا جئت لتتسلَّمنا، فقد قُبض علينا عند الحدود الباكستانية، واعتُقلْنا في مبنى الاستخبارات. ثم تبين أن الرجال الخمسة سعوديون هم عبد الله الشرقي والكربي وثلاثة آخرون لا أذكر أسماءهم الآن، ولكن تعارفنا فيما بعد.

تحركت بنا الحافلة نحو الساعة الثامنة صباحاً، ووصلنا إلى كويتا عند الساعة الثانية عشرة ظهراً. وخلال الرحلة حاولت أن أثبت لهؤلاء الإخوة أنني سوداني، وأنني أعمل في قناة الجزيرة مصوراً، وتم توقيفي، ولكنهم رفضوا التجاوب معي. كنت أحدثهم عما أسمعه من أخبار في الراديو، ومنها أن لدى الأميركيين سجناً في منطقة قندهار، وأنهم سيأخذون العرب المعتقلين إلى كوبا.

عندما دخلنا كويتا، وكان معي كتاب الأذكار للإمام النووي، قلتُ لهم: قولوا ذكر دخول المدينة، واسألوا الله أن يكفينا شر هؤلاء الناس، وأخبرتهم بأن ضباط الاستخبارات الباكستانيين أبلغوني بأنني سأُسلَّم إلى حكومة السودان. بعد هذا الحديث المستفيض اطمأنوا إليّ، وأبلغوني أنهم سعوديون، وطلبوا مني إبلاغ السفارة السعودية بوضعيتهم.

ذهبنا إلى مبنى الاستخبارات في كويتا، وعندما دخلنا المبنى غطّوا وجوه السعوديين الخمسة، واستثنوني من هذا الإجراء، فلم يغطوا وجهي. دخلنا إلى مبنى الاستخبارات، ولاحظت أنه كان خلف مبنى الفندق الذي كنا ننزل فيه في كويتا. توقفت السيارة مدَّة نصف ساعة، قبل أن تتحرك ومعها سيارات الشرطة. ولكن الضابط أفتاب وزميله الأفغاني انفصلا عن موكبنا، فلم نرهما منذ دخلنا إلى كويتا.

وصلنا إلى سجن عسكري في كويتا، وهناك أنزلوا السعوديين الخمسة، وأبقوني في السيارة بدعوى أنهم سيأخذونني إلى المطار للسفر إلى بلدي. دخلوا بالسعوديين الخمسة إلى السجن، وبعد نصف ساعة تقريباً جاؤوني، وطلبوا مني النزول معهم بزعم أنني سأبقى هناك ساعات حتى يحين وقت الطائرة ليأخذوني إلى المطار. كان ذلك في السابع من يناير/كانون الثاني 2002، وكنا جميعاً صائمين. أحضروا لنا طعام الغداء فادَّخرناه للإفطار عندما تغرب الشمس، وبعدما أفطرنا، وضعوني في زنزانة انفرادية، بينما وضعوا كل اثنين من السعوديين في زنزانة.

العربيان اللذان أعطاني ضابط الحدود اسميهما من قبل وجدتهما هناك، وتعرَّفت إليهما بمجرد أن ذَكَرا اسميهما، وقالا إنهما من منطقة

الجوف، ويعملان مدرسيْن هناك، وإنهما قدما لتوزيع مساعدات على مخيمات الأفغان، وبعد اكتمال مهمتهما اعتُقلا على الحدود الباكستانية عند عودتهما من أفغانستان، وهما في هذا السجن منذ شهر، وقد قابلا محققين أميركيين، فأخبرتهما بأنني سلّمت اسميهما للسفارة السعودية.

كانت الرحلة شاقة لكويتا، وبعد المغرب شعرت بإرهاق، فجمعت صلاتي المغرب والعشاء، وأدرت مؤشر الراديو واستمعت لبعض الأخبار ثم أغلقته.



الفصل التاسع

عندما هيأتُ للنوم سمعت حركة قريبة منِّي، فُتح باب الزنزانة، وأعطاني القادم ملابس عبارة عن قميص وبنطلون من قطعة واحدة، وكان القميص أزرق اللون. وقال: ارتدِ هذه حتى نأخذك إلى المطار، فتعجبت وقلت له: أنا سأرتدي ملابسي الخاصة. قال بلهجة آمرة: لا تتكلم كثيراً، اِلبس هذه. لبست تلك الملابس فوق ملابسي السابقة، ورتبت حقيبتي، ثم جاء آخر وفتح الزنزانة وكان يحمل معه قيوداً، وقال لي: سنأخذك للأميركيين حتى يعدموك. قلت له: ألم تقولوا: إنكم ستسلمونني إلى بلدي؟ قال: لا، سنسلِّمك للأميركيين حتى يقتلوك. قلت له: لا إشكال، أنا لا أهاب الموت فالموت هيِّن، وليس نهاية الحياة، فهناك حياة أخرى وحساب وعقاب، وربٌّ عادل لا تضيع عنده الحقوق. قال لي: بلا شك، الموت ليس نهاية الحياة، ولكن الأميركيين سيعدمونك. كان باكستانيًّا وكان يتكلم معي بالإنجليزية. وضع القيود في يدي ورجلي ثم أخذوا حقيبتي ووضعوني في السيارة، ووجدت الآخرين أمامي في الحافلة نفسها.

كنت خلال المشي أتكلم مع الجنود الذين جاؤوا معنا من ثمن وأسألهم: ما القصة؟ لماذا تبيعوننا للأميركيين؟ فكانوا يقولون لنا: نحن

مُجْبَرُون... ويتعللون بأسباب واهية وبأنهم إنما ينفذون الأوامر فقط. قلت: لن نسامحكم عند الله عز وجل، وسنأخذ منكم حقنا هنـــاك. كان راديو السيارة مفتوحاً، وكنا نسمع الأخبار في حدود الســاعة العاشرة والنصف. كان الإخوة السعوديون يتوقعون أن يؤخـــذوا إلى السفارة السعودية، فكنت أقول لهم: إنني أتابع الأخبار، فالأميركيون سيتسلموننا ويذهبون بنا إلى منطقة اسمها قندهار، وهناك ســجن في المطار يجمعون فيه المعتقلين العرب ومن ثم يرسلونهم إلى كوبا. وظلوا على أملهم، ولكنني نبهتهم إلى أنني سافرت من هذا المطار مــرتين، وأنه لا توجد رحلات جوية لإسلام أباد إلا صباحاً. وبالفعل، بينمـــا كنا نتجاذب أطراف الحديث، رأينا حافلة أخرى جــاءت ووقفـــت على مقربة مِنَّا، وكنا في السيارة أنا والسعوديون الخمسة القادمون من كويتا، ستة، ومعنا سعوديان، فالمجموع سبعة سعوديين وأنا ثامنـــهم. وكانت هذه آخر مرة نرى فيها الجنود الباكستانيين وآخر عهد لنـــا بباكستان.

- مين إنت؟

كانت تلك عبارة سمعتُها عند الحادية عشرة والنصف تماماً مـــن أحد الجنود الأميركيين. كان يتكلم العربية بلهجة مصـــرية، وكُنَّـــا معصوبـــي الأعين، فكان يتوقف عند كل واحد منا، ويقول: قـــم! من أنت؟

فلما وصل إليَّ قلت له: "أنا سامي محيي الدين محمـــد الحــــاج، صحفي سوداني"...

قال: لا تتكلم كثيراً. وشدَّني إليه، ثم قال: لا تحاول أن تفعل أي شيء وإلا فستتعرض للضرب.

قلت: إن معي حقيبة، قال: لا تتكلم كثيراً. وأخذني وحقيبتي واقتادني خطوات حتى اجتزنا بوابة، وهناك استقبلنا ضوء قوي جداًّ مسلط من نقطة معينة، يصاحبه هدير محركات الطائرة الجاهزة للإقلاع. أحاط بي الجنود الأميركيون المدججون بالسلاح، وأشهروه في وجهي، وهم يحيطون بي في شكل دائرة، وأنا في نصف هذه الدائرة، وتقدم إليّ جندي وقام بتفتيشي.

كنت ما أزال أحتفظ بالراديو في ملابسي، وعندما وضع الجندي يده عليه، ولاحظ جسماً غريباً، تجمد مكانه و لم يتحرك. كان زميله الذي يتحدث العربية بلهجة مصرية يقول له بالإنجليزية: ماذا وجدت؟ وهو صامت لا يتحرك، لعله حسب المذياع قنبلة!

بعد هُنيهَة، استدرك وقفز إلى الوراء، فقال له زميله: ماذا هناك؟ فقال: في جيبه شيء صلب.

نهرني المتحدث باللهجة المصرية، وأمرني بالانبطاح أرضاً، ففعلت، ثم جاء وقال لي: ما الذي في جيبك؟ فقلت له: هذا راديو.

كلَّم الجندي الأميركي زميله، وأبلغه أن الجسم الصلب عبارة عن جهاز راديو، ومع ذلك بقي متردداً، فتقدم عسكري آخر قام بتمزيق الملابس التي كنت أرتديها، وأدخل يده في جيبي وأخرج الراديو، ثم أخرجوا الساعة وحافظة النقود والجواز والتذكرة والنظارة والخاتم والحذاء، ووضعوا كل ذلك في كيس، كما وضعوا حقيبتي أيضاً في كيس، ثم غيَّروا القيد من حديد إلى بلاستيك، ووضعوه على اليدين فقط، وحرَّروا رجلي، ووضعوا كيساً أسود على رأسي، واقتادني جنديان إلى الطائرة.

كانت طائرة شحن، وتم تقييدنا علـــى أرضـــيتها بسلاســـل، وأخبرونا أنه في حالة أية حركة أو أي فعل فسيُرد علينا بعنف، بـــل وبإطلاق الرصاص. لبثنا في الطائرة فترة كنا نشعر خلالها بـــدخول أناس آخرين. وبعد ساعة أو ساعة ونصف ساعة تقريباً أقلعت الطائرة من كويتا، وبعد ساعة أو أقل من الطيران، حطّت في أحد المطارات، وأخذت وقتاً ما بين ساعة إلى ساعتين، ثم أقلعـــت مســـافة ســـاعة ونصف الساعة إلى أن هبطت في مطار باغرام، وهـــو أولى محطـــات الاعتقال الأميركي.

هناك في باغرام، وفي الساعات الأولى من صباح يـــوم الثلاثـــاء الثامن من يناير/كانون الثاني عام 2002.. دخل الجنود ليفكوا القيـــود عن كل واحد منَّا، وهم يصرخون في وجهه بالإنجليزية: لماذا أتيـــت لتقاتلنا؟

كان أغلب الموجودين لا يتحدثون اللغة الإنجليزيـــة، فكـــانوا يضربوهم ويشتموهم. أذكر ونحن داخل الطائرة أنه كـــان بجـــواري معتقل يناشدهم أن يسمحوا له باستخدام الحمام، فكان كلما تكلـــم يأتي إليه جندي ويضربه، وحدثني فيما بعد بأهم أتوا بحبل وربطوا به فمه كما يُوضع اللجام على فم الدابة حتى لا يتحرك لسانه بالكلام. وشعرت ببلل حولي، ثم ما لبثت أن أدركت أنه بول أحد المعـــتقلين الذين يطالبون بالذهاب للحمام، و لم يُسمَح لهم بذلك.

عندما وصلنا كانوا يقتادوننا واحداً تلو الآخر، وكنت أسمـــع صياحاً وضرباً. وجاء دوري فاقتـــادوني. ونظـــراً لأن الرحلـــة استغرقت ثلاث ساعات إلى أربع ساعات تقريباً، كنَّـــا خلالهـــا مربوطين إلى أرضية الطائرة، تخشبت أرجلنا من الجلسة الطويلـــة،

فكان الجنود يحاولون تحريكنا، وكنت أتمايل يميناً ويساراً ولا أستطيع الوقوف على رجليَّ. كانوا يدفعونني ويجرونني من الطائرة جرًّا وهم يصيحون: لماذا جئت لقتالنا؟ وأرد: لست مقاتلاً، أنا صحفي، فيردون بحقد وعنجهية: لا تكذب، من أين قدمت؟ فأواصل نفي مقولتهم، وأقول: إنني قادم من السودان، لستُ مقاتلاً، أنا صحفي. وعند وصولي إلى البوابة وأنا معصوب العينين، دفعوني لأتقدم، فظننت أني أقف على شفير هاوية، فقفزت فسقطت على رجلي اليمنى التي التوت وتمزق رباطها الصليبي الذي يتحكم في حركة الركبة، وهي العِلّة التي لا أزال أعانيها حتى اليوم. وقد بلغتُ من شدة الألم أني صرخت في تلك الحالة. ثم أمروني بالانبطاح فانبطحت على وجهي، وظللت أصرخ من الألم، ومما زاد في أذيَّتي أنهم بادلوني بالصراخ، وضربوني، وهددوني بالقتل إن تحركت.

كنت أسمع نباح الكلاب قريباً مني، كما كنت أسمع صراخ وعذابات باقي المعتقلين. كادت أطرافي تتجمد، وكنت أرتجف من شدة البرد. كانوا يصرخون: لماذا لا تتحرك؟ ويضربونني على ظهري، وبعد قليل أوقفوني على رجليَّ، وشدُّوا في يدي اليمنى حبلاً ثم شدوه في اليسرى.

أوقفونا جميعاً في طابور، وأوصلوا حبال قيد اليدين بين الجميع، ووقف أمامنا جندي يسحبنا بحبل واحد والبقية على الجانبين، وكانت الكلاب تنبح من حولنا، في مشهد مرعب! والبرد يكاد يوقف القلوب. وكانت عيناي معصوبتين، وتعتصرني آلام من تمزق رباط الركبة، لدرجة لا يعلم مداها إلا الله.

كانوا جاهزين لضرب كل من يسقط أثناء عملية سحب الحبال التي يقومون بها، وكلما تأخر واحد منّا كان الشد يزداد على يديه، فقد ربطوا الحبل بطريقة مرنة تسمح بازدياد الضغط على المعصمين كلما توقف أحدنا. لم يكن أحدنا يدري ممَّ يرتجف، أمن شدة البرد أم هول الخوف؟ كان نباح الكلاب، وصياح الجنود، وأنّات الآلام التي تتصاعد من صدور المعتقلين تختلط في ذلك الليل البهيم، مُحدثةً سيمفونية رهيبة لا يعلم إلا الله أثرها في النفوس وتحريكها للأشجان والأحزان وما تبعثه من خوف وقلق وشعور بالمذلة والمهانة.

بعد أن سِرْنا على هذا النحو مئات الأمتار، توقفت تلك القافلة العجيبة، وأمرونا بالجلوس على ركبنا، وأنظارنا تتجه إلى الأرض، ثم بدؤوا يقتادوننا واحداً واحداً، أعيننا معصوبة، ورؤوسنا محاطة بالغطاء الأسود، وكانوا يُدخلون الشخص منّا إلى عنبر كبير، وكان الخيال يسرح فيما تغذيه به تلك الوقائع، كنا نحسب أن من يأخذونه إلى ذلك العنبر يُصبُّ عليه الماء البارد، أو يضرب بالسياط، أو تطلق عليه النار، أو تتناهشه الكلاب، أو غير ذلك من صور خيال لم تشتطَّ عن الواقع المعيش بعيداً، فكل هذه الضروب من التعذيب مورست فعليًّا.

بقيتُ على هذا الوضع، وكنت أصيح بين الفينة والأخرى من شدة ألم تمزق رباط الركبة، ومع كل صرخة يضربني أحد الجنود إلى أن سقطت من الإعياء والبرد والألم، فأخذوني وسحبوني لأني لم أكن أستطيع المشي. سحبوني بقوة ورفسوني بأحذيتهم الخشنة الثقيلة، وواصلوا سحبي حتى أدخلوني إلى غرفة، ثم نزعوا عني الكيس الذي كانوا يغطون به وجهي ورأسي، فوجدت نفسي وسط مجموعة من الجنود يُشهرون أسلحتهم في غرفة مضاءة إضاءة قوية.

كان الضوء مسلَّطاً على عيني تماماً، وكان الجنود يحيطون بـــي من كل جانب، وكان أمامي أحدهم وهو يقـــول لي: لا تتحـــرك ولا تفعل أي شيء، عليك أن تنصاع لأوامرنــا، وأي حركـــة منــك ستعقبها طلقة رصاص تستقر في دماغك. كان الجنود مـــن حولـــه يرفعون عصيهم، ويشهرون بنادقهم ومسدساتهم. وبعد رفع الغطاء، وقطع الحبل المحيط بمعصمي، وحالما تمكنت من تحريك يدي، طلبوا منِّي خلع ملابسي.

بدأت خلع ملابسي ببطء، كنت أرتجف من البرد وكنت أتمايل من الوهن والإرهاق، فكانوا يتصايحون مع كل ميلـــة. خلعـــتُ أولاً اللباس الأزرق الذي ألبسوني إياه قبل الصعود للطائرة من باكســـتان، وكان قطعة واحدة مثل ثياب الميكانيكيين. ثم طلبوا مني خلع ملابسي الأخرى "البنطلون والقميص". وكنت أرتدي تحت هـــذا البنطلـــون والقميص ملابس داخلية طويلة وقايةً من البرد، فطلبوا مني خلعهـــا، ووقفت حائراً متردداً فتصايحوا: إن لم تفعل أطلقنا عليك الرصـــاص. فخلعتُ القميص واستبقيت السروال، وكانوا يتصـــايحون وأنـــا في ذهول ويداي متشبثتان بالبنطلون أرفض خلعه، وأتلفت يميناً ويســـاراً فلا أرى سوى أسلحة تُشهَر وأفواه تصرخ ووجوه تقاسيمها تخويف وإفزاع.

تقدَّم نحوي الجندي الذي يقف قبالتي تماماً وهو يسحب أمـــان رشاشه وطلب مني أن أخلع السروال الطويل، وبدأ بتحريك الكلب الذي كان ينبح بصوت عال. فخلعت السروال الطويل، ثم طلب مني أن أنظر أمامي ولا ألتفت إلى الوراء. كنت في ذهول تام، أشعر بـــألم ما فوقه ألم، ولا أدري هل هو ألم المرض أم ألم الأَسْـــر أم ألم القهـــر

والإهانة التي كنت أشعر بها من إكراهي على خلع ملابسي أمام هؤلاء الأوغاد مع كلابهم ومجنداتهم. وأحياناً تنتابني موجة ذهول تخفف ألم البدن ولكنها تُعمِّق جراح النفس، وذلك مصاب ما فوقه مصاب.

إنني أَدِين بدين يستحي معتنقوه من التجرد جهاراً أمام الزوجات، فكيف بالنساء الأخريات؟! لم يخطر في بالي قطٌّ أن يصل التعذيب إلى هذا الحد، و لم أكن البتة أستبعد أي نمط من أنماط التعذيب النفسي والبدني، ولكن هذه الحالة لم تخطر لي على بال، و لم أتخيل أن ينزل الإنسان إلى هذا الدرك من البشاعة، واحتقار إنسانية الإنسان. كان الصياح والنباح وأصوات قعقعة السلاح وقعقعة المدافع والبرد القارس والإضاءة الساطعة وتداخلِ وجوه المجندين والمجندات والكلاب في تلك اللحظة من الليل.. كلّها تُشكِّل صورةً من صور تهاوي الإنسانية في حضيض سحيق من الدناءة والرذالة.

بعد هنيهة رمى لي أحدهم ملابسي، ووقفت متصلباً مذهولاً، لا أدري ما أفعل، ولا أستطيع حراكاً، فهَمُّوا بإطلاق الكلب نحوي. وفجأة تداركت الموقف وعُدْتُ إلى رشدي، فقفزت إلى ملابسي وسترت عورتي، وعندما لبست القميص لم أستطع أن أشد الأزرار فقد تصلّبتْ أصابعي من شدة البرد.

تقدم نحوي جنديان وقيَّدا يديَّ من الخلف، ودفعاني إلى غرفة أخرى وجدت فيها شخصين يقفان خلف طاولة.

وقفت أمامهما، ثم حضر جنود آخرون اصطفوا صفين عن يميني وعن شمالي، وأنا أقف في الوسط وجنديان يمسكان بيدي.

كان أحد الجنديين الواقفين أمامي خلف طاولة يتكلم العربية بلهجة من لهجات شمال إفريقيا. بادرني ذلك الجندي متحدثاً باللغة العربية:

ما اسمك؟ فقلت: اسمي سامي محيي الدين محمد الحاج.

وما جنسيتك؟ قلت: سوداني.

قال: أنت صورتَ أسامة بن لادن؟ قلت له: لا، لم أصور ابن لادن.

قال: لا، بل أنت صورت ابن لادن. قلت: لا، لم أصور ابن لادن، إنما أنا صحفي حضرت لتغطية الحرب فقط.

قال لي: لا تنكر فلن يفيدك الإنكار، وإذا أنكرت فستتعرض للضرب والإهانة وستُعرَّى من ملابسك، وقد تفقد حياتك هنا، هنا ليس أمامك إلا أن تجيب دائماً بالإيجاب.

فكررت إجابتي بعد إلحاحه، فقال: لا تتفلسف كثيراً، اصمت ولا تجب إلا عندما نسألك.

واستطرد يسأل: كم معك من المال؟ وما الأشياء التي بحوزتك؟

أجبت بأن معي بعض الدولارات، والعملة الباكستانية، والدراهم الإماراتية، والريالات القطرية، ومعي جواز سفري، وتذكرة سفر وبطاقتي الصحفية، ومعي راديو صغير وكاميرا تصوير ومعداهما، وساعة يد ونظارة ودواء.. فقال: اصمت.

دوَّن إجاباتي في محضر، وأمر الجنود بأخذي خارج الغرفة، فسحبوني إلى العنبر.

كان عبارة عن عنبر قديم لصيانة الطائرات، أرضه من البلاط وقد وُضعت فيه أقفاص كبيرة حُدِّدت بأسلاك شائكة. فُتح الباب

وأدخلت فوجدت أناساً نائمين.

سُلِّمت لي بطانيتان قيل لي: إن إحداهما فراش، والأخرى دثار، وهما لا تنفعان في ذلك الجو البارد لا فراشاً ولا دثاراً، ولكنني من شدة التعب والإرهاق والنعاس افترشت إحداهما، والتحفت الثانية، وسبحت في نوم عميق لم يقطعه منتصفَ نهار الغد إلا صياحُ الجنود برقمي حيث كنتُ قد أُعطيت الرقم 35.

كانت الكلاب تنبح، والجنود ينادون: اصح يا 35، تحرك يا 35. كنت مثل جثة هامدة تغطُّ في نوم عميق. استيقظت فَزِعاً، فرأيت أحد الجنود وهو يناديني من خارج السياج. كان بقية المجموعة من الأسرى جلوساً أمام وجبات غذائية من الطعام المعلب، لا يتعدى وزن الوجبة الواحدة مئتي غرام. رمى إليَّ ذلك الجندي بواحدة من تلك الوجبات في كيس بلاستيك وأتبعها بملعقة.

عاودني الذهول فأخذت أتلفَّت يميناً وشمالاً، لا أدري أين أنا، ولا كيف وصلت، ولا المكان الذي أجلس فيه، ولا الأحداث التي تدور حولي. عاد بي شريط الذاكرة إلى أحداث يوم أمس، فاستعرضتها سريعاً، ومرت متداخلة من دون تركيز وأنا في ذهول لم يقطعه إلا صياحُ الجندي يطلب استعادة الصحون، والمتبقي من الوجبات. قلت له: إنني لم آكل بعد، فصرخ في وجهي أن أعطيه الوجبة كلها.

أعدتها إليه و لم أسلِّمْه الملعقة التي كانت مرمية أمامي دون انتباه، فطلبها هي الأخرى.

تفحصت المكان، وتلفتُّ ذات اليمين وذات الشِّمال، فرأيت مجموعة من المعتقلين. كان المكان كما أسلفت، عبارة عن عنبر كبير لصيانة الطائرات في قاعدة باغرام الجوية، ويبدو أن هذا المكان قد

شُيِّد في عهد الحكومة الشيوعية الأفغانية، وقد عرفنا فيما بعد أنه كان قاعدة روسية في أفغانستان بُنيتْ في عهد الاتحاد السوفيتي. ويظهر على المكان الإهمال وعدم الترتيب، وكان مقسوماً قسمين؛ في كل قسم أربع غرف موزعة على طابقين، أرضي وأول. كما قُسِّمت مساحة الأرضية المتبقية إلى أربعة أقفاص، كنت في القفص الأول الذي يواجه الغرفتين الأماميتين، وأمامنا المبنى.

هممتُ أن أقوم لأداء صلاة الفجر وكان الجو بارداً و لم أرَ الشمس. وكنت أحسب أن الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً؛ إذ كان هناك ضوء، وعندما هممت بالوقوف أمرني العسكري بأن أجلس، وقالوا: إن الوقوف ممنوع، وكذلك النظر إلى أعلى والنظر إلى أسفل، ويُمنع التحدث مع المعتقلين. وإذا أردتُ شيئاً فعليَّ أن أرفع أصبعي حتى أحصل على إذن في الكلام، وأن أتبع أوامر الجنود.

وبعد انتهائه من إملاء تلك الأوامر، قلت له: إنني أريد ماء للوضوء، فقال: لا يُسمح لك إلا بقارورة واحدة في اليوم، وإيَّاك والاغتسال بها! عليك استعمالها للشرب فقط، وإلا تعرضت لعقوبات قاسية.

كان الجنود يحملون بنادق من طراز (M16) ومسدسات شخصية، وحقائب على ظهورهم، وعلى رأس كل منهم خوذة، وكانوا يحملون في أيديهم عِصِيًّا يضربون بها الأرض عندما يتحدثون، فتصدر صوتاً مزعجاً، وكانوا يتوعدون ويشتمون ويتلفظون بألفاظ نابية وبذيئة يعف لسان العاقل عن ذكرها.

تَلَفَّتُّ يمنةً ويُسرةً، فرأيت أحد المعتقلين يضرب بيديه الأرض، ويتيمَّم ويصلي وهو جالس فقلَّدتُه، تيممت وصليت وأنا جالس،

وبعد انتهائي من الصلاة طلبت ماء فأعطوني قارورة من الماء صغيرة حسوتُ منها جرعات صغيرة. وبينما أنا أجول بناظري في المكان رأيت إحدى الجنديات وهي تنادي برقمي 35، وتقول: لا تلتفت، لا تتكلم، لا تتحرك، انظر تحتك.

أدركت حينئذ أن الرقم مكتوب على ظهر ملابس السجن التي كنت أرتديها.

كانت أحداث الليلة الماضية تطارد مخيِّلتي، غير أن التعب والإرهاق أخذا منِّي فغلبني النوم، ونمتُ و لم أستيقظ إلا على صياح الجنود وهم يسوقون الناس إلى مكان قضاء الحاجة واحداً تلو الآخر. كانوا يضعون قيوداً في أيدينا وأرجلنا طول الوقت، وعندما جاء دوري وهممت بالوقوف، خانتني رجلاي و لم تقويا على حملي. حاولت مراراً حتى استويتُ واقفاً فطلبوا مني أن أتحرك خطوات إلى الأمام، وأن أرفع يدي وأدور حول نفسي وأنظر إلى الخلف. فتحوا بوابة السلك الشائك وهجموا عليَّ وأمسكوني وأنا مقيد من يدي ورجلي، ثم أخرجوني وأغلقوا الباب على عجل، وأمروني أن أنظر إلى أسفل، وألا أتحرك إلا بإذنهم.

سحبوني خارج القفص، ومشيت أمتاراً حتى وصلت إلى بوابة العنبر.

خرجت من البوابة فإذا بحفرة أمام الباب مباشرة، وقد وُضع على جانبيها بابان قديمان من الحديد، وبينهما فتحة صغيرة. ثم قالوا لي: اقضِ حاجتك هنا.

فطلبت فكَّ القيد من يدي ففكوه، وانتظرت انصرافهم فلم يذهبوا وقالوا لي: افعل!

فقلت: تأخروا قليلاً أو اذهبوا.

قالوا: لا، نحن لا نذهب، سنبقى هنا معك وإذا لم تفعل في دقيقتين، فسنعيدك مرة أخرى. أمامك ثلاث فرص في اليوم فقط، وهذه هي الثانية. بقيت لك فرصة واحدة ستكون في المساء آخر اليوم، ولن يُسمَح لك بأخرى.

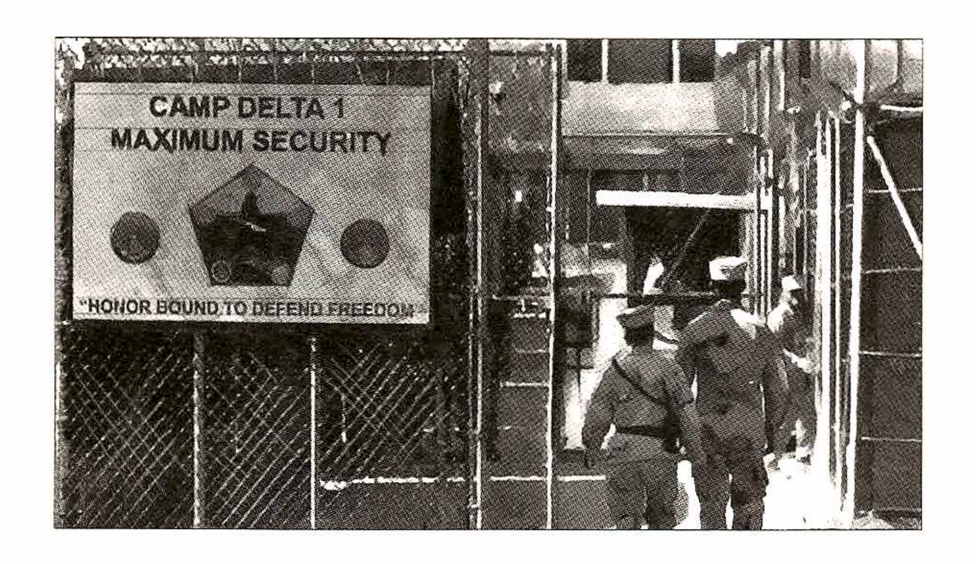
كانوا يسمحون بقضاء الحاجة في الصباح الباكر وفي منتصف اليوم وفي أول الليل.

وقفت أتأمل حولي فنهروني وقالوا: انظر أمامك فقط ولا وقت للتأخير. سمعت ضحكة نسائية، ورفعت رأسي، فرأيت إحدى الجنديات وهي تحمل رشاشاً توجهه نحوي، وتشير لي بأصبعها أن أسرع وهي تضحك مع الجنود هازئة ساخرة. قضيتُ حاجتي على عجل، وقمت ولم يعطوني شيئاً أنظّف نفسي به، لا ماء ولا ورق ولا أي شيء!!!

خرجت من المكان فسحبوني وأعادوا تقييد يديَّ من الخلف، وجروني إلى مكاني، ثم صاحوا بالرقم 36 وأخذوه.

بقينا على هذه الحال لا نبرح أماكننا، وكانوا يطعموننا وجبة واحدة في اليوم، وهي عبارة، كما أسلفت، عن مئتين (أو مئتين وخمسين) غراماً من الأكل الجاهز الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا نعرف شيئاً عن مكوناته.

عندما أخذوني إلى مكان قضاء الحاجة، عزمت على ألا أتناول طعاماً، وأكتفي بجرعات من الماء فقط. كان الجو بارداً في شهر يناير/كانون الثاني، وكنا كلّ صباح نجد قوارير الماء مثلجة تماماً من شدة البرد.


CAMP DELTA 1
MAXIMUM SECURITY
"HONOR BOUND TO DEFEND FREEDOM"

الفصل العاشر

في الليلة الثانية لم أذق طعماً للنوم، فقد كان الجو بارداً جــدًّا، وازداد ألم الركبة وأحسست بآلام شديدة في جسدي مــن طــول الجلوس وقلة الحركة، وكان القيد يؤلمني كثيراً.

حاولت تحريك رجليّ، فلما رأوني نادوا عليَّ، ووضعوا علــى رجلي قيداً حديديًّا ضاغطاً بدل قيد البلاستيك، وانتفخت رجــلاي من شدة البرد وضغط القيد. شدة البرد كذلك ساعدت على منــع النوم لأن البطانية كانت خفيفة جدًّا لا تغطيني بالكامل ولا تمنح دفئاً، والبطانية الأخرى لم تساعد في تخفيف البرد الصاعد من الأرضية التي كانت باردة جدًّا.

كنت أتقلب على جنبــي الأيمن تارة والأيسر تارة أخرى طول الليل، وعندما أصبح الصبح ،سليتُ متيممــاً، و لم أتنــاول الطعــام واكتفيت بالماء فقط لئلاّ أحتاج للذهاب إلى الخلاء. كنت ألاحــظ معاناة الآخرين عندما يحتاجون للذهاب إلى الخلاء آخر الليل فيُمنعون ويُنهرون.. وحدث أن وقف أحدهم فضربوه وأوقعوه أرضاً. فلما ردَّ على سبابهم علّقوه على الباب من إحدى يديه، فلما حاول فك القيد باليد الأخرى علقوه من يديه طول الليل، فكان عبرة لنا جميعاً، و لم أنم حتى الصباح.

كانوا يأخذوننا واحداً تلو الآخر إلى التحقيق، ومكثنا أسبوعاً على هذا الوضع، وأذكر أنهم أتوا بمعتقلين جدد في ذلك الأسبوع فوضعوهم في الأسيجة القريبة، وكانوا يأتون لاحقاً بمجموعات كل ثلاثة أيام أو أربعة.

بعد أن مكثت ثلاثة عشر يوماً جاؤوا إليَّ وصعدوا بي إلى الغرفة العليا التي كانت تُستخدم للتحقيق. عندما دخلت إلى الغرفة شعرت بالدفء لحظات وأحسست بالحاجة إلى النوم، وشعرت بالنعاس فصاحوا بي: إذا أغمضت عينيك فسنوقفك على رجليك طيلة فترة التحقيق. حضر الضابط ومعه العربي السابق الذي لقيته أول ليلة، وبدأ يسألني:

- ما اسمك؟ وما بلدك؟ وما جنسيتك وتاريخ ميلادك؟ وما وظيفتك؟

قلت له: وظيفتي صحفي.

فقال: أنت الذي قمت بتصوير أسامة بن لادن؟ فنفيت أن أكون الذي صوَّر الفيلم الذي شوهد يومَ الغارة على أفغانستان، وقلت له: إنني شاهدت هذا الفيلم في الدوحة وأنا إذّاكَ في مقرِّ القناة، والتقرير المصور بُثَّ من مكتب كابول، والدليل موجود في الجواز الذي بحوزتكم إذ لم أتحرك من الدوحة إلا في الحادي عشر من أكتوبر/تشرين الأول 2001. أما بث التقرير المصور، فكان قبل ذلك بأيام.

وأوضحت له كذلك أن التقرير الثاني عن أسامة بن لادن أنجزه مدير مكتب الجزيرة في كابول وقد ظهر على الشاشة وهو يقدِّم التقرير للمشاهدين.

فقال: هل تؤكد أنك لم تكن معه في التصوير؟ فأكدت أنني كنت موجوداً في قندهار وكانت مهمتي تغطية الوضع في قندهار وأنني لم أرَ كابول من قبل. وأخبرته بأن لي شهوداً على ذلك الأمر وهم من الـ "سي.إن.إن"، لأنني كنت طيلة تلك الفترة معهم وفي ضيافتهم في قندهار، إلى أن خرجت من أفغانستان، وأعتقد أنهم مستعدون للشهادة على هذا الأمر.

عاد فسألني: إذاً أين كنت يوم الحادي عشر من سبتمبر/أيلول؟

قلت: إنني كنت في سوريا لقضاء إجازة مع زوجتي وأفراد أسرتي الذين أتوا من السودان، ثم اتصل بي المسؤولون في قناة الجزيرة وأنا في سوريا وطلبوا منّي العودة إلى الدوحة لأنهم بصدد إرسالي إلى أفغانستان، وبالفعل أعدتُ أسرتي إلى أذربيجان وودَّعت أقاربي وسافرت إلى الدوحة أواخر سبتمبر/أيلول وبداية أكتوبر/تشرين الأول، وهناك بدأت بإجراءات السفر، ثم أرسلوني إلى أفغانستان بعد إكمال دورة في التصوير والمونتاج وإرسال الموادّ المصوَّرة، فتم اختياري لهذه المهمة. وأخبرته بأنني وقَّعتُ عقداً رسميًّا مع القناة على هذا الأساس وقدَّمت جواز سفري إلى السفارة الباكستانية التي حصلت منها على تأشيرة دخول مرتين، وسافرت لمزاولة عملي، وأنني في الحادي عشر من أكتوبر/تشرين الأول انطلقنا من الدوحة نحو باكستان ونزلت في إسلام أباد فجر الثاني عشر من أكتوبر/تشرين الأول مباشرة، وكان معي في الرحلة الصحفي يوسف الشولي، ثم أكملت له سياق القصة المعروف.

بعدها بادرني بسؤال: إذا أطلقنا سراحك فماذا تقول عنا؟ أدركت حينئذ أنه قد توصل إلى اقتناع تام بأنني لم أصوِّر ابن لادن،

وأنني فعلاً كنت في سوريا في تاريخ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وأنه تحقق من ذلك عن طريق جوازي، وكان معه المترجم العربي الذي كان يتابع التواريخ المكتوبة على جواز سفري، ويوضحها له بالإنجليزية. ودون أدنى تفكير أنطقني الله بكلمات، فقلت له: سأقول ما رأيت، سأقول: إنكم ضربتموني وتسببتم لي في تمزق رباط ركبتي، ومنعتموني من الصلاة، وجوعتمونا وانتهكتم كرامتنا وأهنتمونا بغير سبب، ولم تسمحوا لنا بممارسة شعائرنا الدينية، ومنعتمونا من الكلام ومن التحدث والحركة.

ضحك وسألني: هل تريد أمراً آخر، فقد انتهت مقابلتك؟ فقلت: نعم أريد طبيباً يعالجني فأنا أتألم من ركبتي وقد أمرضني البرد. وأريته رجلي وهي منتفخة من شدة الإصابة بالروماتيزم، وطلبتُ كذلك السماح لنا باستعمال خلاءات مستورة وأداء الشعائر الدينية والطعام الجيد، فوجبة واحدة لا تكفي في هذا البرد القارس، كما أن الغطاء ليس كافياً، فنحن لا نستطيع أن ننام بسبب شدة البرد.

فردّ عليَّ بأنه لا يستطيع مساعدتي في هذه الأشياء، ولكنه سيزوِّدني ببطانية ثالثة. وبالفعل أخذ بطانية ووضعها على كتفي، لأن يديَّ مقيدتان، ثم أمر العسكري بإنزالي مرة أخرى إلى القفص.

بعد ذلك بيوم نقلوا مجموعة منَّا في منتصف الليل إلى مكان آخر. ربطوهم بالحبال ووضعوهم في طابور وأخذوهم إلى ساحة المطار في الداخل، ثم اختفوا ولم يعودوا. وحسب المعلومات التي استقيتها سابقاً من الأخبار، فقد خمَّنتُ أنهم يَنقُلون المعتقلين إلى السجن الأميركي في قندهار. وبالفعل، بعد ثلاثة أيام من المقابلة،

أي بعد ستة عشر يوماً قضيناها في باغرام، كانت كل ليلة منها أبرد من الأخرى، نادى الجنود على رقمي مع أرقام أخرى، ووُضعنا في طابور ثم رُبطنا بالحبال من أيدينا كما وصفتُ أول ليلة، ثم سُحبنا إلى أن وصلنا إلى الطائرة. كان الجو بارداً والكلاب تنبح حولنا والجنود يتصايحون وعيوننا بل رؤوسنا كلها مغطاة بالأكياس السُّود، وأُدخلنا طائرة كنا نسمع هدير محركاتها.

كانت أبرز ملامح الأيام الستة عشر التي قضيناها في باغرام منعنا من الكلام وقلّة الطعام وانعدام الدواء وشدة البرد وقلة الأغطية وحمامات الخلاء المهينة المكشوفة، ثلاث مرات فقط يوميًّا، وتقييد الوقوف فكيف الحركة. وأذكر أن أحد الأفغان الذين كانوا معتقلين في باغرام حاول الهروب في إحدى الليالي فاعتقلوه وأرجعوه وضربوه ضرباً مُبرِحاً في إحدى الغرف، وكنا نسمع صراخه وهو يتألم. وفجأة خرجوا وهم مذهولون، وبعد هنيهة أخرجوا الأفغاني جُثّةً هامدةً، بعد أن مات تحت التعذيب.

ومن فنون التعذيب التي كانوا يمارسونها علينا في باغرام أنهم كانوا يلزموننا بتوجيه وجوهنا إلى الأمام أثناء النوم حتى تتقابل عيوننا مع كشافات قوية لا يستطيع أحدنا التحديق إليها من شدة إضاءتها.

الحراس يتكونون من مجموعتين، كل مجموعة تعمل اثني عشرة ساعة، وهم خليط من النساء والرجال، كانوا يسبُّوننا ويؤذوننا بالكلام البذيء.. النساء كُنَّ يضحكن من المعتقلين أثناء قضاء الحاجة. وكان الحراس يقيمون حفلاً للأعلام الأميركية ويرفعون أصوات الموسيقى الوطنية وموسيقى الرقص، وكانوا يحيُّون العلم

ويلتقطون بجواره الصور في نشوة انتصار، وكانوا يتقاسمون أطايب الطعام أمامنا ونحن محرومون منه، وكانوا يتناولون القهوة والمشروبات الساخنة أمامنا، ولا تمر على العسكري دقائق حتى يُخرج أكلاً أو مشروباً من حقيبته.

الفصل الحادي عشر

ضرب الطائر جناحيه ودار دورتين في الهواء فتذكرت بوضوح اللحظة التي أقلعت بنا الطائرة، بعد نحو ساعة ونصف الساعة من صخب الطائرة العسكرية وصلنا إلى قندهار، فاستقبلنا الجنود بالضرب بعد أن بطحوا كل واحد منَّا أرضاً، والكلاب تنبح من حولنا والجنود يتصايحون ويقفزون على ظهورنا. يقف أحدهم على ظهر أحد المعتقلين ويقفز منه على ظهر الثاني وهكذا. كان ذلك بالتحديد في الثالث والعشرين من يناير/كانون الثاني. كنت أشعر بأن نَفَسي سينقطع من ضغط أرجل الجنود على ظهري الذي سالت منه دماء غزيرة.

كانوا يضربوننا على الأقدام ويسبوننا بأقذع الكلمات، ويسألوننا إن كنَّا نعرف الإنجليزية أم لا. ذكرت لهم أنني أعرفها، وكان بجواري أحد المعتقلين من السعودية عرفت فيما بعد أن اسمه شاكر. قال لهم إنه يعرفها، فكانوا يضربونه ويقولون له: قل لهؤلاء: إنهم في قبضتنا وسنفعل بهم وبأمهاتهم وبزوجاتهم وأخواتهم كذا وكذا مما يعف اللسان عن ذِكْرِه، وكانوا ينهرونه ليرفع صوته ويردد ما أملوه عليه. كانوا يركزون على سبِّ أمهاتنا وأخواتنا، وكانوا يتطاولون ويتجاوزون كل الحدود؛ إذ كانوا يقولون لشاكر أن يقول لجاره إننا نريد أخته أو أمه لنفعل! وحين يرفض شاكر ترديد هذا

الهراء يردون عليه بمزيد من الضرب حتى يترجم لجاره؛ فإن لم يجبهم ضربوه وإن أجاب بما لا يعجبهم ضربوه أيضاً. وأحياناً يقول الجار: اسألهم إن كانوا يرضون بأن يُفعل بهم كذا وكذا!

كانوا يأخذوننا واحداً تلو الآخر إلى مكان مجهول، وعيوننا معصوبة.. وفي ذلك الليل الشتوي، يأمروننا بالانبطاح على أرضية المطار ذات الإسفلت شديد البرودة.

عندما أتى دوري أخذني جنديان وذهبا بي نحو عنبر كبير لصيانة الطائرات يشبه ذلك الذي في باغرام، وأدخلاني فيه.

هناك وجدت مجموعة من الضباط واقفين متراصِّين، كل واحد أمامه طاولة. سألني الأول: ما اسمك؟ وما جنسيتك؟ وما اللغات التي تتكلمها؟ وكم عمرك؟ وما وظيفتك؟ فأجبته بحسب أسئلته، غير أنني قلت له: إنني أتكلم العربية فقط. وعندما عرف مهنتي، تعجَّب وقال: صحفي موجود معنا هنا؟! ثم سألني: مع أية جهة صحفية تعمل؟ قلت: في قناة الجزيرة، فصفعني على وجهي وسبَّ الجزيرة ونعتها بنعوت بذيئة ثم صفعني مرة أخرى، وقال: إذاً أنت تحاربنا وتكره أميركا وتحاربها، ثم دفعني إلى الذي يليه، وكنَّا مجموعة - فقام بتعريتنا بقطع ثيابنا بالمقص وسألني: هل أشكو شيئاً؟ وعندما رأى الدم يسيل من ظهري، قال: ما هذه الدماء؟ فلم أُجبه لأنني لم أعرف ما أقول له، ثم دفعني إلى آخر تفحص جسمي بشكل مهين، وذاك دفعني للذي يليه وكان دوره تصوير المعتقلين.

وجاء آخر قام بنتف شعيرات من لحيتي الخفيفة حينئذ، ووضع الشعرات التي أخذها في كيس، كما أخذ عينة من لعابي. أمَّا الذي بعده فقد حلق لي شعري ورسم صليباً في رأسي، حسبما أخبرني

المعتقلون لاحقاً؛ إذ لم أكن أشاهد شعر رأسي لانعدام المـــرآة. أمـــا الأخير، فدفع إلَيَّ بالملابس والحذاء الذي كان أصغر من مقاس قدمي. فلما ذكرت له ذلك قال: إن لم تستطع وضعه في رجلك فضـــعه في فمك!

ثم أخذني الجنود إلى عنبر موجود في قفص حشرونا بداخله، وقد وجدنا فيه مجموعة من المعتقلين، لكنهم هذه المرة لم يقيدوا أيدينا ولا أرجلنا.

وزَّعوا علينا الأغطية وكانت الإضاءة قوية كـــالتي كانـــت في باغرام، كما وُضعنا في أقفاص شبيهة بتلك التي وُضعنا فيها من قبل. كان الجو بارداً جداً، فافترشنا أغطية والتحفنا بأخرى، وتقاربنا جداً حتى يدفئ بعضنا بعضاً.

استيقظنا لأول مرة صباحاً بعد نوم عميق إثـــر ليلـــة مجهِـــدة واستفزاز وعذاب وذل فاق كل التصور. رأينا الشمس قد أشـــرقت وأردنا الصلاة وهمَّ بعضنا بقضاء حاجته، وكان الحمَّام عبارة عـــن سطل في القفص الذي نوجد فيه. فأصابنا الذهول! إذ كيف يمكـــن لأحد قضاء حاجته داخل هذا القفص مع وجود هذا العدد الكبير من المعتقلين في المكان نفسه.

أشار أحد المعتقلين باستخدام بطانية يرفعها معتقل آخر ليستر بها من يقضي حاجته، لكنْ الجندي الذي كان يقف على مكان مرتفع، كان لنا بالمرصاد وصاح قائلاً: إنكم تخالفون القانون، ومن يفعل ذلك فسنسحب منه الأغطية ويتعرض لعقوبات قاسية. لم يبق أمامنا إلا أن ندير ظهورنا لمن يستعمل السطل ويقضي حاجته! ونترك لـــه وقتـــاً يكفيه ثم يأتي الذي يليه وهكذا.

كنا نسمع الجندي والجندية التي تراقب معه المشهد وهما يضحكان عندما يصفان أحجام الأعضاء التناسلية للمعتقلين ونحو ذلك! وكنت وبعض من يعرف الإنجليزية نرفض ترجمة ما يقولانه من تعليق يعف اللسان عن ذكره حتى لا تضيق صدور زملائنا المعتقلين. وحينما أردنا أن نصلّي سألنا عن اتجاه القبلة فرفضوا أن يخبرونا، فاجتهدنا وصلينا في الاتجاه الذي قدَّرنا أنه القبلة.

وأذكر أنهم أحضروا أفغانيًّا وضربوه، فكان رأسه ينزف دماً، وكانت ملابسه ملطخة بالدماء، وأتوا به وقد بلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً إذ كان يقاومهم على ما يبدو، وكان قوي العضلات متماسك البنية. وعندما وضعوه بجوارنا في القفص رفع رأسه وسأل: هل أنتم عرب؟ هززنا رؤوسنا بالإيجاب، فقال: انصروني فإن هؤلاء اعتدوا عليَّ وضربوني، وعندما لم يجد رداً أجهش بالبكاء. ورأينا في ذلك صورة متجددة من قهر الرجال، فبكى بعضنا لبكائه غير أننا لم نحرِّك ساكناً.

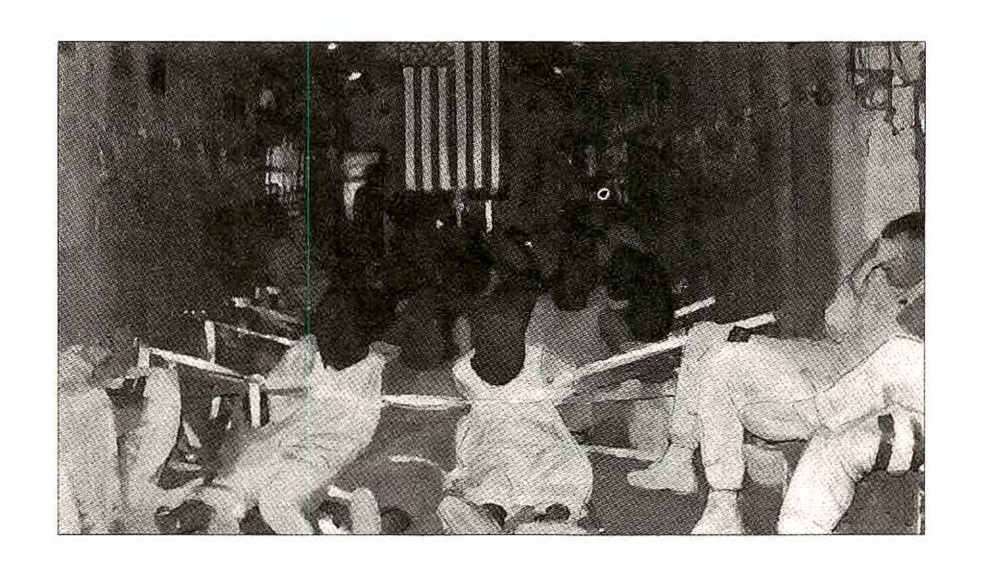
بعد أن أدينا صلاة الفجر، جاء الجنود وسحبونا واحداً تلو الآخر، ومن يُسحب لا يرجع مرة أخرى. وكان ذلك يتم على رأس كل ساعة أو ساعة ونصف تقريباً، يعودون بعدها ليأخذوا الآخر وهكذا دواليك، إلى أن جاء دوري فنودي على رقمي وأعطوني رقماً جديداً هو 448.

اقتادوني بعد شد يديَّ إلى الخلف وتقييد رجليَّ وربط القيد بين اليدين والرجلين، ثم أدخلوني خيمة وأجلسوني على الأرض. جاءني أحد جنودهم وبدأ الاستجواب بالطريقة الروتينية: من أنت؟ وما اسمك؟ ومن أي البلاد؟ وما تاريخ ميلادك؟ وأين وُلدت؟ ومتى أتيت

إلى أفغانستان؟ وكان معه مترجم يتحدث اللهجة المصرية.

استمرَّ التحقيق معي نصف ساعة، وسألني المحقق السؤال نفسه عن تصوير ابن لادن، ورددت الردود نفسها، بعد ذلك أغلق الملف، وقال لي: في هذا المكان لا ينفعك ربك ولا ينفعك أحد سوى أن تقول الحقيقة، وإلا فستدفن في المكان الذي تجلس فيه هكذا!! ثم تركني وذهب، فجاء الجنود واقتادوني بعد أن وضعوا الغطاء الأسود على رأسي وعصبوا عيني. اقتادوني مُطأطِئَ الرأس بفعل القيد، يكاد رأسي يلامس ركبتي. وكل واحد منهم يمسك بالقيد ضاغطاً إحدى ذراعيَّ، إلى أن أوصلوني إلى مكان كنت أسمع فيه أصواتاً عربيةً تتكلم فأتعجب لذلك!

فتحوا باباً وبطحوني أرضاً وسحبوا الغطاء الذي كانوا يضعونه على رأسي وفكوا القيد من يدي ورجلي، وأمروني بألا أتحرك، وبحركة سريعة انسحبوا إلى الخارج. كان أحدهم ينتظر عند الباب فخرجوا سراعاً وأغلقوا الباب من الخارج. سمعت أصواتاً تقول لي: انهض فنهضت، وتلفَّتُّ يميناً ويساراً، فوجدت نفسي في خيمة كبيرة أُقيم حولها سياج مضاعف وتتسع لنحو عشرين شخصاً. وجدت هناك بعض العرب المعتقلين، فحييتهم وتحركت تجاههم. احتضنوني في لحظة كنت فيها منفعلاً فاحتضنتهم، بكيتُ وبكينا جميعاً، وبعدها أحضروا لنا ماء للشرب.



الفصل الثاني عشر

عاد الطائر من دورتيه الواسعتين في الهواء، حلق هنيهةً، ثم عـــاد وحطّ على إفريز النافذة، غنّى؛ وعلى نحو ما بدا ثمة جرح يغـــور في حلقه الظامئ الصغير، لكن الليل الذي تقدم دفع رطوبة الخليج لتنثال على منقاره مثلما دفع الجو للاعتدال. فمـــلأت صـــدري بـــالهواء، وكتبت: كان الجو في قندهار أفضل نسبيًّا منه في باغرام؛ ففي النهار تكون الشمس ساطعة.

وبعد العناق الحار بدأ الإخوة المعتقلون يســـاعدونني في عـــلاج ركبتي والتورم الذي حدث لرجلي بسبب البرد والقيد، وســـاعدوني على الحركة في الخيمة. بعد ذلك بدأنا بالتعارف، وشرْح طبيعة المكان الذي نحن فيه، وتوزيع الخيام التي توجد حولنا، وأخبروني بما يعرفونه عن المعتقل والموجودين فيه. شرحوا لي طبيعة نظام المعتقل، فعرفـــت أننا في سجن قرب مطار قندهار، وكنا نســـمع إقـــلاع الطـــائرات وهبوطها بوضوح.

كان المعتقلون موزعين على خيام، كل ثلاث منها تنتظم في خط مستقيم، وبعض هذه الخيام كان لا يزال فارغاً حتى لحظة دخولي. هنا في هذا المكان يُسمح بالحركة لثلاثة أشخاص فقط، ولهم أن يتحدثوا، على أن يجلس الباقون الموجودون معي في الخيمة من دون حركة.

وفي الخيمة أولئك الأشخاص الذين حضروا معي من باغرام. تعرفت إلى السعوديين اللذين التقيتُ بهما في السجن العسكري بباكستان، كما تعرفت إلى الأشخاص الذين حضروا معي من شمن في الحافلة يوم ترحيلي إلى كويتا. أما البقية فعرَّفوا بأنفسهم. ومن حينٍ لآخر، كانوا يأتون بأشخاص جدد للانضمام إلينا في خيمتنا، وكان علينا متى فتحوا الباب أن نذهب إلى آخر زاوية في الخيمة وننتظم في صف واحد جاثين على ركبنا وأيدينا مشبكة فوق رؤوسنا.

كانت تحركاتنا داخل الخيمة مرصودة من جندي ينظر إلينا من خارج الشبك المضاعف المفروض على الخيمة، كما كان هناك جنود على أبراج يراقبون كل حركة داخل المخيم.

حضر جنود ونادوا على رقمي، وطلبوا من باقي المعتقلين الانتقال إلى جهة أخرى من الخيمة، قبل أن ينقلوني إلى خيمة أخرى التقيتُ فيها ببحريني يسمى المرباطي، سلَّم عليَّ وقال إنه في هذه الخيمة منذ ثلاثة أيام، وشرح لي القوانين التي شرحها لي المعتقلون في الخيمة السابقة، ومنها أنه يُمنع التستر وقت قضاء الحاجة، وأن لي بطانيتين ووجبتين يوميًّا إحداهما في منتصف النهار والأخرى في منتصف الليل.

بُعيْد حضوري، دخل معتقلان أفغانيان. في تلك الليلة، وعند منتصف الليل قدموا لنا إحدى الوجبتين، وكانت الوجبة الثانية عند منتصف الظهيرة في اليوم الذي يليه. قبل توزيع الطعام يُنادي الحراس على الأرقام للتأكد من حضور الجميع. ونصطفُّ أمام جنديٍّ مُحاطٍ بزملائه، ثم ينادي على رقم كل واحد على حدة، فيردُّ بذكر رقمه

ويدير ظهره ليقرأ منه الجندي الآمرُ الرقم، ثم ينصـــرف المنـــادَى إلى خيمته. وبعد إتمام تلك الإجراءات المشددة يُوزَّع الطعام على المعتقلين بأن يوضع أمام كل خيمة وجبات بعدد الموجودين فيها. وخلال ربع ساعة بالضبط يجب أن تكون قد أكملت تناول الوجبة الـــتي بـــين يديك؛ إذ سرعان ما يقوم الجنود بجمع الصحون أو سحبها عنوةً ممن لم يكمل تناول طعامه في الوقت المحدد، كما يقضي النظام الصـــارم هناك بعدم السماح للمعتقلين بالاحتفاظ بالطعام.

كانت تلك الليلة ممطرة شديدة البرودة، وكنا نشـــعر بـــالجوع والبحث الفطري عن الدفء، دفء المنزل والأغطية، ولكن أين نحن من تلك الأحلام التي يبددها ذلك السياج وذلك النبـــاح المتقطـــع وحركة الجنود والحراسة المشددة؟! كنت جائعاً ظمآنَ مرهقاً أرتجف من البرد وأمعائي تتضور جوعاً، دفعني ذلك لانتقاء بعض ما حوتـــه الوجبة وأكله بسرعة، وشجعني الشاب البحريني المرباطي على الأكل، فتجاذبت معه أطراف الحديث. حكى لي كيف أنه قَدِم من باكستان التي تعرض فيها لحادث، وكان في سياحة دعوية مع جماعة التبليـــغ. ومع انطلاق الحرب على أفغانستان، اعتقلته السلطات الباكســـتانية وسلّمته غدراً إلى القوات الأميركية، وكان يتحدث الإنجليزية بطلاقة. سألني عن قصتي، وحدثته عن عملي وظـــروف اعتقـــالي، ثم أخـــذ ينصحني بكيفية التعامل مع الأميركيين، فهو قد سافر مـــن قبـــلُ إلى أميركا وتعامل مع الأميركيين الموجودين في البحرين على حدِّ قوله.

نصحني بمحاولة كسب عقول الأميركيين، وبـــيَّن لي كيـــف أغضب ومتى أبتسم ومتى أتسامح وهكذا. وبينما نحـــن نتجـــاذب أطراف الحديث نادى عليه أحد الجنود: لماذا لم تنظفوا هذه الخيمة؟ ثم

أمره بأن يجلس على ركبتيه وأن يرفع يديه فوق رأسه. ولحسن حظه أن الجندي لم يزد مدة العقوبة تلك على ساعة.

يَحدُث أن يأمرك أحدهم بذلك فتبقى ساعات، وقد تتغير الوردية فلا يبالون ولا يُنهي مدة العقاب إلا من أمر به!

بعد أن نال المرباطي عقابه، قال لي: كأن الله أراد أن يُثنيك عمَّا نصحتُك به، فهؤلاء الرعاع لا ينفع معهم عقل ولا منطق، ويبدو أنني كنت مخطئاً فعلاً في محاولة كسب عقولهم.

قضيت معه تلك الليلة، وفي منتصف الليلة الثانية تقريباً حضر الجنود ونادوا على رقمي، وأخذوني إلى خيمة أخرى وجدت فيها تسعة معتقلين من العرب وثلاثة باكستانيين.

تعرفت إلى العرب، أحدهم يَمنيٌّ والباقون سعوديون، وكان من بينهم ماجد الفريح من مكة الذي قدم معي من شمن ولكن سرعان ما افترقنا. كان ماجد الفريح شابًّا صغيراً لا يتجاوز الثامنة عشرة، سألته عن قصته، فقال إنه قدم إلى باكستان هو الآخر مع جماعة التبليغ والدعوة، وكانوا يتنقلون بين القرى كعادتهم، فاعتقلته الشرطة الباكستانية ومن معه بُعيْد اندلاع الحرب وسلمته للأميركيين بعد أن صادرت أمواله وأوراقه. وقد سأل الأميركيين عن جوازه، فقالوا له: إن الباكستانيين لم يسلموهم أية وثيقة.

كان في الخيمة المجاورة لنا مغاربة وتونسيون. كانت هناك جنسيات متعددة ولغات وسحنات مختلفة جمعها الابتلاء، ووحَّدها القهر والظلم، ويجمع بينها الإسلام كذلك. والمؤسف أن بعض الباكستانيين ممن سال لعابهم للمال وباعوا ضمائرهم لقوى البطش والبغي، سلَّموا هؤلاء بعد أن أخذوا حفنة دراهم جرَّاء تلك الخيانة.

في قندهار يُعطَى السجين وجبةً ثالثة هي عبارة عن رغيف خبز عند السادسة مساءً يُسلَّم بعد المراسيم المهينة التي أسلفت. وكانت رجلاي منتفختين وركبتاي تؤلمانني ألماً شديداً، وكنت لا أستطيع القيام إلا بصعوبة. وكان الجنود الذين انعدم فيهم الحس ومات لديهم الضمير ينادون على أرقامنا، ومن لا يجيبهم يشبعونه ضرباً وركلاً! فكنت أتحاشى ذلك ما استطعت، وكانوا يقومون بحملات تفتيش مفاجئة بين الفينة والأخرى خصوصاً في منتصف الليل.

في أيامنا الأولى حَضَرَتْ لزيارتنا بعثةٌ من الصليب الأحمر، وكان أحدهم يتحدث الفرنسية فطلب أن يتحدث معه أحدنا بالفرنسية حتى لا يتابع الجندي الأميركي حديثه وتوجيهاته ونصائحه.

كان من بيننا جزائري قضى كل حياته في فرنسا ولكنه لا يعرف من العربية شيئاً، ضيع علينا الفرصة وتحدث المتحدث الآخر بالإنجليزية. شرحنا له وضع معتقل قندهار وحقوقنا التي يحرموننا منها. وبيَّن لنا من جهته أنهم سيأخذون عناويننا ويسلموننا أوراقاً لكتابة رسائل إن شئنا، كما أوضح لنا أنه لا يوجد حتى الآن نظام للمعتقلين، وأن الوضع القائم هو جمعهم وتكديسهم في هذه المعتقلات، وأن الصليب الأحمر يريد أن يسمع منّا ويعرف أحوالنا.

تحمست للحديث معه وأخبرته بما عانيناه من ظلم وضرب وتنكيل وذل وتجويع، وطلبت منه أوراقاً لكتابة رسالتين إحداهما لزوجتي والأخرى لقناة الجزيرة. وفضلاً عن ذلك شجعت السعوديين الذين كانوا معي للحديث عن وضعيتهم للصليب الأحمر، خصوصاً

ما وقع من انتهاكات كمنعنا من الاغتسال والوضوء، مع أنهم كانوا يسمحون لنا بالصلاة.

ذكرت له التفتيش العشوائي منتصف الليل والوضع المهين للمعتقل عندما يبدؤون تفتيشه أو عقابه، وذلك بإلزامه بالجلوس جاثياً ووضع يديه على رأسه وما يصاحب ذلك من سب وشتم وضرب بالأيدي وأعقاب البنادق. وفوق كل ذلك كانوا يركلون المصاحف التي كان الصليب الأحمر قد أحضر منها خمس نسخ باكستانية لكل خيمة، فكانوا يفتشونها بشكل مهين ويرمونها ويمزقون البطانيات والأغطية، فضلاً عن الضرب الدائم بلا سبب.

كانوا يتعمدون ضرب ضعاف البنى ذوي الأجسام الضاوية النحيفة من صغار السن والمتقدمين في العمر إمعاناً في الإذلال والإهانة، فيمزقون ثيابنا وإن طلبنا منهم ثياباً بديلة رفضوا ذلك. كان أسوأ ما في قندهار هو النداء على الأرقام والصفوف التي تلي ذلك في فترات مختلفة من ليل الشتاء القارس، وما يتبعها من عنجهية وصلف، على من؟ على معتقلين عُزَّل مقهورين!

جاء الصيف بحرِّه الشديد الذي ما كان يقل فظاعةً عن زمهرير الشتاء، واستمرت فيه مسلسلات الانتهاكات والتمادي في إذلالنا وترهيبنا وتعذيبنا، إذ كانوا ينادون على الأرقام عند منتصف النهار إمعاناً في التعذيب والترهيب!

بعثت بعدة رسائل في تلك الفترة من قندهار إلى قناة الجزيرة وإلى زوجتي، ولكنني لم أتسلم أي رد، وكان جواب بعثة الصليب كلما سألناهم عن الردود أنهم لم يتسلموا أيَّ رد!! ولكن ذلك لم

يقلّل من عزيمتي وكنت قد بعثت بأربع رسائل استوفيت فيها كل المعلومات المطلوبة.

على مدى أربعة أشهر لم يُسمح لنا بالاغتسال لا تطهراً ولا تنظيفاً. كانوا يزودوننا بقوارير ماء للشرب فقط، فران علينا الوسخ وانتشر القمل في ملابسنا وشعورنا وأجسادنا، ولن أنسى المعاناة والأمراض والضعف، ثم الذل والهوان اللذين كانا يلازماننا طوال اليوم.

ولقلة الحركة، ضعفت أجسامنا وانتشر بيننا الإغماء، فكانوا يأخذون من يُغمى عليه إلى خيمة يسموها العيادة، ويتعاملون معه بغلظة فيعطونه فيتامينات ومقويات، وأحياناً تُعطَى له الحقنة خارج الوريد فيتألم ولا يبالون بمعاناته! فانتشرت بيننا أمراض فقر الدم وسوء التغذية بالطبع.

وإنْ أَنْسَ لا أنسى الجنود وهم يمزقون المصاحف ويرموها ويركلوها في أوقات التفتيش، ولن أنسى اعتداءاقم على صغار السن الضاوين المرهقين. أذكر ذلك المسن الأفغاني، كان جسمه ممتلئاً وكانت الملابس على غير قياسه، كانت تتمزق وكان يربطها بخيط على خصره، قالوا: إنه يريد بذلك الخيط قتالهم فخنقوه به حتى بقيت آثاره في رقبته وأغمي عليه.

كنت أتحدث مع هذا الشيخ الأفغاني عبر مترجم، وأفهمني أنه من بدوٍ يقيمون على الحدود مع باكستان وأن الأميركيين هجموا عليهم واعتقلوهم، وأن ابنه وبعض إخوانه وأقاربه في خيمة أخرى بتهمة هريب العرب من أفغانستان إلى باكستان، والرجل يقسم أنه لا يعرف عرباً ولا غيرهم، وأنه أُمِّيٌّ لا يفقه ما يتحدث به الناس. كان

لا يعرف كيفية الصلاة، فكنا نعلمه كيف يؤديها بصورة صـــحيحة. وكان لا يقيم الشعائر ولا يعرف شيئاً عن الدين، و لم يشفع له كـــل ذلك!

وبعد فترة من التعذيب والتحقيق تبيَّن لهم أنه بريء، فـــأخرجوه هو وعائلته بعد ثلاثة أشهر من العذاب، غير أنه تعلم خلالها الفاتحـــة وبعض قصار السور، وصار يعرف كيف تُؤدَّى الصلاة ونحو ذلك.

اكتملت المأساة حينما أخبرنا موظفو الصليب الأحمر أن أولئك البُرآء عادوا فوجدوا قريتهم قد أضحت أثراً بعد عين؛ إذ هجمـــت عليها الطائرات الأميركية وتركتها قاعاً صفصفاً، هدمت مبانيها على رؤوس النساء والولدان والعجزة ممن لا حول لهم ولا قوة.

كان التفتيش المفاجئ يتكرَّر كثيراً، وكانوا يقومون باقتحامات تدريبية يتصورون من خلالها أن تمرداً وقع داخل الســـجن وعلـــيهم إخماده، فتقتحم سيارات الهامر والمدرعات الصغيرة الأخرى المعسكر، ويدخل الجنود مدججين بالسلاح على أنغام الموسيقى العالية وهـــم يلبسون واقيات ويقتحمون إحدى الخيام، ويحيطون بالخيام الأخرى. كانوا يركزون في هذا التدريب على الخيمة التي يوجد فيها مرضى أو جرحى! كان من ضمن سلسلة الحروب النفسية ضد السجناء العزل في قندهار رفع الصليب عالياً فوق الأبـــراج، واســـتفزاز الســـجناء بجنديات مائعات يتلفظن بألفاظ فاحشة، ويتندرن بكلام بذيء إمعاناً في الإهانة والتعذيب النفسي.

التحقيقات في قندهار كانت أكثر دقة من بـــاغرام، إذ كانـــت طويلة ومتشعبة، وكانت تستمر ساعات طويلة تتكرر فيها الأســـئلة وتتعدد صيغها. وأذكر أهم حققوا معي بعد حضوري ثم اســـتدعوني

مرة ثانية بعد أسبوعين، سألني المحقق في الجلستين عن حياتي كلها.

يأتي الجنود لأخذ المعتقل للتحقيق معه، فيأمرون جميع من في الخيمة قبل دخولها بالاصطفاف على جانب منها، جاثين على ركبهم وأيديهم فوق رؤوسهم، تحت مراقبة أحد الجنود، ثم ينادون على رقم المعتقل، فيتجه إلى الجانب الآخر من الخيمة وينبطح على الأرض وجهه إليها ويداه وراء ظهره، على بعد ثلاثة أمتار تقريباً من باب الخيمة الذي يفتحه جندي ويدلف منه اثنان بسرعة، يقفز أحدهما على ظهر ذلك المعتقل ويثبت إحدى ركبتيه على ظهر المعتقل ويقيِّد يديه من الخلف، في حين يقوم الجندي الآخر بتقييد رجلي المعتقل بقيد من حديد، ثم يضعان على رأسه غطاءً أسود معتماً، ويوقفانه مُطأطِئ الرأس كأنه يتهيأ للركوع. بعدها يقوم كل من الجنديين بإدخال يده في يد المعتقل التي تليه ويمسك أحدهما برقبته ويضغط عليها، قبل أن يقتاداه خارج الخيمة، لِيُغلَقَ الباب من جديد. ويتجهان به هرولةً إلى خيمة مُعدَّة للتحقيق، مروراً ببعض الخيام التي يوجد فيها معتقلون، أو تلك التي تُستخدم لأغراض أخرى كالطبخ ونحوه. وإمعاناً في التعذيب يمرون بالمعتقل على قيعان الماء والحفر والحجارة حتى يتأذى أكثر، وحين يدخل الخيمة التي يكون سقف بابها منخفضاً كالعادة، ومن دون أن يُنبَّه المعتقل لذلك، يرتطم رأسه بالحائط أعلى الباب، وقد تم تدبير الأمر عن عمد.

فور دخولك الخيمة تُبطَح على الأرض ويبقى الكيس على رأسك وبجوارك أحد الجنود، ثم يتقدم المحقق ومعه مترجم، فيُجلسونك ويكون المترجم والمحقّق على بعد مترين وأقربهما إليك جلوساً المترجم. يرفع أحد الجنود غطاء الرأس عنك ويبدأ سيل

الأسئلة التي تتناول جميع تفاصيل حياتك وبطريقة مُملّة. حقّق هؤلاء معي أربع مرات أو خمساً.

لا توقيت لتلك التحقيقات، فقد تكون في منتصف النهار وقد تكون في الصباح الباكر، وبعضها في منتصف الليل وهو أكثر الأوقات إزعاجاً وإرهاقاً. يدخلون متى شاؤوا فينادون على صاحب الرقم، فيصطف المعتقلون المساكين على الطريقة سالفة الذكر، ويتم اقتياد المعتقل بالطريقة البشعة والمهينة التي ذكرتها من قبل.

المعسكر عبارة عن حوش كبير تُسلّط عليه أضواء قوية على كل خيمة بدءاً من صلاة العصر، وعادة ما يكون الجو في غاية البرودة. كنت حافي القدمين لأن الحذاء الذي أعطوه لي كان أصغر من مقاس رجلي المنتفخة بسبب أمراض الرطوبة التي استفحلت بسبب البرد. فكان أخذي في مثل ذلك الوقت حافياً أتعثر في المياه الباردة في ذلك الجو القارس الكئيب يزيد من معاناتي وألمي، وكنت عندما أرجع إلى الخيمة أرتجف من البرد وأعاني آلاماً مبرحة فلا يغمض لي جفن طوال الليل.

الفصل الثالث عشر

وأعود لأغرق في وحدتي يتناهى إلى أذنيّ غناء طير الليل الجريح، أشعر كأن غناءه الضارع الحزين أَحْرُفُ عزاءٍ ينثرها من أجلي، لكأنه كان معي طوال تلك الرحلة الطويلة، رحلة العذاب والضنى...

وخَفَتَ الغناء لا لأن الطائر رفيق الليلة يبتعد، وإنما لأنه يقترب لنبقى معاً عند شطِّ الخليج العربي مؤرَّقِين بذكرى خليج آخر، خليج غوانتانامو الذي صرخ أحد الصحفيين البريطانيين أثناء زيارته له قائلاً: "ما هذا المكان بحق الجحيم؟".

كان حقًّا جحيماً تستعر فيه ألسنة الكراهية، وتتخلق رؤوس اللهب فيه ومنه إلى وجوه بشرية بشعة، ورؤوس كلاب تعمل على حراستنا ليلاً ونهاراً، تسومنا سوءَ العذاب وتذيقنا مُرَّ الهوان.

نحن سجناء غوانتانامو تم احتجازنا بلا سبب، فقط لأننا كنَّا في باكستان وأفغانستان عند بدء الحرب الأميركية على أفغانستان، نُقِلنا على نحو غير إنساني مكبَّلين بالسلاسل، مغمضي العيون، مسدودي الآذان على متن طائرات (C17) العسكرية في رحلة تستغرق سبعاً وعشرين ساعة، لنُرمَى في زنزانات فولاذية مكشوفة أرضها إسمنتية خرسانية صلبة، فيما كان يسمى آنذاك بأشعة إكس، والذي تم تحويله

فيما بعد إلى معتقل دلتا، لنعيش حلقات مسلسل طويل من الإهانة والإذلال والتعذيب.

وطارت طيور الليل العربي تغني، يتناهى غناؤها إلى أذنيَّ مع الحفيف البعيد لموج الخليج، خليج قريب لا ينفك يذكّر بصدى لأمواج خليج بعيد. كل شيء في هذه الليلة يبدو جارحاً كنصل من حديد يقطّع ثنايا وطيّات الذاكرة، يقطّع حنايا الفؤاد.

هل ذقتم العُري مع ضغط القيد وخشونة الأرض الصلبة؟

هل جرَّبتم الحرمان من النوم لياليَ متصلةً تحوِّل الساعات كابوساً متواصلاً تتحرك فيه النفس والمرئيات مثل أشباح تتوالد أشباحاً لدرجة أن يصبح الجنون أمنية ونافذة للخلاص؟

نباح الكلاب الشرسة.. هجومُها.. استغاثاتُ المعذَّبين جسديًّا ونفسيًّا...

يا إلهي، كيف استطعتُ تَحَمُّل ذلك العذاب!؟ أوَترى تذْكُرني الآن الزنزانة التي استقبلتني فور وصولي، الزنزانة رقم (40) من عنبر ليما (L) في المعسكر الثاني.

لقد كان في غوانتانامو معسكران: 1 و2، يبعد الأول عن الثاني مسافة مئة متر، ويضم ثمانية عنابر، هي: ألفا (A)، وبرافو (B)، وتشارلي (C)، وهوتيل (H)، وغولف (G)، وإيكو (E)، ودلتا (D)، فضلاً عن عنبر إنديا (i) السيئ الصِّيت.

أما المعسكر الثاني فكان يضم خمسة عنابر، هي: كيلو (K)، وليما (L)، ومايك (M)، ونوفمبر (N)، وأوسكار (O).

وكما ذكرت؛ ففي المعسكر الأول: عنبر إنديا (i) المخصَّص للعقوبات، وهو عبارة عن زنازين حاويات مفتوحة مقسمة بأعمدة

من الفولاذ والحديد، مساحة الواحدة منها متران في متر ونصف متر طولاً وعرضاً، وبداخلها مغسلة حديدية مثبت إلى جوارها سرير حديدي مثبت هو الآخر بأرضية الزنزانة، وبين المغسلة والسرير فتحة صغيرة نستخدمها لقضاء الحاجة.

ليس في الزنزانة أثاث، كل ما هناك قارورة ماء تُستبدَل كل شهر، ومعها كوب خفيف من الفلين، وَمَرْتَبَة وحصيرة بلاستيك بسيطة كنا نستخدمها للصلاة ونستتر بها عند قضاء الحاجة.

وحين يكون السجّان راضياً عني، فقد يُنعم عليَّ بشرشف واحد وبطانيتين ومنشفتين عاديتين وأخرى صغيرة لليدين، وصابونة صغيرة ومعجون أسنان وفرشاة؛ المعجون عبارة عن سائل أقرب إلى الماء، بينما الفرشاة صغيرة جدًّا تُركَّب على الأصبع حتى أستطيع تمريرها على أسناني. هذه هي الأشياء التي قد تكون بحوزتي إذا رضي الحراس، هي كل ما أملك في مكان يئزُّ فيه الشقاء أزًّا، ويجهد القائمون عليه في جعلك لا تشعر بالتقزز منه وإنما من نفسك، من مكابدة أوساخك على نحو بعيد عن التحضر وعن أبسط قواعد النظافة البدنية. وبالحرص على فرض هذا المزاج المنحرف، يأمل الحراس والجنود أن تتوفر لهم فرص أفضل للترقي، لكن الترقي في ماذا؟ في السادية التي تصل إلى حدِّ القتل؟

أوساخ البدن تنقضي لا محالة، ولو في أحشاء الأرض وأفواه الديدان. لكن، ماذا عن قذارة الروح! فبدَمٍ بارد، يقتل الإنسان أخاه الإنسان، بعد أن يعذبه، ثم يمزق جثته ويرسلها في صندوق إلى والده!!

نعم، لقد حدث ما قد يجعل الحديث عن شأن نظافة البدن ضرباً من الترف، ففي التاسع من يونيو/حزيران عام 2006 عُثر على ثلاثة من السجناء ميتين في قسم كامب دلتا، هم: صلاح أحمد السلامي، ومانع بن شامان العتيبي، وياسر طلال الزهراني في ظروف مثيرة للعجب؛ كلٌّ معلّقٌ في زنزانته، ويداه مقيدتان وقدماه كذلك، وقطعة قماش محشوة في فمه، ولم يتم اكتشاف جثثهم إلا بعد ساعتين على الرغم من أن زنازين المعتقلين كانت دائماً تحت المراقبة الشديدة، حراس يحومون حولها على مدار الساعة، وكاميرات تسجل كل حركة لهم.

وفي محاولة لشرح ما جرى في كامب دلتا، قال الأدميرال هاري هاريس، مسؤول المعتقل في حينه: إنه لا يعتقد أن يكون سبب الانتحار "ناجماً عن حالة من اليأس"، ولكنه كان "فعلاً من أفعال الحرب غير المتناسقة".

كان الثلاثة قبل العثور على جثثهم معتقلين في قسم اسمه "ألفا" حيث كانوا قبل وفاتهم قد أضربوا عن الطعام احتجاجاً على الظروف السيئة.

قبلت وسائل الإعلام آنذاك تبرير الأدميرال هاريس ونسيت قصة الثلاثة وأُغلق الملف عند هذا البيان، ولم تتخذ سلطات السجن أي إجراءات ضبط أو عقوبات ضد الحرس الذين أهملوا واجباتهم في ليلة الوفاة. وبعد عامين فتحت وحدة التحقيقات الجنائية في البحرية الأميركية تحقيقاً في الحادث. وأكد التحقيق في النهاية رواية قائد السجن، ورفضت وزارة الدفاع "البنتاغون" الكشف عن محتويات التقرير، وعندما حصلت كلية القانون في جامعة ساتون هول في

نيوجيرسي على التقرير والوثائق المتعلقة بالتحقيق بموجب قانون حرية المعلومات، كان البنتاغون قد أخفى الكثير من محتوياته وشطب باللون الأحمر بعض ما ورد في وثائقه البالغ عددها ألفاً وسبعمئة وثيقة، لدرجة جعلت من محاولة قراءة التقرير أمراً شبه مستحيل، لكن طلاب الكلية بإشراف أساتذهم فكُّوا شفرات التقرير، وأصدرت الكلية تقريرا مفصَّلاً، في ديسمبر/كانون الأول عام 2009، تحت عنوان "موت في كامب دلتا"، وأظهر التقرير ما شاب تحقيق دائرة التحقيقات الجنائية في البحرية الأميركية حول الحادث من مظاهر القصور، وتَبيَّن أن تحقيق البحرية كان "يطرح أسئلة أكثر من تقديم إجابات". كما أن الطريقة التي أعادت فيها الوحدة تركيب الأحداث لا تُصدَّق؛ فالأسلوب الذي وصف به التحقيق الطريقة التي "قتل فيها المعتقلون أنفسهم" كان غريباً ويعطي صورة أن المعتقلين فكروا في كل صغيرة وكبيرة للانتحار من ناحية صناعة حبل المشنقة من قمصانهم، ومن ناحية حشو خرق في أفواههم حتى وصلت إلى آخر حناجرهم وأغلقت بلعوم كل واحد منهم، ومن ثم صعدوا إلى مغسلة الزنزانة وانزلقوا كي يحكم الحبل خناقه عليهم، وذلك حسب التقرير.

وفي تقرير آخر توصل هاريس (مسؤول المعتقل) إلى أن الحرس انتهكوا معايير الانضباط، ولكنه لم يوصِ باتخاذ أي إجراءات عقابية ضدهم. وبعد الحادث طلبت سلطات الأمن من الجنود الأربعة الذين كانوا مكلفين بحراسة القسم عدم التحدث، بل التغطية على الحادث.

وأحد هؤلاء كان الرقيب جوزيف هيكمان الذي تحدث إلى المحرِّر المشارك في مجلة "هاربر"، سكوت هورتون، ونشر مقالاً بناءً على شهادته في المجلة، في 18 يناير/كانون الثاني عام 2010، فقد

أكدت رواية هيكمان وجود معسكر تحقيق "غير موجود" يُستَخدَم للتحقيق مع المعتقلين، وهو المعتقل الذي أطلق عليه هيكمان ورفاقه بسخرية: "كامب نو"، وذلك لأنه طُلب منهم أن يردوا بـ "لا" على أي شخص يسأل إن كان الموقع موجوداً. وتُظهر الصور الفضائية المتعلقة بالمعسكر مكاناً يوافق وصف هيكمان، ويقول الأخير إنه ورفيقاً له يُدعى توني ديلفا كانا يتوقفان عند الموقع كلما حانت فرصة لهما، وفي واحدة من المرات سمعوا صياحاً متكرراً منبعثاً من داخله، ما يشير إلى أن شخصاً أو أشخاصاً كانوا يُعذّبون.

ويقدِّم التقرير الصحفي تفاصيل مهمة عن حركة سيارة من الكامب غير الموجود إلى بقية الأقسام والتحركات المشبوهة في ليلة الحادث؛ حيث راقب هيكمان من برج المراقبة عمليات نقل معتقلين إلى "كامب نو". وينقل عن والد ياسر الزهراني، طلال، قوله إن ابنه اختطفته جماعة من جماعات أفغانستان وباعته للأميركيين، حيث سُجن في غوانتانامو وعُذّب خمسة أعوام، ثم "أعادوه إليَّ في صندوق مقطَّعاً"، ورفض طلال الذي كان عميداً سابقاً في الشرطة السعودية رواية البنتاغون التي قالت: إنَّ ياسر كان عندما اعتُقل على الخطوط الأولى من الجبهة، وإنه كان طباخاً لطالبان، معلقاً بأنَّ ابنه الذي كان يحب كرة القدم لم يكن يعرف أن يصنع "ساندويتش". والأدهى من ذلك أن الأطباء الشرعيين الذين شرَّحوا الجثة قاموا بإزالة أعضاء من جسم الزهراني دون إذن من العائلة لإخفاء معالم الجريمة.

طلال الزهراني الذي نُكّل بابنه يقول: إنَّ ما يهم هو الحقيقة، مؤكّداً أن الأميركيين عذبوا واعتقلوا وقتلوا ياسر و لم يحصلوا على أي معلومات منه أو من الآخرين، و لم يحققوا في النهاية أي شيء.

وعليه، فإن ملف وفاة الثلاثة في ظروف غامضة لا يزال مفتوحاً، فلم يكن انتحاراً بل كانت الأدلة والشهادات تطرح أسئلة أخرى.

في 13 يونيو/حزيران عام 2011، قدَّم مركز الحقوق الدستورية في نيويورك استئنافاً لدى محكمة الاستئناف في واشنطن دي سي فيما عُرفت بقضية "الزهراني ضد رامسفيلد".

قصة مفزعة وإن كان لِشيءٍ أن يبعث على التقزز، فليس هناك ما هو أجدر من ذلك.

أعود وأقول: إنني على كل حال دخلت عنبر الزنازين رقم 40 لأجد نفسي مع أفغانٍ هُم ضحايا الجرائم التي ارتكبتها القوات الأميركية في حق الشعب الأفغاني بمساعدة قوات حليفها رشيد دوستم.

إن عمليات الاعتقال التي كانت تتم في أفغانستان بواسطة قوات الجنرال دوستم عندما بدأ القصف الجوي الأميركي، اتخذت صورة عشوائية؛ الأمر الذي جعل الآلاف من الأهالي الفارِّين من القصف الأميركي، ممن لا علاقة لهم بطالبان أو القاعدة، يقعون في سجن شيبارغان التابع لقوات دوستم. أخبروني عن تعرُّضهم لظروف مروِّعة؛ حيث كانت مباني السجن لا تحميهم من الظروف الجوية القاسية؛ كان الثلج ينهمر عليهم، علاوة على كثافة أعداد السجناء في الزنزانة الواحدة، وقلة الطعام والمياه، حيث لم يكن نصيب كل سجين من الطعام يتجاوز ربع رغيف مع فنجان ماء صغير؛ وكان بين السجناء مصابون إصاباتٍ مريعة كأطراف ممزقة، وجراحات نافذة، ولم يجدوا من يقدم لهم أي علاج، وظلوا يعانون الآلام إلى أن قضى كثير منهم بسبب إصابته.

وانتشرت المقابر الجماعية في كثير من المدن الأفغانية لدفن آلاف الجثث، لأُناسٍ لقوا حتفهم جرَّاء القصف الجوي الأميركي، والقصف المدفعي لقواتٍ دستم، أو المعاناة الشديدة داخل سجن شـــيبارغان؛ وهو ما أكده وليم هاغلند مسؤول الأمم المتحدة للطب الشـــرعي، الذي كشف عن مقابر جماعية، واستخرج من إحداها ثلاث جثـــث قام بتشريحها، وأرجع سبب الوفاة إلى الاختناق؛ وقال: "كان مـــن المستحيل إحصاء عدد الجثث التي احتواها ذلك القبر الجماعي، ولكن الرقم قد يُقدَّر بالآلاف"، وأشار كذلك إلى قيام قوات دوستم بتسليم أو بالأحرى بيْع مَنْ قُبِض عليهم من الأهالي إلى القوات الأميركيـــة، والحصول على خمسمئة دولار مقابل كل أسير؛ بعد إقناع الأميركيين بأن أولئك الأسرى من مقاتلي طالبان أو تنظيم القاعدة، لضمان إتمام الصفقة، ليتم تقييدهم بالسلاسل وإيـــداعهم في ســـجن القـــوات الأميركية في قندهار، واستجوابهم وهم جاثون على ركبهم والأسلحة موجهة إلى رؤوسهم، مع توجيه اللكمات والركلات إلى أجسادهم.

نُقِل الأسرى بعد استجوابهم في قندهار وباغرام إلى معتقل أشعة إكس ("دلتا – إكس" فيما بعد) بغوانتانامو لمواصلة التعذيب والإهانة والإذلال المخالف لكلِّ القوانين والأعراف الدولية، وخصوصاً اتفاقية جنيف الثالثة لحقوق الأسرى لعام 1949، والتي تُجرِّم كل مـــا وقـــع هناك.

بقيت مع السجناء الأفغان في عنبر 40 قرابة أربعة أشهر، مـــن يونيو/حزيران إلى أكتوبر/تشرين الأول، وما كنت أبرح تلك الزنزانة إلا للتحقيق.

الفصل الرابع عشر

ضرب الطائر جناحيه ونزف وقد عاود الغناء فيما أناجيه، أسأله وأُلِحُّ متسائلاً: أيها الطائر الليلي ماذا عن الليل؟ الليل الذي قد سال عليَّ فابتلعته كما تبتلع السوائل.

ثمَّة أناسٌ في هذا العالم كُتب عليهم العذاب، فيما كتب على آخرين أن يكونوا معذِّبيهم.. أناسٌ بشعون، يجيدون التدمير، ولا يعرفون البناء.. إنهم ساديون، مرضى، لا يشعرون بالسعادة والنشوة إلا عندما يعذبون الآخرين.. لا يشعرون بأنهم أحياء إلا بموت الأبرياء.. إنهم أناسٌ وما هُم بأناس.

في شدَّة الإرهاق والألم، حين كان لساني يعجز عن الكلام كانت عيناي تسألان: يا حارسي، معذبي ماذا عن ليل الإنسان؟!

وإني لأسألك أيها الطائر الليلي السؤال نفسه: ماذا عن الليل: ليل الكائنات؟ الكائنات حينما تصبح وتظلُّ وتُمسي وقد باتت حقلاً لتجارب العذاب، صارت أوعية للميكروبات والحقن المخدِّرة.

وإني لأذكر جيداً أنه في فترة أربعة الأشهر الأولى في الزنزانة 40، جاءنا ذات نهار فريق طبي، نظروا إلينا وقال أحدهم بلا مبالاة: "جئنا لتحصينكم، لتطعيمكم، لتلقيحكم". وعندما أقبل أحدهم وبيده لقاح سألته: "ضد أي مرض هذا؟"، قال: "التيتانوس". فقلت له: أنا

أخذت هذا التطعيم قبل أن أغادر الدوحة، وأخبرني الطبيب الذي قام بتطعيمي بأن ذلك التطعيم صالح لمدة خمس سنوات إلى عشر سنوات، فأنا لا أحتاج إليه، فقال: إنه لـ "التيتانوس" ولا بد من أخذه.

والحقيقة أنني كنت متوجساً من تطعيماتهم تلك، وكنت خائفاً أن يحقنونا بأمراض تؤثّر على صحتنا مستقبلاً، لم أكن أثق بهم، ولكنهم أكدوا أنهم سيُطعِّمون جميع المعتقلين ضد عدد من الأمراض التي ذكروا منها "التيتانوس". واستمروا في إجبارنا على تعاطي أقراص قوية جدًّا لم تتحملها أجسامنا الهزيلة، كانوا يصرون على أنها أقراص للوقاية من الملاريا ومن مرض السل. ومع إصرارهم ازدادت مخاوفي، فقالوا: إن لم تتعاطَ ما نأمرك به عن رضى وطيب خاطر، فستتعاطاه قسراً وكرهاً. قلت لهم: يمكن أن تعطوني إيَّاه بالقوة ولكنني لن أعطيكم يدي حتى تطعِّموني، فقد أخبرتكم بأنني أخذت هذا التطعيم من قبل.

تشاوروا فيما بينهم وتكلموا مع الإدارة، ثم قرروا معاقبتي ثلاثة أيام حرموني فيها من كل الأغراض، ونقلوني إلى زنزانة خالية من كل شيء، حتى الحصيرة البلاستيك الصغيرة التي أستعملها للسترة في الخلاء صادروها.

طلبت الحديث مع المسؤول، فجاءني بعد فترة، وقلت له: "أنتم الآن تمنعونني من الصلاة، فهل الصلاة ممنوعة عندكم هنا؟"، قال: "لا، ليست ممنوعة"، فقلت له: "كيف؟ وأنتم تصادرون منِّي السترة ولا أستطيع الذهاب للخلاء، ولا أستطيع أن أصلّي على الحديد، أحتاج إلى هذه الحصيرة على الأقل". عندئذٍ طلب منِّي مهلة ليتكلم

مع المسؤولين الكبار، فلما عاد قال إنهم لن يعطوني أغراضي بما فيها الحصيرة الصغيرة إلا إذا قبلت التطعيم، فرفضت.

كانت تلك أول عقوبة أُعاقَب بها في غوانتانامو، القاعدة الخاصة للقوات البحرية الأميركية التي تقع على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة الكوبية، وتبلغ مساحتها 55116. كيلو متراً مربعاً من الأراضي والمياه الكوبية، وقد حصلت الولايات المتحدة على هذه القاعدة كغنيمة حرب انتصرت فيها القوات الأميركية على القوات الإسبانية التي كانت تستعمر كوبا عام 1898 حسبما تشير إليه بعض الروايات، فيما تشير رواية أخرى إلى أن سُلطة أميركا على غوانتانامو تعود إلى عام 1903، عندما قبلت كوبا التخلّي عنها لجارتها الصديقة آنذاك كبادرة امتنان من الكوبيين على الدعم الذي قدَّمه الأميركيون لهم أثناء مقاومتهم للمستعمر الإسباني وذلك مقابل إيجار سنوي يبلغ 2000 قطعة ذهبية، تبلغ قيمتها آنذاك 4085 دولاراً أميركيًّا. وبعد انتصار الثورة الكوبية طالب فيدل كاسترو الأميركيين مراراً باستعادة الجزيرة، ورَفَض تسلُّم قيمة إيجارها، إلا أن الأميركيين رفضوا طلب كاسترو استناداً إلى الاتفاقية القديمة، وكانت تلك نقطة خلاف رئيسة بين الدولتين.

وقد حرصت الإدارة الأميركية على جعل غوانتانامو مقرًّا لاعتقال من وصفتهم بالإرهابيين لأهداف سياسية أفصح عنها مسؤول رفيع المستوى في البنتاغون ممن عملوا مع وزير الدفاع الأميركي السابق رامسفيلد بقوله: "جاءت المشورة القانونية بأننا يمكننا فعل ما نشاء بهم هناك، فهم سيكونون خارج الصلاحيات القضائية لأية محكمة". وقد أكَّد الرئيس بوش نفسه ذلك الأمر عندما

أصدر أمراً عسكريًّا رئاسيًّا، في نوفمبر/تشرين الثاني عام 2001، يعلن فيه أن إرهابيِّي القاعدة ستحاكمهم لجان عسكرية خاصة لا تخضع للقيود المفروضة على المحاكم المدنية؛ كما أكَّد أن هؤلاء لن يُعامَلوا كأسرى حرب بل كمقاتلين خارجين على القانون؛ وبذلك أصبحنا مسلوبي الحقوق التي يمنحها القانون الأميركي، لغير المحتجزين في سجون تقع في الأراضي الأميركية، أو القانون الدولي، لأن الرئيس الأميركي لم يعتبرهم أسرى حرب تسري عليهم اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 التي تنص في مادتها السابعة عشرة على حقوق أسرى الحرب ومعاملتهم.

وقد كان هذا الموقف من الإدارة الأميركية تجاه المعتقلين مفاجئاً حتى للأميركيين أنفسهم، لمخالفته القوانين الأميركية والدولية؛ وقد جادل كولن باول إدارته في هذا الخصوص، موضحاً لها مخالفة ذلك لما تسير عليه السياسة الأميركية منذ أكثر من قرن من الزمن، كما أنه قد يؤدي إلى تقويض الحماية التي يتمتع بها الجنود الأميركيون أنفسهم في ظل قانون الحرب، فضلاً عمَّا قد يؤدي إليه من إضعاف الدعم الذي تلقاه أميركا من الأوروبيين؛ إلا أن أيّاً من أفراد الإدارة الأميركية لم يُعِرْ جدال باول أهمية، حيث كان صوتاً فرديًّا ضد تكتل عازم على انتهاك حقوق الإنسان.

وعلى الرغم من حرص الإدارة الأميركية على مخالفة القوانين الأميركية والدولية بشأن معتقلي غوانتانامو، إلا أن ذلك لم يمنع تلك الإدارة من تضليل الرأي العام الأميركي والدولي بشأن ما يحدث في غوانتانامو من انتهاكات صريحة ومخالفات واضحة، حيث كان الرئيس الأميركي يصرِّح أمام وسائل الإعلام بالقول: "كمسألة

سياسية، فإن القوات المسلحة للولايات المتحدة ستمضي في معاملة الأسرى بشكل إنساني؛ وذلك في مدى يتناسب ويتسق مع الظروف العسكرية، وبأسلوب ينسجم ومبادئ اتفاقية جنيف".

إن عمليات التحرِّي عن المعتقلين، واستجوابهم من قِبل المحققين الأميركيين، كانت تفتقر إلى المهارة والدقة والحرفية، نظراً لأن من قاموا بهذا العمل في أفغانستان كانوا من الخريجين الجدد في مدرسة الاستخبارات العسكرية في ولاية أريزونا، ولم تتجاوز فترة تدريبهم ستة عشر أسبوعاً، فضلاً عن اعتمادهم على مترجمين تم التعاقد معهم عن طريق شركات خاصة، وكان أغلبهم ضعيف المستوى عديم الخبرة العسكرية، إضافةً إلى وجود دافع الكسب المادي لديهم، ما دفع حلف الشمال بقيادة دوستم إلى الزَّجِّ بآلاف الأبرياء للحصول على المكافأة المالية.

جميع الذين كانوا معي ممن اعتُقلوا ونُقلوا إلى غوانتانامو لم يكونوا إرهابيين عكس ما زعمت الإدارة الأميركية وحاولت أن توهم العالم.

في الأشهر الأربعة الأولى في الزنزانة رقم 40 كان يُقدَّم لنا طعام تخال وجباته أُعِدَّت في مطلع التسعينيات لدرجة أن "الكيك" كان متعفناً وعليه طبقات من البكتريا. كانوا يعطوننا تلك الأكلات، والسعيد منّا من يكون نصيبه كيس بقوليات أو وجبة سمك. وفي كل الأحوال كنا نتناول الوجبة باردة؛ إذ كنا محرومين تماماً من تناول أي شيء ساخن. وفي تلك الفترة لم يكونوا يسمحون لنا بالمشي في الشمس إلا مرتين أسبوعيًّا ولمدة عشر دقائق فقط. وتلك الدقائق يحسبونها علينا بدقة حتى لا نتجاوزها بثانية فتضيع في إجراءات القدوم

والخروج، ولا يُسمح لنا حتى بالحديث مع أنفسنا. كان الاستحمام من ضمن تلك الدقائق العشر، فتخيل كيف تستبدل ثيابك. والأكثر سوءاً أن باب مكان الاستحمام كان مخلوعاً، فعليك أن تتعرى أمام الجندي أو الجندية. وربما شعر أحدنا بالحرج من التعري في وجود الجندية فاستحم مرتدياً بنطاله، ولا يخفضه حتى يذهب إلى الغرفة.

ومن العنت أيضاً ما كان يجري أثناء الحلاقة، إذ تُمنح لنا مرة في الأسبوع أمواس حلاقة مستعملة وصدئة أحياناً. وعلينا أن نقوم بالحلاقة في وقت قصير جدًّا، دون أي كريمات أو شامبو أو صابون يساعد على استعمال تلك الأمواس.

كانت عقوباتهم تهدف إلى حرماننا من كل شيء. ومن العقوبات إرسال المعتقل المعاقب إلى زنزانات انفرادية، مساحتها لا تتجاوز متراً في مترين. وفي كل معسكر هناك عنبر خاص بالعقوبات، ولكن في قسمنا كان هناك عنبران أحدهما يُسمى "نوفمبر" والآخر "أوسكار"، وهما عبارة عن حاويات حديدية مفصَّلة بطريقة تجعل الزنزانة مغلقة تماماً، ولا تستطيع رؤية أحد بجوارك، وكانت مكيفة من الداخل تكييفاً مركزيًّا، وتكون درجة البرودة فيها غالباً عالية جدًّا، إذ تصل أحياناً إلى ما تحت الصفر، والإضاءة قوية جدًّا والغرفة مطلية بالسواد بالكامل.

الزنازين الانفرادية.. يا إلهي! كانت حقاً تبعث على الضيق والقلق والهلع؛ فكل أدواتك تؤخذ منك، لتعيش في برد قارس وفي عزلة مطلقة. كانوا يتخذون من الطعام، على الرغم من سوئه، عقوبة، فيمنحوك وقت العقوبة خمس دقائق فقط عليك أن تُكمل فيها الأكل، وإلا أُخذ منك. يضاف إلى ذلك الإزعاجات الليلية المتكررة

بالتفتيش المفاجئ والإيقاظ غير المبرَّر والضرب أحياناً من دون سبب. في الزنزانة (رقم 40) بقيتُ مئة وعشرين يوماً على وجه التقريب. في تلك الفترة تم بناء المعسكر الثالث، وفيه عنابر: بابا وكوباك وروميو وسيارة وتانغو.

لم أتسلّم في تلك المرحلة رسائل، ولم يكن لي نشاط محدد، وكانت التحقيقات متواصلة بشكل دائم، أغلبها يدور حول قناة الجزيرة.

في تلك الأجواء الحالكة تسلل إليّ فجأة دفءٌ من الشرق خبرت معه الفرحة في غوانتانامو لأول مرة، وسيظل ذلك اليوم محفوراً في ذاكرتي، وهو اليوم العشرون من سبتمبر/أيلول حين وصلتني رسالة من أم محمد عن طريق الهلال الأحمر القطري. وصلت تلك الرسالة عن طريق بريد الجيش، وحملت إليّ صورة محمد وأخباراً طيبة عن الأهل والعالم، ولا أخفي على القارئ أنه في تلك اللحظة بالذات:

هجم السرور عليَّ حتى إنه
من فرْط ما قد سَرَّني أبكاني
يا عينُ صار الدمع منكِ سجيةً
تبكين من فرحٍ ومن أحزانِ

كنت قد رأيت رؤيا في المنام، قبل وصول الرسالة وهي أن أحد الجنود أتاني ووقف أمام زنزانتي، ثم سألني عن رقمي وقدَّم لي رسالة من أسرتي، فاستبشرتُ خيراً وانتظرت هذا اليوم، فإذا هو يومُ العشرين من سبتمبر/أيلول. فقد حضر إليّ الشخص الذي رأيته في الرؤيا بالمواصفات نفسها. كنت نائماً فناداني، وعندما استيقظت رأيته

فتعجبت، فنظرتُ إلى يده فإذا هي تحمل رسائل. سألني عن رقمـــي، فقلت له الرقم، ففتح النافذة ومدَّ لي رسالة.

فرحت كثيراً، وعندما فتحتها ووجدتها من زوجتي ومعها صورة لابني، لم أتمالك نفسي، فأجهشت بالبكاء. بكيت طويلاً حتى بكـــى جيراني لبكائي وهم لا يدرون الأمر، فسألوني: ما الخبر؟ فأخبرتهم بأن رسالة وصلتني من الأهل وفيها صورة ابني الذي فارقته منذ أكثر من سنة. علمت من رسالة أم محمد أنها موجودة في الدوحة، وأنهم علموا بما جرى لي وأنهم صابرون محتسبون يتضرَّعون للمولى عزَّ وجـــلَّ أن يفكَّ أسري. ويؤكدون لي الإفراج عنِّي قريباً لأنهم على ثقة من أنني لم أقم بأي عمل يستوجب بقائي رهن الاعتقال. طمأنتني أم محمـــد بأنهم ينتظرون مقدمي إلى الدوحة وأن أمورهم طيبـــة؛ إذ تمـــنحهم الجزيرة راتبـــي بانتظام، وأن أوضاعهم جيدة وهم علـــى اتصـــال بأهلهم في أذربيجان، كما أنهم على تواصل مع زملائي في الجزيـــرة الذين يَطْمئنُّون عليهم باستمرار. كان هذا مجمل الرسالة ومعها صورة لابني محمد. كانت تلك أول وأشمل رسالة تلقيتها في تلـــك الفتـــرة، فسعدتُ بها أيَّما سعادة.

وبعد ذلك بأيام جاء مندوب الصليب الأحمر وسلمني رســـالة كانت طبق الأصل من الرسالة الأولى التي وصلتني عبر البريد، وأيضاً معها صورة لمحمد، وسعدت بها هي الأخرى سعادة عظيمة وكتبـــت ردًّا عليها.

كانت لي قصة مع الرسائل من قبل؛ فقـــد ســـلمت رســـائل للصليب الأحمر في قندهار ووضعت عليها عنوان قنـــاة الجزيـــرة في الدوحة، طمأنت فيها القناة على وضعي وأنني أنتظر الإفراج عـــني في

أية لحظة. كان ذلك محتوى الرسالة التي لم يصلني عليها رد. وعندما وصلت إلى غوانتانامو كان من المفترض أن يقابلني مندوب الصليب الأحمر فور وصولي، ولكن لم يقابلني أحد. وبعد أن قضيت شهرين، أتى مندوب الصليب الأحمر، فاستفسرت منه عن سبب عدم مقابلتي، فقال: ألم يقابلك أحد؟ قلت: لا. قال: سأرتِّب لك لقاء.

وبعد أقل من أسبوع قابلت وفداً من الصليب الأحمر في مكتبهم داخل المعسكر وأعطوني الرقم المسلسل الذي يكون عندهم. ثم سألتهم عن رسائلي، فقالوا إنهم لم يوصلوها لأنني قلت لهم: لا أريد أن تعلم دولتي باعتقالي. قلت لهم مستنكراً: من الذي أبلغكم بهذا، فعائلتي تعيش في قطر وأنا سوداني، ثم إنني لم أطلب من أحد ما أبلغتني به الآن، وأنا أود فعلاً خلاف ما قلت. أريد أن تعلم دولتي بقضيتي وإلا فلمَ كتبت الرسائل؟! فهذا تلاعب منكم ولهذا سأقطع تعاملي معكم. قالوا: لا، لا، بعد أن سمعنا منك هذا الكلام سنبلغهم على عجل، ورسائلك موجودة في مكتبنا بجنيف. بعد ما وصلتني الرسالة الأولى عبر البريد الأميركي، جاء وفد الصليب الأحمر وكانت معه الرسالة نفسها.

بعد ذلك نُقِلت إلى عنبر شارلي، وبعد أيام قلائل أحضروا عمر الكندي وكانت تفصلني عنه ثلاث زنازين. سألت الإخوة عن قصته كما سألته هو، فعرفت منهم جميعاً أنه مصري الأصل كندي الجنسية قدم مع والده إلى أفغانستان ومعه أسرته، وقُتل والده وأحد إخوته في اشتباكات مع باكستانيين، وكان الوالد يعمل في مجال الإغاثة. هذا ما عرفناه عنه لاحقاً، أما في المرحلة الأولى فلم نكن نعرف عنه إلا أن والده انفصل كرهاً عن العائلة التي تشتتت ولا تدري شيئاً عن مصير

عائلها، ويتوقعون أنه وقع في قبضة الأميركيين. كان عمر صغير السن ما بين أربع عشرة سنة وخمس عشرة سنة، وكان قد أُصيب بطلقات نارية في صدره أصابت الرئة، كما أصيب في إحدى عينيه التي عميت تماماً، وكانت رؤية عينه الثانية ضعيفة جداً، وكان لا يزال يعاني آثارَ إصابة في ذلك الوقت، وبعد ذلك اعتقلوا أخاه الأكبر عبد الـــرحمن وجاؤوا به إلى العنبر نفسه حيث مكث فترة من الزمن.

الفصل الخامس عشر

بعد مُضيٍّ نحو شهر في عنبر شارلي تولّت استجوابـي مجموعـة جديدةَ من المحققين بملابس مدنية، وكان أسلوبهم أكثر لطفاً، وعرَّفـوا أنفسهم بأنهم من الاستخبارات البريطانية. سألوني عـن أشـخاص لا أعرفهم وعن بعض الذين قابلتهم في بريطانيا إن كنت زرتها، فأخبرتهم بأنني لم أزر بريطانيا قط، فكانوا يسألونني عن أشـخاص موجـودين هناك لا أدري عنهم شيئاً ولست على علم بوجودهم أصلاً. ثم سألوني عمَّن قابلتهم أثناء عملي في قندهار في أفغانستان، وما إذا كان بينـهم بريطانيون. سألوني أسئلة كثيرة، منها أسئلة عن أصهاري في أذربيجان.

ثم جاءني أحد الأشخاص وقدَّم لي نفسه بأنه عربـي من لبنان يحمل الجنسية الأميركية. قدَّم نفسه باسم الدكتور فادي، وقال إنـه يحمل دكتوراه في الإعلام وهو متخصص في هذا المجال، وإنه جاء من واشنطن خصيصاً لمقابلتي والتحدث معي. قال إنه لا يريد أن يحقّـق معي وإنما هو حريص كل الحرص على الحديث عن قنـاة الجزيـرة، ويريد إجابات عن أسئلة مثل: كيف نجحت الجزيرة؟ وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه الآن؟

جلسنا جلسة حوارية عبَّرت فيها عن وجهة نظري. قلـت: إن قناة الجزيرة نجحت لثلاثة أسباب:

- أولها: أنها بدأت بكوادر متدرِّبة، كانت هذه الكوادر أصلاً تعمل في "بـــي.بـــي.سي" - القسم العربـــي في لنـــدن، ولهم خبرة طويلة في مجال الإعلام.
- والسبب الثاني: هو الإمكانات المادية المفتوحة التي وجـــدتها القناة، والتي ساعدتها على أداء رسالتها.
- والسبب الثالث: وهو الأهم، أن القناة وقفت على أرضـــية دعم معنوية قوية ووجدت هامشاً من الحرية كبيراً وعلـــى ضوء هذه الحرية كان النجاح.

قلت له: إنك تعلم أن كل قناة موجَّهة تحكمها خطوط حُمـــر متعددة لا تستطيع أن تتجاوزها ستفشل، في حين أن الجزيرة كانـــت قناة لا تحدها خطوط حمر، وتمتعت بروح تخصصية تحمل مهنية عالية في تناول الأخبار، ما جعلها المصدر الأهم للخبر الصادق لعشـــرات الملايين عبر العالم.

هذه الميزات أضافت أسلوباً جديداً إلى الإعلام في منطقة الشرق الأوسط، أخرج الناس من دائرة الأخبار المملة وكليشيهات الإعـــلام الرسمي.

الجزيرة تركِّز بحرفية ومهنية عالية على متطلبـــات المشـــاهدين، متجاوزةً الخبر المحلي الذي لا تتناوله إلا بقدر أهميته عالميًّا. كمـــا أن الجزيرة غطت الاحتياجات المختلفة بتعدد النشرات والبرامج، وبتعدد مصادرها بمساعدة مكاتبها المنتشرة عبر العالم.

كذلك، قلت له: إن الجزيرة كانت من أولى القنوات التي غطت المعارك، خصوصاً حرب الخليج الثانية، وكذلك الحـــرب الأفغانيـــة، فأشعرت المشاهد بحضورها المميز وبما تقدمه له، ما يعكـــس تجـــاوز

الإعلام الغربي والتفوق عليه في ساحات ظلت حكراً عليه فترة طويلة من الزمن، بل إن الجزيرة تحولت مصدراً لا غنى عنه.

تحدثت مع اللبناني المزعوم عن هذه الأمور، فشاركني في كثير من وجهات النظر، وأضاف أشياء كثيرة، وقال لي: نستطيع أن نقول في نهاية الحديث - الذي استمر أكثر من ساعتين -: إن الجزيرة وضعت قطر على خريطة العالم.

وقال لي أيضاً: من الأشياء التي سأقولها لك، عندما تخرج ستجد أن الجزيرة فرَّخت قنوات كثيرة سارت على دربها، ثم غادر.

بعد هذا اللقاء بوقت قصير استدعوني للتحقيق وأخذوني إلى مكان خاص، خاص جدًّا بمعايير "غوانتانامو"؛ فقد أدخلوني إلى غرف فيها مجلس وتلفاز وطاولة مملوءة بالجرائد والمجلات، وعلى الجدار لوحات لمدينتي وصور لمكة والمدينة وسجادة للصلاة ومصحف كبير. غرفة توحي تماماً بأنك لست في مكان تحقيق. جلست في تلك الغرفة، وبعد هنيهة دخل عليَّ رجل في العقد الخامس من عمره فيه سمرة خفيفة، متوسط القامة شعره منساب، فيه بياض، حليق الوجه، هادئ في كلامه وتحركاته، تلمس ذكاءً في تصرفاته، لطيف في تعامله أشبه في ملامحه بالممثل المصري عمر الحريري. فيما بعد عرفت أنه يدعى ستيفن رودريجنس، كوبي الأصل أميركي الجنسية مخضرم في مجال الاستخبارات. كان يعمل في منتصف الثمانينيات في ألمانيا الغربية حيث كان يحقِّق مع الفارِّين من ألمانيا الشرقية إبَّان الحرب الباردة، ثم يحوِّلهم جواسيسَ يقوم بتجنيدهم وإرسالهم مرة أخرى إلى ألمانيا الشرقية، ثم إلى الدول الدائرة في فَلَك الاتحاد السوفييتي آنذاك، فكانت مهمته التحقيق مع أولئك وتجنيدهم. حقاً قابلني مقابلة لطيفة،

وقال لي: أنا قابلت الدكتور فادي، وقال لي: إن 345 – وهو رقمي – إنسان متفتح وبدأ يمدحني، وأردف: لقد جئت إليك في مهمة ليست مهمة تحقيق. سأعرض عليك أمراً، وقبل أن أعرض عليك هذا الأمر يجب أن تفكّر في هذه الكلمات التي سأقولها لك. قال: "إن في حياة الإنسان تياراً إذا استُغِلَّ عند المدِّ قاد إلى الحظ والغنى، وإذا ما أهدرت الفرصة تكون رحلة الحياة شاقة ومحكومة بالفشل، وفي مثل هذا البحر الهائج نُبحِر الآن، فإما أن نستغل التيار حيث يخدمنا المد وإما أن نخسر الرهان".

بتلك الكلمات بدأ حديثه لي، وقال: إن هناك فرصة كبيرة أمامك حتى تتغير حياتك تماماً. هناك فرصة لك للعمل، وهذا العمل سيغير مسار حياتك، ليس فقط لك بل لأسرتك أيضاً، فكر في ما قلته لك حتى نلتقي الأسبوع المقبل. وأعطاني المجلات الموجودة في الغرفة، كانت جريدة الشرق الأوسط ومجلات مصرية وكان قد مضى نحو أسبوعين على صدورها. كانت بالنسبة إليَّ شيئاً عظيماً، لأنني لم أقرأ ولم أسمع أخباراً منذ قرابة سنتين، فأمسكت الجرائد وبدأت أتصفحها على عجل، وكنت أقرأ العناوين فقط.

قرأت أسعار العملات وانتقلت إلى أسعار البترول، فأسعار الذهب، فالشركات، فالأخبار الاقتصادية والرياضية... كنت أقلب الجريدة بشغف، ثم المجلات، أتصفح المواضيع والتعليقات والأخبار، وأصبحت في حالة يعجز لساني عن وصفها. كان همي الأكبر أن ألتهم أكبر عدد من الأخبار حتى أروي بها ظمئي وأنقلها أيضاً إلى الأسرى الموجودين معي. كان ذلك قبل رمضان الأول الذي قضيناه في جزيرة غوانتانامو.

عدت إلى الزنزانة "عنبر" وكان نزلاؤها من العرب عكس زنزانة "ليما" حيث كنت بجوار الأفغان، وكان التواصل معهم منعدماً لجهلي بلغتهم، ما سبَّب لي مشاكل نفسية؛ إذ لم يكن بجواري من أستطيع التحدث إليه والتواصل معه بسهولة.

كان جاري الوحيد، أبا أحمد الليبي، الذي كان مريضاً يعاني فيروساً في الكبد، وكان لا يستطيع تحمل الجلسات الطويلة، فكنا نتحدث قليلاً قبل أن يخلد إلى الراحة بسبب ضغوط المرض.

أما في هذا العنبر، فكان في العنبر أبو عبد الله الكويتي وآخرون كثيرون، فعندما عدت من التحقيق بدأ الإخوة كالعادة يسألون عن سير التحقيق، وكنت قد رجعت وأنا في اندهاش كبير وفي حيرة لا تخفى على الناظر. سألوني: ماذا حصل؟ فطلبت منهم إمهالي دقائق لألتقط أنفاسي. وبعد ما استجمعت أنفاسي واسترجعت ما كان وتمالكت واستعدت الذكريات القريبة، حدثتهم بالأخبار التي قرأتها. كانت لحظات سعيدة بالنسبة إليهم لأنهم يستمعون لأخبار جديدة لأول مرة.

بعد أسبوع قابلت الرجل نفسه، وبدأ يتكلم معي بوضوح. قال لي: "يا سامي، نحن نريدك أن تعمل معنا". قلت له: "من أنتم؟"، قال: "نحن الاستخبارات الأميركية"، قلت له: "إنني لا أعمل مع الاستخبارات". قال: "لا تظن أن عمل الاستخبارات هو عمل جيمس بوند وما تراه في الأفلام البوليسية، نحن عملنا دبلوماسي، ونريدك أن تعمل معنا مقابل منحك الجنسية الأميركية أنت وزوجتك وابنك وتسكن في فيلا في أميركا وتكون لديك سيارة ورصيد في البنوك الأميركية. هذا الرصيد لا نقول إنه يساوي مليوناً ولا مليونين

ولا ثلاثة، بل يمكن أن يكون عشرين مليوناً، المتحكم في ذلك هو اجتهادك في العمل. كلما كنت مجتهداً وأتيت بمعلومات ذات قيمة استخباراتية كان رصيدك أكبر في البنوك. سنقوم بتدريبك وتأهيلك بحيث تخرج من هنا صحفيًّا على درجة عالية، ونقوم أيضاً بإعداد كتاب لك يُنشَر بعد خروجك. وعبر المنظمات الكثيرة في العالم التي تعمل معنا نستطيع أن نجعلك شخصية مميزة تنال جوائز عالمية. سنكون إلى جانبك ونجعل آخرين يُزَكُّونك وتكون لك مكانة كبيرة، ونحقق لك كل طموحاتك وكل أحلامك في وقت وجيز".

سألته: "وما المقابل؟"، قال: "بسيط، أن تواصل عملك في قناة الجزيرة بعد خروجك من هنا. وعندما يُطلَب منك مثلاً أن تُجري مقابلة مع معمر القذافي، تصف لنا المكان والإجراءات الأمنية وتحركات القذافي، وتصرفاته، وطريقة كلامه بعيونه، وعمله، والملاحظات التي تراها، فهذا مما يفيدنا في عملنا. إذا اتصل بك أفراد من القاعدة لإجراء مقابلة، تنظر إلى المكان الذي تجري فيه المقابلة فتصف الغرفة وأسلوب من التقيت بهم، وتفكيرهم وتعاملاتهم، فهذه أشياء تفيدنا. نحن لا نحتاج منك أن تقول لنا: الآن أنا في ليبيا، فنحن سنزرع أجهزة في جسدك نتابعك بها أينما كنت وأينما حلَلْتَ، ونستطيع أن نستمع عبر بعض الأجهزة للحديث الذي يدور حولك. ونحن في الوقت نفسه حريصون كل الحرص على التقارير التي ترفعها مما قد لا تراه الآلة وتستطيع أنت أن تراه. سنعمل على تدريبك على حفظ الأرقام، وعلى كيفية رسم الأشخاص وأسلوب التعامل معهم. سننظِّم لك دورات تدريبية كثيرة، وستجد من يساعدك في هذا العمل داخل قناة الجزيرة وداخل قطر. ستجد من يعينك على هذا

الأمر ولن تشعر بأنك وحدك. سيكون لعملك هذا حـــوافز ماديـــة كبيرة وستكون حياتك سعيدة، وقد تحقق ما لا يستطيع أن يحققـــه غيرك في سنوات طويلة وفي عمل شاق".

قلت له: "جيد، أنت تريدني أن أعمل ضد القاعدة وضد هؤلاء الذين ذكرهم"، قال: "نعم، ولكن بطريقة دبلوماسية"، قلـــت لـــه: "ولكن أنا حقيقة أخاف الله، فالله يشهد على ما أقول"، لقد انتبهت إلى الجانب الشرعي منذ بدأ كلامه. قلت له: "لا يجوز لأي مسلم أن يكون عيناً على عورات المسلمين، وأنا على يقين أن من يقوم بهـــذا العمل قد يخرج من دائرة الإسلام ويخسر دينه ودنياه".

لقد كان هذا الميزان واضحاً أمامي عندما بدأ كلامه الـــذي لم أتردد في رفضه في سري قبل أن أعلنه بوضوح لاحقاً.



الفصل السادس عشر

خلال وجودي في غوانتانامو وتعاملي مع الأميركيين توصلت إلى بعض الدروس والتجارب، ومنها أن تخاطب الشخص الذي تريد مخاطبته وفقاً لعقليته والحياة التي يعيشها، فالأميركيون مادِّيون وحياتهم مادية، فإذا قلت لهم: هذا لا يجوز في الشرع وفي الدِّين، لا يؤثِّر ذلك فيهم لأنهم بعيدون كل البعد عن الدين. ذلك ما عرفناه من معاشرتنا ومعايشتنا لهم، فالدِّين لا يعني لهم شيئاً، ولا يغرنَّك كبر الصليب الذي يتدلى من صدر الأميركي، فهو بعيد كل البعد عن عقيدته الدينية. ذلك حال جُلّ الجنود والمحققين الذين قابلناهم، فهم عموماً أناس ماديون في المقام الأول، وعليه فقد قرَّرتُ التكلُّم مع محققي بهذا المنطق، لأنني إذا تكلمت معه بمنطق الدين فلن يفهمني.

قلت له: "حقيقة أنا ذهبت إلى أفغانستان لتغطية الوضع هناك وعرَّضت نفسي لويلات الحرب، ولكن أنت الآن تعرضني لعمل خطير جدًّا. صحيح أنني سأكسب منه مالاً ولكن سأخسر رُوحي وحياتي، ولدي روح واحدة إذا خسرتها فلا فائدة من كسب المال والتمتع بالامتيازات التي ذكرت، فأنا حقيقة أخاف على نفسي وأخاف على أسرتي أيضاً، ولكن أنتم مِمَّ تخافون"؟

فقال: "لا تخف، نحن أميركا وسنحميك"، قلت له: "عذراً، إذا كانت أميركا الدولة العظمى كما تقول غير قادرة على حماية نفسها حتى تستعين بشخص ضعيف مثلي، وتزج به في هذه القضية من أجل حمايتها، فكيف ستحميني؟ إن لم تكونوا قادرين على حماية أنفسكم فكيف ستحمونني؟ فلو كانت أميركا قادرة على حماية نفسها، وهي عظمى كما تقول، ما طلبتْ خدماتي أنا المسكين الضعيف الذي لا يستطيع أن يحرك ساكناً".

سكت محقِّقي وقال لي: "صحيح، قد نكون الآن لسنا قادرين على كل شيء، ولكن هذا لا يعني أننا عاجزون أيضاً. نحن في أميركا ما زلنا نمتلك أشياء كثيرة، ولكننا في حرب جبانة ساحتها مفتوحة وليس لها حدود وليس لها زمن، فنحن نتعامل مع أشباح ولا نتعامل مع جيوش. أميركا قوية وتملك السلاح وتستطيع أن تحارب الجميع، ولكن في حرب مكشوفة لا خفيَّة كما هو أسلوب الحرب الآن، فلابد أن نستعين بأشخاص حتى يُعينونا على هذه الحرب، ومن هذا المنطلق نحن الآن نعرض عليك أن تكون شريكاً لنا في هذا الأمر".

عندها كررت له أنني غير مطمئنٍّ، بل خائف على نفسي وعلى أسرتي، فقال: "نحن سنحاول أن نحميك بكل ما أوتينا من قوة عندما تصبح مواطناً أميركيًّا".

قلت له: "أنا غير مقتنع بهذا الأمر، وأنا حريص كل الحرص على أن أخرج من هذا المكان وأعيش مع أسرتي حياة هادئة ليس فيها أي تهديدات أو عدم استقرار"، فقال لي: "إن موافقتك على العمل معنا ستكون السبب في إخراجك من هذا المكان، والحقيقة أنك لم تفعل شيئاً ضد الولايات المتحدة الأميركية يستوجب تقديمك للمحاكمة،

ولا يوجد أيضاً تبرير لتوقيفك في هذا المكان". وأضـاف: "لكـن المؤسف أنك موجود في هذا المكان، ولا يوجد أي قـانون يسـمح بخروج أي شخص منه ولو كان في حالة مثل حالتك، ولكن نستطيع إذا وضعت يدك في أيدينا أن نضغط علـى المسـؤولين السياسـيين ونجبرهم على أن يتخذوا قراراً سياسيًّا يخرجك من هنا ويعيـدك إلى أسرتك في القريب العاجل".

قلت له: "جيد، دعني أفكر في الأمر"، فأحضـر لي مجموعـة جديدة من المجلات، وقال: "إن كنت تريد أي شيء من المعسـكر، فنحن نقضيه لك، تريد أن ننقلك إلى أي مكـان، تريـد، تريـد، تريد...".

قلت له: "لا تنقلني فوضعي جيد، فقط أريد أن تعطيني وقتاً لأقرأ هذه المجلات، ولا يأخذونني مباشرة"، قال: "أمنحك ساعة لتجلس في هذا المكان وتقرأ الجرائد والمجلات، وسآتي لك بمجـلات وجرائـد أخرى الأسبوع المقبل عندما نلتقي، ولكن يجب عليك أن تفكر جيداً في هذا الموضوع".

عُدت إلى الزنزانة وجلست مع نفسي أفكر في هذا الأمر.

في عنبر تشارلي وجدت أخوين سودانيين هما: حمـاد، ومحمـد رشيد. وبالحديث معهما، علمت أنهما اعتُقلا بعدي بثمانية أشهر.

أما حماد فكان يعمل محاسباً في مؤسسة خيرية كويتية، ولم يمضِ عليه في باكستان أكثر من ستة أشهر، وكان قبل ذلك يعمل في بنك السودان بالخرطوم في قسم الحسابات.

كان السودانيان موظفين في منظمات خيرية كويتية، واعتُقـل معهما سوداني آخر، هو أبو أحمد الذي تعرفت إليه فيما بعد، وقـد

اعتقل مع هؤلاء السودانيين مهند السوري وأبو حذيفة الأردني وآخرون.

عندما انتقلت إلى تشارلي وجاورت السودانيين خفَّ عني كثيرٌ من الضغوط النفسية، وبدأت أتحدث معهم كثيراً وأظن أنهم ربما اشتكوا فيما بينهم من كثرة كلامي ورغبتي الزائدة في الحديث. كنت أُسوِّغ لهم ذلك بالأشهر الأربعة التي قضيتها معزولاً بين الأفغان منذ مقدمي من قندهار، وبأنني لم أجد من أتحدث معه ولا من يسليني غير الأخ الليبي الذي لم يكن يستطيع التحدث بسبب ما يعانيه من مرض.

كنت أسأل حماد عن أخبار السودان والأوضاع هناك بعد اعتقالي، والتحركات التي تمت من قبل السودانيين. وبفضل الله أعطاني صورة طيبة وتعرفت من خلاله إلى أخبار مفيدة. في تلك الفترة أيضاً التقيت بستيفن رودريجنس، المحقق الموظف في الاستخبارات الأميركية.

عندما عدت إلى الزنزانة سألني الإخوة عن التحقيق؛ فقلت لهم: الأمر خير، ولم أشأ أن أحدثهم بعفوية لأنني أدرك أن الأصوات مراقبة، لكنني حاولت إيصال رسالة عمَّا جرى لجاري السوداني حماد الذي كان على الجهة اليسرى من زنزانتي، يأتي بعده السوداني محمد الرشيد. كان من الصعب أن أتكلم معه في الموضوع بكل وضوح، لكنني نقلت له صورة عما جرى أثناء دردشة عادية. فحدثته عمَّا دار في التحقيق ونقلت له وجهة نظري أولاً لأؤكد له أنني أرفض العمل معهم جملة وتفصيلاً، ولا يوجد لديَّ أي احتمال للعمل معهم. ولكن في أسلوب الرد تراودني نفسي أن أُبدي لهم مرونة تشعرهم بشيء من

الثقة، حتى أنال حريتي وأخرج من السجن، غير أنني كنت أكثر ميلاً لأن أصارحهم برفضي التام لعروض العمل معهم.

استشرت أخي وجاري حماد السوداني، فأشار عليَّ بألا أكــون مرناً معهم وأن أكون صريحاً وواضحاً في هذا الأمر، وقال إن محاولة التلاعب معهم قد تأتي بنتيجة لا تُحمَد عقباها.

بعد استشارة حماد واستخاراتي المتكــررة، قــررت أن أكــون واضحاً معهم، وبعد أسبوع جاؤوا وأخــذوني إلى الغرفــة نفســها للتحقيق.



الفصل السابع عشر

جاءني الرجل، ستيفن رودريجنس ذاته، وقال مبتسماً وقد أحضر معه جرائد ومجلات: "إن شاء الله اتخذتَ قراراً"، قلت: "نعم، اتخذتُ قراراً"، قال: "وما هو؟"، قلت له: "قررت ألا أعمل معكم في هـــذا المجال لأسباب عديدة، أولها: خوفي على أســـرتي وعلـــى نفســـي، والسبب الثاني هو أنكم بصراحة تقومون بأعمـــال لا تتوافـــق مـــع مبادئي".

فقال: "أما بالنسبة لخوفك فقد أخبرتك بأننا سنحميك، وقلت لك: إنك لا تعمل وحدك، فأنت تعمل مع أميركا كلها، وأنت تعلم ما أميركا. كما أخبرتك بأنك لن تعمل وحدك، ستعمل من خـــلال مجموعة، وهناك مجموعات مهيَّأة لحمايتك ومتابعتك وتوفير الأمـــن لك. وستجد من يعاونك من أشخاص داخل قناة الجزيرة كما ستجد من يعاونك ويوفر لك الحماية من أشخاص موجودين في الدوحة، بل في جميع أنحاء العالم، يوفرون لك الحماية في كل منطقة وكل بقعة، في المطارات، في الفنادق، في تحركاتك، في سكناتك.. ما يعـــني أنـــك ستكون تحت حماية كاملة. هذا بالنسبة لك، أما بالنسبة لأسرتك فإن اختارت أن تأتي إلى أميركا وتعيش فيها فنحن لن نرفض، غير أننا لا نحبذه لأن ذلك سيكشف أوراقك. ولكن سيعيشـــون في الدوحـــة،

ونحن لنا رجال يعيشون هناك ولديهم وسائل نوعية لتوفير الحماية لك ولكل عملائنا، وهم الآن يعيشون بسلام ولا يتعرض لهم أحد".

ويضيف رجل الاستخبارات الأميركي: "أمَّا بالنسبة إلى موضوع المبادئ، فلا تظنها مثل أفلام جيمس بوند التي تقوم على القتل والمغامرات. نحن نقوم بعمل دبلوماسي، نحن مثل الدبلوماسيين نسعى بكل ما أوتينا من طرق ووسائل لمنع جرائم قتل أو جرائم كبيرة، وهذه هي غايتنا. وبتجنب القتل الذي لا نقوم به إلا مضطرين وفي آخر لحظة، نكون قد عطّلنا الأعمال الشريرة قبل أن تحدث".

سألته: "أتذكر مارتن؟"، قال: "نعم، مارتن الضابط الذي قابلك، الضابط البريطاني من الاستخبارات الذي قابلك"، فضحكت. قلت له: "لا، أنا لا أتكلم عن المحققين أو الفريق الذي قابلني من البريطانيين، ولكن أتكلم عن مارتن لوثر كينغ، كيف قتلتموه وكان يحمل أفكاراً ديمقراطية ويدعو إلى العدالة والمساواة، وأنتم تؤمنون بالأفكار نفسها وتدعون إلى المبادئ نفسها. لم يكن يسير وفق نسقكم السياسي فقمتم بتصفيته وقتله. مثل هذه الأعمال لا أشارك فيها ولا أريد أن أكون طرفاً فيها". قال: "نحن لم نقتل مارتن، وهنالك روايات كثيرة، وقد قُبض على القاتل وحوكم وأودع في السجن، و"سي.آي.إيه" هي التي قبضت عليه. هذه هي الأدوار التي تقوم بها الاستخبارات، السعي للقبض على القتلة والأشرار. مهمتنا لها وجهان، الوجه الأول هو محاولة تعطيل أي عمل شرير قبل أن يحدث، والوجه الثاني متابعة وملاحقة الأشرار الذين يرتكبون الجرائم ويقومون بأعمال تخريبية. وقضية مارتن لوثر كينغ قضية جريمة

ارتكبها أحد العنصريين وقبضت عليه الاستخبارات، فهـذه قضـية تُحسَب لنا ولا تحسب علينا".

قلت له: "على العموم، أنا في قرارة نفسي لا أريد العمل معكم، وسأتحدث معك كصديق لا كمحقق أو باحث عن عمل، ألا يمكننا أن نتحدث كأصدقاء؟".

قال: "بلى"! قلت له: "أنت الآن صديقي وأريد أن أستشيرك، إذا كان لديك أسرة، زوجة وابن وتُكِنُّ لهما المحبة والود، وكُلِّفت بعمل مثل هذا أو طُلب منك أن تعمل في هذا المجال، وهو بلا شك يعرِّض الأشخاص الذين تحبهم للخطر ويعرضك أنت للخطر، وأنت لم تعمل فيه أصلاً فهل توافق على هذا العرض؟ أريد ردك بصراحة من منطلق الصداقة لا العمل". فقال: "حقيقة سأرفض".

قلت له: "أشكرك على هذا الصدق وأشكرك لأنك أجبتني بصدق. الآن سأضع نفسي مكانك وأقول لك إنه ليس لدي غير الرفض ولا أملك أي شيء آخر". فقال لي: "جيد".

وهزَّ رأسه ثم أردف: "دعنا ننظر للأمر من منطلق آخر، أنت الآن هنا في غوانتانامو، في هذا السجن، وأنت إنسان بريء و لم ترتكب خطأ، لكن الإدارة الأميركية تنظر إلى الذين في غوانتانامو على أنهم أشرار وخبثاء، وليست أمامك فرصة للخروج في الوقت القريب إلا إذا وافقت على العمل معنا. حينها ستكون أمامك فرصة حقيقية للخروج قريباً وفي أسابيع بل أيام وتعود إلى أسرتك، فلمَ لا توافق وتخرج، وعندما تخرج تقول إنك غيَّرت رأيك ولا تريد العمل معنا أو إنك ترغب في تغيير طبيعة عملك، لَم لا تفعل ذلك؟"، ضحكت وقلت له: "حقيقة أنا أرغب في الخروج من هذا المكان،

وأتمنّى أن ذلك يَحدُث اليومَ قبل غد. ولكن السؤال هو: إذا قبلت وخرجت بهذا الأسلوب، ثم قلت: إنني راجعت نفسي ولا أرغب في العمل الصحفي مرة أخرى، ولا أريد العمل خارج السودان وأريد أن أعيش في قريتي الصغيرة حيث لا مصلحة لكم، فكيف سيكون ردُّ إدارتكم؟".

سكت هنيهة ثم قال: "بصراحة سيقبضون عليك ويضعونك في السجن". قلت له: "ولماذا؟"، قال: "لأنك لن تخرج من هذا المكان قبل أن توقّع على عقد عمل. وعقد العمل هذا فيه أشياء لك وأشياء عليك، فيه بعض البنود إذا وفّيت بها فستنال حقوقك، وإذا أخفقت في تنفيذ ما هو عليك فستعاقب، وأقل العقوبات أن يُزَجَّ بك في السجن مرة أخرى، ولكن هذه المرة ستكون مقنّنة، أي بناء على شرط أو عقد أنت وقّعت عليه بنفسك". قلت له: "أمعن النظر فيما تقول، فأنا لم أفعل أكثر من أنني خرجت من سجن غير شرعي لأعود إلى السجن بطريقة قانونية لأنني لم ألتزم بعقد عمل. في الحالة الأولى أجد معي متعاطفين، وفي الحالة الثانية لا أحد يقف بجانبي في قضيتي، بل حتى بعد خروجي ستكون حياتي تعيسة وغير مشرفة، وسيكون عملي نقطة سوداء في حياتي، وقد لا أستطيع العودة إلى بلدي أو أهلي ولو أطلقت الولايات المتحدة سراحي. فحقيقة أنا لا أريد أن ألعب بالنار، أريد أن أكون واضحاً، أعيش هنا حتى يأتي يوم الإفراج عني، وعندما أخرج من هذا المكان أخرج حرًّا طليقاً، لا أخرج مقيداً لإرادتكم أو لإرادة أخرى، فلا بأس عليَّ لو بقيت هنا سنين عدداً على أن أخرج حرًّا طليقاً دون قيد أو شرط، فهذا هو قراري وأنا أتحمل كل تبعاته".

فهزّ رأسه وقال: "الحقيقة أني أردت أن أساعدك بعد أن قــرأت ملفك واستمعت للمحققين، فشدني وضعك وأحببت أن أقدم لــك مساعدة من هذا المنطلق، ولكن في النهاية يجب عليَّ أن أحترم وجهة نظرك وسأتركك، ولكن على أمل أن تفكر في هذا العــرض مــرة أخرى، ولا أكذب عليك، فستبقى هنا لفترة قد تطول، فما زالــت أمامك أيام بل شهور وربما سنوات. فكِّرْ في الأمر فإذا أحسست أنك تريد أن تغير رأيك فلا تتردد في طلب مقابلتي. لا أستطيع أن أعطيك اسمي ولكن قل لهم هناك من جلس معي جلسة خاصة أريد أن أقابله، فإذا كنت موجوداً فسأقابلك، وإن لم أكن موجوداً فسأرسل إليــك من يقابلك، وتأكد أن التعاون بيننا سيعجبك كثيراً".

وبهذه الكلمات خرج وتركني، فطلبت منه المجلات التي بيــده فأعطاني إياها على مضض. وبعد دقائق حضر العسكر وأخرجــوني حتى لا أجد فرصة لقراءة المجلات والجرائد، وأعادوني إلى زنزانتي وقد زال عني هَمٌّ كبير وثقل عظيم.



الفصل الثامن عشر

غنَّى الطائر حتى جفَّ حلقه، ثم أوى إلى إفريز النافذة، يـــرمقني وأنا أنظر إلى جُرحه الذي هو جُرحي.. وظل يغنِّي في هذا الليـــل.. هنا حيث تتسلل، عبر فراغات النافذة، أصواتُ السُّفُن والزوارق وهي تَمْخَرُ عُباب الخليج العربـــي..

أما هناك.. في الخليج الآخر.. خليج غوانتانامو فلم تكـــن ثمـــة مراكب تُسمع أو تَعبُر، وإنما كانت هناك جُثـــثٌ هامـــدةٌ تخـــرج، وأجسادٌ ذاوية تدخل!

كنا نتعرض للاضطهاد حين نصوم رمضان، وكنا نُعذَّب.. لا بالجوع وحده؛ بل بالإذلال والاستخفاف كـــذلك.. إضـــافة إلى الضغط النفسي، وجلسات الإغواء والإغراء، والتحقيقات الطويلة المستمرة..

كان ذلك يجعلني أحسُّ كما لو كانت السماء ســـتنطبق علـــى الأرض وأنا بينهما أتنفس من ثقب إبرة، وسط أموات هم في موتهم يتنفسون العذاب!

في هذا العالم، أناسٌ ساديون لا يشعرون بـــأنهم أحيـــاء إلا عندما تتداعى الكائنات الحيَّة تحت أقدامهم، تُزجي الأنين حتى في موتها.

بعد أن قررتُ عدم التعاون مع الاستخبارات الأميركية، أذكر أنني عُدت وأنا أحمد الله وأشعر بأنني قمت بعمل كان ينبغي أن أقوم به، وأنني أسير في طريق يُفترض أن أسير عليه.. راضيَ البال، سليمَ الضمير...

أما كلمات اللُّطف تلك، فسرعان ما تبددت أحرفها وطارت في الهواء لتتحول سياطاً للتعذيب، والتجويع!

عندما أهلَّ علينا أول رمضان وفهم الحراس أننا لا نتناول شيئاً إلا بعد مغرب الشمس؛ باتوا يؤخرون وجبة العشاء، لا يأتوننا بها إلا بعد أربع ساعات على الأقل من وقت الأذان.

الوجبات التي كانت تُقدَّم لنا لم تكن معلَّبة، بل كانوا يطبخون لنا طعاماً رديئاً من حيث النوع، قليلاً من حيث الكمِّية.. وحبَّات الأرز القليلة لم تكن ناضجة بما يكفي.

كنا نجد عَنَتاً في معرفة اليوم الأول واليوم الأخير من رمضان. ومع أن إدارة سجن غوانتانامو كانت تستطيع معرفة ذلك بسهولة، إلا أن القائمين عليها كانوا يرفضون إخبارنا.. إمعاناً في التعذيب النفسي!

لقد كانوا يشكّكوننا، ففي المعسكرات الأول والثاني والثالث، كنَّا نرى الشمس والقمر، خصوصاً من كانوا منَّا في الزنزانات رقم 1(و24 و25 و28) فهؤلاء يمكن أن يروا الهلال، مع أن مناخ غوانتانامو مَداريٌّ في الغالب، تكثر فيه الغيوم، فكنا نكمل العِدَّة ثلاثين يوماً، وإن كان بعضنا يفطر إذا بلغه ثبوت الشهر.

بعد رمضان مكثنا فترة ثم نُقلنا إلى عنبر هوتيل (H)، وهو مقابلٌ للعنبر الذي كنا نقيم فيه، وفي تلك الأيام أحدثت الإدارة نظام

الدرجات: الدرجة الأولى، وهي الممتازة، تليها الدرجة الثانية ثم الثالثة.. وكانت الرابعة هي أسوأ الدرجات، إذ لا يملك صاحبها من المتاع إلا الحصير واللباس الذي يلبسه. والمقصود من هذه الدرجات معاقبة السجين الذي يعترض على سوء المعاملة، أو الذي يطالب بأبسط حقوقه، أو الذي لا يتعاون مع المحققين. والغرض من كل ذلك هو أن يتنافس المعتقلون على الدرجات، فيصبح كل واحد منهم لا همه إلا نفسه، وكان معظم المعتقلين يرفضون التمييز والتفضيل، فهم يعلمون أن لذلك نتائج وخيمة.

الدرجة الأولى يسمونها "A"، والدرجة الثانية "B"، والدرجة الثالثة "C"، والدرجة الرابعة "D".

عندما هموا بتطبيق هذا النظام، نقلوا الناس أكثر من مرة، ومزجوا الجنسيات، وغيروا المجموعات على أساس هذه الدرجات، فجعلوا المعسكر الأول مكاناً لأهل الدرجة الأولى "A"، وتتابعت المجموعات على ذلك النحو.

وضعوني مع كثيرين آخرين في المعسكر الثاني، وهنا افترقتُ عن حماد ومحمد ورشيد.

في عنبر كيلو (K) من المعسكر الثاني، التقيتُ معتقلين من جنسيات مختلفة من السعودية والعراق واليمن... مكثت في ذلك العنبر يومين، ثم نقلت في اليوم الثالث.

وأثناء النقل، وفي منتصف العنبر، رأيت جمال أبو الوفا، وهو يمني كان يعمل مديراً لمؤسسة الحرمين في أذربيجان، وكانت تلك أول مرة أراه فيها. ناداني لكنني لم أعرفه، فالتفتُّ إليه مجدداً ودقَّقت النظر لأدرك أنه هو، فسلَّمت عليه وسألته: لِمَ جاؤوا بك إلى هنا؟ فلم أسمع

رده لأن الجنود بادروا بإخراجي ونقلوني إلى عنبر تانغو (T) المخصص للدرجة الرابعة، و لم يَفُتْني أن أسألهم: لماذا نقلتموني من الدرجة الثانية إلى الرابعة، فردوا بأنهم لا يدرون وبأنهم مكلفون بتنفيذ أوامر لا يسألون عن مدلولاتها ولا عن عللها.

وضعوني في عنبر تانغو (T) يوماً واحداً، ثم نقلوني إلى عنبر سيارة في المعسكر الثالث، وهناك وجدت جنسيات مختلفة. كان بجواري عبد الرحمن العمري من السعودية، وجزائري يُعرف بالشيخ مطيع وهو من طلبة العلم، وقد درس في سوريا. وكان هناك شخص يدعى محمد السبيعي، وأشخاص آخرون.

كانت تلك الدرجات عبارة عن تصنيف جديد في العقوبات، فمنذ مقدمنا إلى غوانتانامو كانوا يعطون كل واحد منَّا، كما أسلفت، قارورة ماء تُستبدَل كل شهر، ومعها كوب خفيف من الفلين، ومرتبة وحصيرة من البلاستيك بسيطة يصلي عليها ويستر بها نفسه عند الخلاء. كما يسلّمونه شرشفاً واحداً وبطانيتين ومنشفتين عاديتين ومنشفة أخرى صغيرة لليدين.

فلما طُبّق نظام الدرجات، جعلوا هذه الأشياء مجتمعة لا يستحقها إلا من هم في الدرجة الأولى. أما من هو في الدرجة الثانية، فتُسحَب منه المرتبة وقارورة الماء. وصاحب الدرجة الثالثة يفقد تلقائيًّا المرتبة والقارورة وكوب الفلين إضافة إلى إحدى البطانيتين. ولا يبقى لدى صاحب الدرجة الرابعة إلا بطانية واحدة مع الحصير، ويفقد حتى فرشاة الأسنان والمعجون والصابون.

و لم يكتفوا بذلك بل جاؤوا بدرجة أخرى، في مرحلة معينة يفقد صاحبها كل شيء ولا يبقى معه في الزنزانة إلا ملابسه التي

يرتديها. اعتُبرت تلك الدرجات عقابيَّة، فكان من يخالف النظام يُرسَل إلى الدرجة الأصعب. وفي مرحلة تالية صارت هذه الدرجات تصنيفاً من قِبل المحقق الذي يأمر بوضعك في درجة كذا تبعاً لرضاه عنك أو نظراً لدرجة التعاون التي يريدها منك.

ومن العقوبات القاسية التي كانوا يطبقونها: إرسال المعتقل إلى غرفة انفرادية يسمونها "العزل"، وهي عبارة عن عنبر مغلق كله بالحديد، ومُبرَّد بواسطة تكييف مركزي، وفيه إضاءة ساطعة بشكل دائم، وهو مطليٌّ من الداخل باللون الأسود القاتم. وكل من يُرسل إلى هذا المكان تُحلَق لحيته وشاربه وشعر رأسه، ويمنع من حيازة أي شيء في ذلك البرد القارس والإضاءة الساطعة واللون المعتم. أما إذا لم يتسبب المعتقل في مشكلة وصادف هوًى أو مزاجاً لدى المحققين، فإنه يُنقَل إلى درجة أخف عقوبة، مثلاً من الرابعة إلى الثالثة أو من الثالثة إلى الثانية.. وهكذا. وأبسط الحقوق الشخصية للمعتقلين صارت مجالاً للعقوبة والتأديب!

وُضعتُ في الدرجة الرابعة في عنبر سيارة، وكنت قد اصطدمت بالمحقق الذي عرض عليَّ العمل مع الاستخبارات الأميركية، فقرروا معاقبتي بهذا الشكل، ولكنهم حتى تلك اللحظة لم يقنطوا ولم ييأسوا.

ذات يوم، أخذوني إلى التحقيق، فوجدت عربيًّا قدَّم نفسه باسم عادل، وقال: أنا من العراق ولكنني عشت في الكويت. وفعلاً كان يتكلم اللهجة الكويتية، وأثناء حديثه قال إن لديه مشكلة مع الأميركيين، وإنه مكث معهم سبعة عشر شهراً وهو معتقل، وبعد ذلك تحول إلى موظف معهم، ثم إلى عميل، يعمل معهم مترجماً من الإنجليزية إلى العربية.

ثم تكلّمت المحققة التي بدت وكأن لها وجهاً تنهشه شعلة من مشاعر شتّى مختلطة؛ فيها الخوف والقسوة والانتقام، فتحت الملف، وقالت لي: "أنت المعتقل 345، طالعتُ ملفك ولا يوجد لديك إشكال معنا. وقد جئتَ إلى هنا خطأ، ونحن بصدد تصحيح هذا الخطأ وإجراء الترتيبات اللازمة لإخراجك من المعتقل".

استمعت إليها بهدوء، فواصلتْ قائلة: "نحن في حاجة إلى بعض ترتيبات سأبدؤها معك بعد أن توليتُ ملفك".

سألتها: "ما الذي تعنيه بالترتيبات؟"

فقالت: "ألم تتفق معنا على أنك ستعمل معنا؟".

قلت لها: "عن أي عمل تتحدثين؟".

قالت: "تعمل معنا مثل ما تعمل معنا الآن".

قلت: "لا، أنا لم أقل: إنني سأعمل معكم، ولا أعمل معكم الآن. فما الذي جعلك تفترضين ذلك وترتّبين عليه نتائج من قبيل هذه الترتيبات التي تتحدثين عنها؟".

قالت: "ألم تقل إنك ستتعاون معنا؟".

قلت لها: "التعاون مختلف عن العمل. فأنا أتعاون معكم بأن أجيب عن أسئلتكم وأرد على استفساراتكم، لا أن أعمل معكم بأي صيغة من الصيغ!".

قالت: "هل أنت متأكد مما يعني كلامك هذا؟" أجبت: بـ "نعم!".

فقالت: "عجباً! لقد أبلغوني أنك جاهز وأن عليَّ أن أبدأ معك برنامج التهيئة للخروج!".

قلت لها: "لا، لست جاهزاً إلا للأسئلة التي تعنيني وتعني ملفي فقط".

قالت: "إذاً ربما يكون هناك خطأ في الأمر، فأنا حقيقةً مكلَّفةٌ بتهيئتك، حتى إذا خرجتَ كان لديك إلمام كاف بالعمل المطلوب منك". قلت لها: "أعتقد أنك مخطئة وأنك تسلّمت ملفًّا خاطئاً".

قالت: "لا، لقد أبلغوني بأن رقم 345 جاهز للتعاون!".

فقلت لها: "لا مانع من أن تراجعي مسؤوليك، فأنا لست مستعدًّا للعمل معكم".

أرجعوني إلى الزنزانة، وبعد فترة أخذوني مجدداً للتحقيق، وجاءت امرأة غير الأولى، لتحقق معي، فقالت لي: لقد جئت إلى هنا لأسألك فقط ولا شيء غير ذلك، فهل عندك مشاكل من أي نوع؟ فأنا أود أن أساعدك!

بدا فعلاً أنهم وضعوني في الدرجة الرابعة من أجل الضغط عليَّ، فقلت لها حتى أبدو ساذجاً في الرد: ليست لدي مشكلة سوى وجودي في هذا المكان، أقصد غوانتانامو.

قالت: صحيح، أنا أعرف أن هذه مشكلة، ونحن سنسعى إلى حلّها، وقريباً ستعود إلى أسرتك، في الأسبوع المقبل سنلتقي بك، فهل تود أن تأكل مأكولات معينة؟

كان ذلك أسلوباً آخر من أساليب التحقيق، فالأكل يكون سيئاً داخل المعسكر، وعند التحقيق تتوفر كميات من الأكل الطيب لتكون باباً من أبواب الجذب والتأثير في هؤلاء الجوعى المساكين المحرومين من الضروريات، فضلاً عن أطايب المأكولات.

قلت لها: لا، أنا لا أريد شيئاً. قالت: نحن مُصرُّون.

قلت: ما دام الأمر كذلك فهات ما لديك. قالت: أتحب أن تأكل؟ وماذا تحب أن تأكل؟

طبعاً لم أكن لأطلب منها اللحوم الحمراء لأنني لا أرى وجهاً شرعيًّا لأكل ذبائحهم، فقلت لها: "أريد سمكاً وخضراوات"، فقالت لي: "سندعوك على سمك لذيذ".

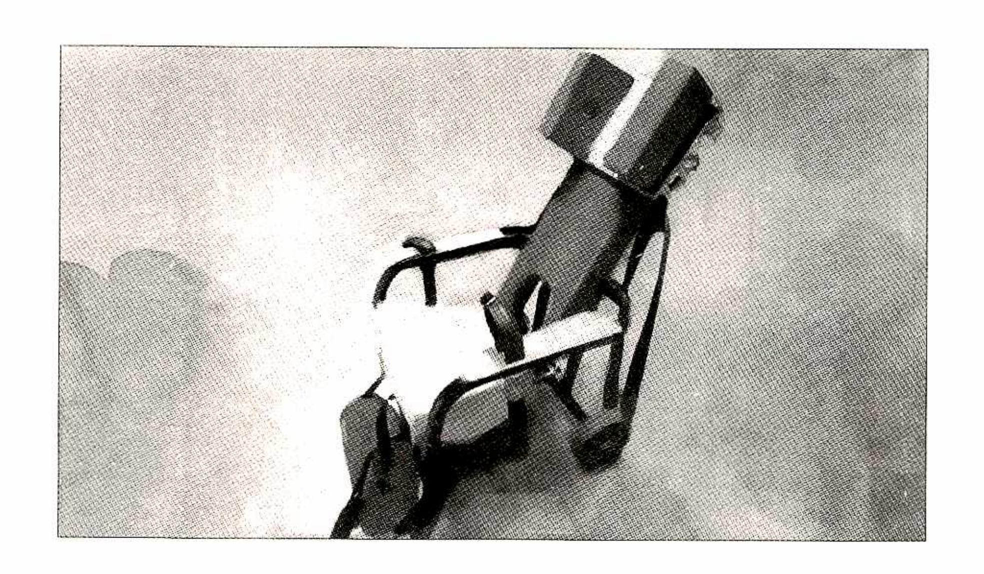
بعد أسبوعين أخذوني إلى التحقيق مرة أخرى قائلين إنهم جاءوني بسمك جيد. سلّموني الأكل فقلت لهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نترك لك الطعام حتى تأكل، فقلت لهم: "أنا اليوم صائم"، قالوا: "لا بأس، سنحضر لك الطعام، فمتى تفطر؟". قلت: "أُفطر عند الغروب ولكنني وقتئذٍ لا أحتاج إلى أكلكم فالأكل الذي يأتيني في الزنزانة يكفيني". قالت المحققة: "لا، لقد دعوناك وسنحضر لك الأكل".

بالفعل قبل المغرب بنصف ساعة أخذوني وكان بجواري الشيخ مطيع، فكلمته في الأمر وشرحت له القصة فقال لي: "يا سامي، هذا رزق ساقه الله إليك، فسمِّ الله عز وجل وكل، وادعُ على من ظلمك".

ذهبت إليهم، وفعلاً أحضروا الطعام ومعه حلويات وشوكولاتة وعصير فواكه، وكانت المرة الأولى التي آكل فيها طعاماً فعليًّا منذ أن اعتُقلت.

أفطرتُ ودعوتُ على من ظلمني امتثالاً لتوجيه الشيخ مطيع، ولما عدت إلى الزنزانة كان الوقت وقت توزيع الطعام، وكان الجنود يعرفون أنّني أكلت، وأخبر بعضهم بعضاً بما رأوا من الأكل أمامي.

فلما حضروا سألوني بصوت خفيض إن كنت أريد أكلاً. فقلـــت: بلى، أريد طعاماً، فقال الجندي: جيد، سنعطيك الطعام حتى لا يعرف الآخرون أنك أكلت هناك، وحتى لا تلفت نظـــرهم. كـــان أمـــراً مضحكاً لأنني لم أَدَعْ أحداً يصل إليه حديثي إلا أخبرته الخبر، ولكن كما يُقال: "ويل للشجي من الخلي".



الفصل التاسع عشر

تناهى إلى أذني صوت خطوات زوجتي تقترب: "أمـــا زلـــت مستيقظاً سامي!" من صوتها اضطرب الطائر الليلي على إفريز النافذة؛ بينما رحت أقول: "نعم يبدو أن ذاكرتي الليلة في توقّد مثير، نعم لقد استدعت الكثير".

"حسناً، أعطني الورقة والقلم وأَمْلِ عليَّ، لأُبدَّ أن يـــدك قـــد أرهقتها الكتابة".

"لا، أرجوك عودي إلى الحجرة وآوي للفراش، أنا بخير و لم يزل هناك ما لم أكتبه". على نحو ما لاح أن حوارنا قد أزعج طائر الليل؛ ففرد جناحيه المهيضين، ثم ضمَّهما ثم ضرب فحلق وطار، وانتبـــهتُ لصوت زوجتي وهي تقول:

"لا، دعني أساعدك، أَمْلِ عليَّ وسأكتب أنا، أنا أعرف العربيـــة وإملاءها على نحو جيد".

بدت زوجتي مصرَّة للغاية؛ لكنني لم أرد لها الإرهاق والســـهر؛ غير أني آخر الأمر قلت لها: "خيرٌ، إذاً خذي الورق والقلم واكتبـــي: في تلك الأيام سمعنا بخروج أول دفعة من غوانتانـــامو، كـــانوا مـــن الأفغان، ومنهم رجل كبير في السن أظنه فوق الثمانين، كان بجواري في عنبر ليما (L) واسمه: حجي فيض الله، وكان معنا منذ بداية مقدمنا

إلى المعسكر، كان ذلك الرجل لا يستطيع فتح كيس الطعام، وكان لا يستطيع أن يفعل أي شيء؛ حتى الجنود أنفسهم كانوا يقولون: إن هذا الرجل لا يستطيع أن ينفع نفسه فكيف يكون مقاتلاً عدوًّا، ويُؤتى به إلى هذا المكان؟!

الرجل عاجزٌ فعلاً وقد بلغ من الكبر عتيًّا؛ حتى إنه لا يستطيع ترتيب شرابه، ولا تنظيف مكان جلوسه، فكان عندما يخرج إلى الحمام أو غيره، يطلب بعضُ الإخوة من الجنود أن يسمحوا لهم بتنظيف زنزانته. جزاهم الله خيراً.

فمن لطف الله عز وجل أن كان هذا الرجل في الدفعة الأولى التي خرجتْ من هذا المعتقل التعيس.

وعندما خرجتْ تلك الدفعة توقفتُ عن الإجابة عن أسئلة المحققين، فيسألون: لِمَ لا تُجِبْ؟ فأقول لهم: لقد وعدتموني أن أكون أول مَنْ يخرج من غوانتانامو، وها قد خرجتْ دفعة أولى و لم أكن من ضمنها. كانوا يحاولون إقناعي بأن تلك الدفعة أفغانية، وستليها أخرى عربية، وأني سأكون من ضمنها.

في أحد الأيام كنت في عنبر سيارة، وكان بعض الجنود يتحرشون بالمعتقلين، يجدون أحدهم نائماً فيوقظونه ويطلبون منه أشياء تافهة كالقيام بتحريك الصابونة عن مكانها مثلاً، أو يصدرون إليه أمراً سخيفاً، كنت أرى الجندي يوقظ المعتقل بتلك الطريقة المزعجة فانزعجتُ غاية الانزعاج، وفي أحد الأيام، أيقظوا معتقلاً يمنيًّا يدعى أحمد عمر.. ففتَّشوه، ثم ضربه أحد الجنود في منطقة حساسة من الجسم، فسقط مغشيًّا عليه من الألم.

لم أتحمل ذلك فقمت باحتجاج أعترف الآن بأنه كان مبالغاً فيه؛ ولكن كما قال عمرو بن كلثوم:

فإن الضغن بعد الضغن يبدو

عليك ويخرج الداء الدفينا

أخذني الجنود إلى عنبر انفرادي هو الأكثر عزلةً، إمعاناً في عقوبتي على ذلك الفعل، وكانت أول مرة أذهب فيها إلى هذا العنبر، وكان في عنبر أوسكار (O)، فحلقوا شعر رأسي ولحيتي وشاربي وقضيت هناك نحو أسبوعين.

في ذلك السجن قابلت أشخاصاً لم ألتقِ بهم على الرغم من أنني سمعتهم يتكلمون، وكنا نتخاطب دون أن يعرف أيٌّ منا الآخر أو يراه.

كان هناك الكندي، والأسترالي ممدوح الذي سمعت منه قصته فيما بعد.

كما تحدثت مع معتقلين سعوديين، مثل أبي زياد الغامدي وسلطان المدني.

تعرفت كذلك إلى أشخاص آخرين كنت في مناسبات سابقة قد سمعت أصواتهم أو رأيتهم بصورة عابرة لحظة فتح نافذة أو تسليم طعام أو غير ذلك، بعد أسبوعين نقلوني من هذا العنبر إلى العنبر المجاور، كان ذلك في شهر نوفمبر/تشرين الثاني، وهو عنبر انفرادي - أيضاً - ومخصص للعقوبات.

عرفنا جميعاً أنهم أخرجونا من ذلك العنبر ليضعوا فيه أحد المعتقلين الناشطين وهو شاكر المدني، كنت قد تعرفت إلى شاكر أيام

قندهار وباغرام، وقدمنا معاً في طائرة واحدة إلى قندهار، و لم ألتقِه بعد ذلك، عرفت أنه من الشباب الناشطين الذين عاشوا في بريطانيا، وهو متزوج بباكستانية، ويعيش وعائلته في بريطانيا، ويتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة. كان رجلاً حركيًّا يفهم ألاعيب الأميركيين، فجاؤوا به ووضعوه في العنبر الذي أخرجونا منه، عرفناه عندما سمعنا صوته وهو ينشد والجنود يحاولون إسكاته.

قمنا بما يشبه العصيان في العنبر، وأخذنا نضرب الحديد، فجاء أحد المسؤولين يستفسر عما حدث، فأبلغناه احتجاجنا على وضع المدني في عنبر نوفمبر/تشرين الثاني (N) وحده، وبقينا على تلك الحال حتى جاؤوا به إلينا في عنبر أوسكار الانفرادي، وبقينا هنالك مدة.

وكانوا يقدمون لنا الطعام في المساء، ويتركون النوافذ مفتوحة، فنتحدث من خلالها.

والنافذة كانت عبارة عن فتحة صغيرة تبلغ تقريباً ثلاث بوصات في خمس أو ست، لا يدخل منها إلا صحن الطعام الصغير.

بعد يوم أو يومين قال لنا شاكر: إنه سمع الجنود الأميركيين يرددون كلمة لا يرددونها إلا إذا كانت هناك مصيبة، وإنه سيحاول تقصي الأمر. بعد العشاء نادى علينا شاكر وقال: يا إخوة يبدو أن أحد المعتقلين قد توفي سريريًّا، ويقولون: إنه سعودي، وكان في عنبر إنديا الانفرادي، وقال: إن الأميركيين يدَّعون أنه انتحر. وفعلاً كنا قد لاحظنا في ذلك اليوم أن النوافذ تركت مفتوحة، وكنا نلاحظ حركة الجنود وهم يلفون حول الزنازين وحول العنبر ويتلصصون من خلال النوافذ، كأنهم يراقبون ما الذي نفعل، وهل هناك حركة مريبة داخل

الزنازين، ولعلهم كانوا يسترقون السمع ليعرفوا ما نتحدث به بيننا، فلما وصلنا الخبر من شاكر تأكدنا أن هناك أمراً غير عادي.

وبالفعل، وبعد ساعة جاءنا أحد الضباط، وقال: إن زميلكم موجود في المستشفى الخارجي، وليس في المستشفى الداخلي، ويستطيع المترجمُ الحديثَ عن حالته لأنه عاينه وشاهده، فجاء المترجم وقال لنا: إن زميلكم سعودي. وذكر رقمه، وأضاف: إنه شنق نفسه، وإنهم حاولوا تدارك الأمر في آخر لحظة؛ لكنهم وجدوه قد مات سريريًّا، وهو الآن يتنفس بواسطة الأجهزة المساعدة، وهو في حالة خطرة جدًّا، وقد وضع تحت العناية المركزة. وشدد على أن هذا ما حدث وأن هذه هي الحقيقة.

تشاورنا فيما بيننا، فألح الإخوة على أنه لأبدَّ من التأكد من الأمر، ولا ندري إن كانوا قد سمعوا حوارنا أو كان ذلك من مصادفات القدر، أحضروا لنا أحد الذين كانوا في العنبر لحظة الحادث، وهو أحمد المغربي أبو عمران، فحدثنا بما جرى وقال: إن الشاب مشعل المدني، الغيور على دينه سعودي الجنسية، من قبيلة حرب، كان الجنود قد جاؤوا بشخص جديد إلى العنبر إنديا (i) حيث كان مشعل يقضي عقوبته، وكان الشخص الجديد الذي يدعى حماد التركستاني (الصيني) يحمل معه مصحفاً، وعند باب الزنزانة المقابلة لزنزانة مشعل أخذ الجنود المصحف من حماد بقوة ورموه على الأرض ودفعوا الشاب على وجهه وهو يصرخ: دنسوا كتاب الله!

عند ذلك، بدأ الضرب على الأبواب من قبل المعتقلين، فانتشر الجنود في العنبر وأطفؤوا النور، واقتحموا زنزانة الشاهد الرئيس الذي بدأ بضرب الأبواب (مشعل المدني)، وفي أقل من ربع ساعة دخل

الطاقم الطبـــي إلى العنبر وحمل مشعلاً على نقالة ودمه يســـيل، رأى بعض المعتقلين المشهد، فازداد الاحتجاج والضرب على الأبواب، كي تشعر العنابر الأخرى المجاورة بأن هناك مشكلة ما. وكانت هذه من الطرق المستخدمة عند المعتقلين.

دخلت "قوات مكافحة الشغب" وأفرطت في استخدام القـــوة، وبسبب العنف الذي مارسته، نُقل ثلاثة بعد مشعل إلى المستشفى.

في اليوم التالي حضر فريق من المباحث الجنائيـــة بملابســـهم البيضاء، وقاموا بالإجراءات المعهودة؛ من رسم المكان والحـــادث وشمّعوا الغرفة، ثم إفراغ عنبر إنديا من المعتقلين وجاؤوا بـــــي إلى أوسكار.

بعد الحادثة بدأ المعتقلون يتشاورون للقيام بعمل جماعي ينصرون به قضية مشعل؛ لأن الإدارة كانت تسعى لإخفاء الحقيقة، ولا سيما أنها أعلنت في الإعلام الخارجي أن مشعلاً حاول الانتحار وتـــدخل الجنود لإنقاذه.

ونجحت الإدارة في تزييف الحقيقة وإشغال المعتقلين بفتح السجن الرابع؛ بيد أن وقع سلاح الإضرابات والاحتجاجات وزيارة بعـــض الصحفيين واكتشافهم بعض الحقائق عن حجم الإهانـــة والتعـــذيب الذي يمارس في هذا السجن، تطلبت عملاً واقعيًّا لمعادلة تلك الصورة المرعبة التي وصلت للعالم؛ وذلك باتخاذ إجراءات أخفَّ وطأةٍ، فأنشئ سجن المعسكر الرابع لإسكات الرأي العام العالمي، وإغراء ضـــعفاء العقول وإيقاعهم في فخ التجسس والعمالة لمصلحة الإدارة الأميركية.

لقد كانوا يحرضون المعتقلين ويغرونهم بأن يشهد بعضهم علـــى بعض ليُنقلوا إلى السجن الرابع، تمهيداً لإطلاق سراحهم.

وقد نجحوا نوعاً ما في كسب عدد قليل ممن وقعوا في الفخ وتكلموا في الإعلام بما يرضي الإدارة الأميركية، وأظهرهم الشاشات التلفزيونية بلباس أبيض، وهم يلعبون ويمرحون!

والحقُّ أن أولئك كانوا قلة لا يمثلون المعتقلين، ولا الصورة الحقيقية لما يجري في المعتقل!

كما جيء إلى المعسكر بأناس أفاضل مشهود لهم بالخير والثبات، لإيهام الناس أن أولئك الأخيار يتعاونون مع المحققين ويمدونهم بالمعلومات، كل ذلك من أجل التشويش على الصامدين.

والحقيقة خلاف ذلك؛ إنما هو المكر والخديعة ومحاولة تشتيت الشمل وتمزيق الوحدة.

لقد كنت من المعتقلين الذين يودون لو أن الجميع امتنعوا من ذلك؛ حتى لا يعطوا الفرصة لإنجاح مخطط الإدارة.

ما زالت حادثة مشعل تغلي في الأذهان.. وبعد مشاورات، وعلى الرغم من حاجتنا إلى المصاحف، فقد قررنا تسليمها، وفضَّلنا عدم الاحتفاظ بها، حتى لا تتعرض للتدنيس.

بدأ الأمر يلقى قبولاً بين المعتقلين، وشعرت الإدارة بأن أمْر الاعتداء على المصاحف سيُكشف للرأي العام.. فأصدرت على الفور أمراً بإلزام المعتقلين أخذَ المصاحف، وجهّزت فرق الشغب وبدأ اقتحام الزنازين وإدخال المصاحف عنوة خلافاً لقانون آخر كان قد صدر في شهر رمضان المبارك يحظُر المصاحف؛ لأنها تخفف عن المعتقلين الضغوط النفسية حسبما جاء في بيان الإدارة.

غير أن تطبيق أيٍّ من القانون قد وُكـل إلى أهـواء المحققـين، فيطبقون القانون الأنسب للضغط على المعتقلين.

وفي سبيل تطبيق القانون الجديد، تعرَّض كثير مـن المعـتقلين للضرب على مدى يومين كاملين، وكانت تلك حادثة مشهورة.

وأذكر كيف أنهم عندما أخرجنا المصاحف ورفضنا أخذها مرة أخرى، أعادوها إلينا بالقوة، حتى لا يتأثر الرأي العام الخارجي بتخلينا عن المصاحف خشية تدنيسها.

كان أفراد وحدة مكافحة الشغب يدخلون علينا، ويرشون مادة مسيلة للدموع أو حارقة على جسد أحدنا أو عينيـه ثم يُخرجـون الواحد منا، ويضعون المصحف داخل زنزانته، ثم يعيدون المعتقلين بعد ضربهم.

نظَّمنا يومئذٍ احتجاجات في كل العنابر بعد إرجاع المصـاحف إلينا بالقوة، وكان مع الجنود مترجمون عرب يساعدونهم، وقد تدافعنا معهم ما وسعنا ذلك، وواصلنا الإضرابات والاحتجاجات.

وبعد تلك الأحداث، نُقلت إلى عنبر بابا (P)، وهناك التقيت بحماد ومصطفى وأبـي أحمد السودانيين، وبعضهم لقيتـه لأول مرة.

كما قابلت هناك إخوةً آخرين أول مرة، فبقينا فترةً في الدرجة الثالثة من عنبر بابا (P)، ثم نقلوني إلى عنبر "فاكستر" (F) في الدرجة الثانية منه.

وفي اليوم الثامن، نقلوني إلى الدرجة الثالثة من عنبر مايك، كان ذلك العنبر مخصصاً للتحقيقات، فتجد فيه معـتقلين مـن مختلـف الدرجات لا يجمع بينهم إلا هذا العنبر.

هناك أخذتني المحققة وقالت لي: أنا أتيت بك إلى هنا حتى أحميك من الجنود، وأمنعهم من أذيَّتك وإهاناتك، لا أحد يستطيع أن يؤذيك ما دمت في مايك.

كان إلى جانبي عبد العزيز المدني، وممدوح الأسترالي، وعادل الزامل الكويتي، ومحمد ولد صلاّحي الموريتاني، الذي سلمتْه السلطات الموريتانية للأميركيين عن طريق الأردن بعد تحقيق دام ستة أشهر تحت التعذيب في الأردن.

وكان معنا - أيضاً - أبو مهما المكي، وداوُد الأسترالي.. وأشخاص آخرون لا أتذكر أسماءهم.

لأول مرة أسمع تفاصيل قصة ممدوح الأسترالي الذي اعتُقل في باكستان، ثم أرسل إلى مصر، وعُذب هناك تعذيباً نُكراً، قبل أن يرسل إلى قندهار، ويرحَّل منها إلى غوانتانامو.

سمعت منه القصة بالتفصيل، بعد أن كنت قد سمعتها مختصرة من قبل.

كان ممدوح يزعم أنه تعرض لتعذيب ممنهج في مصر هو وباكستاني يسمونه في غوانتانامو سعد المدني الباكستاني.

وذات مرة كنت "أتشمس"، فإذا به يتكلم العربية كأحسن ما يتكلمها أبناؤها! وهو حافظ لكتاب الله يرتله بصوت نديٍّ، وكان يقلّد قراءة الشيخ عبد الرحمن السديس، إمام الحرم المكي.

حدثني سعد الباكستاني عن نفسه، بعد أن أخبرته بأنني صحفي، فزعم أنه قبض عليه في ماليزيا قادماً إليها من باكستان، وأنه رجل أعمال وقارئ للقرآن، وكان يدرِّس لأبناء الرئيس الباكستاني، وأن له علاقات واسعة، وقد تعلم القرآن في المدينة

المنورة؛ حين كان أبوه سفيراً في السعودية.

ومن اللافت في ذلك العنبر أنـــه أصـــبح تجمعـــاً للمعـــتقلين السودانيين، أذكر منهم: أبو أحمد الذي تقدم ذكره، ومحمد صـــالح، وعادل حسن اللذينِ لقيتهما هنا لأول مرة، كنا نحن الأربعة في صف واحد في زنزانات متجاورة.

أخبرتني المحققة أن في غوانتانامو اثني عشر سودانيًّا، تسعة منـــهم ملفاتهم جاهزة للسفر، وثلاثةٌ ما زالوا قيد التحقيق، وقالـــت: إنهـــا جمعتنا ليؤنس بعضنا بعضاً حتى يتم الإفراج عنا.

طبعاً كان المقصود أن يحدث بعضنا بعضاً فيلتقطوا من حديثنا ما يظنون أننا أخفيناه عليهم في التحقيقات، ويتعرفوا إلى بعض ما خَفِي عليهم من صِلات بيننا وعلاقات إن وُجدت.

كما تعمد المحققون جمعنا؛ لأن أنس بعضنا ببعض قـــد يطلـــق ألسنتنا فلا نتهيب الحديث فيما بيننا بما لا يعرفه المحققون.

كنا نُروِّح عن بعضنا بعضاً فنقول على سبيل المزاح: إذا أصـــبح فلان رئيساً في المستقبل فيتسلم فلان وزارة كذا ويعين فلان وزيـــراً لكذا.. وهكذا...

وكنت أقول لهم، على سبيل الأنس والدعابة: ســـتكون وزارة الإعلام من نصيبـــي.

ظللنا على تلك الحال في عنبر مايك (M) فترة من الـــزمن، ثم حولوني إلى عنبر فاكستر (F)، وبعد أن أمضيت فيـــه أســـبوعين.. أعادوني إلى "المعسكر الثاني" مرة أخرى، حيث بقيت في "سيارة" (S) فترة من الزمن، ثم أرجعوني إلى عنبر كيلو (K)، وهناك بدأت سلسلة جديدة من المشكلات.

كنا قد نظمنا احتجاجاً على ما حدث لعبد الهادي، وهو من خيرة المعتقلين خُلقاً، وكان من الذين إذا جُلبوا إلى غرفة التحقيق تعرَّضوا للتعذيب وكثير من المعاناة.

في ذلك اليوم تجرأ المحقق على كتاب الله فدنسه برجله، وأمر بحزم عبد الهادي وربطه بالعلم الإسرائيلي، وبعد تردد شديد، قرر عبد الهادي إخبار زملائه المعتقلين بما حدث، وكان من عادته أن يكتم ما يلاقيه من تعذيب حفاظاً على معنويات إخوانه، إلا أنه في هذه الحادثة خشي الإثم إن كتم ذلك.

شرع بعض المعتقلين يدعو إلى الإضراب والاعتصام، فاعتصم بعضهم وقرروا عدم الخروج من الزنازين احتجاجاً على تدنيس كتاب الله، كانت إهانة المصحف تتم على مرأى ومسمع من المعتقلين، وقد بدأت مشاكلنا بإهانة المصحف في قندهار، حيث كنا نراهم يمزقون المصحف، وعند التفتيش كانوا يركلون المصحف بأرجلهم النجسة.

وفي غوانتانامو، تواصلت استفزازاهم لنا برمي المصحف وكتابة الألفاظ البذيئة عليه، وترك آثار أحذيتهم النجسة على صفحاته، أذكر من بين تعديات سافرة ومتعددة أنه عندما كنا في كيلو (K)، اعتدى الجنود على أحد المعتقلين ثم نقلوه من مكان إلى مكان، كان ذلك المعتقل يحمل معه مصحفاً فضربه العسكري على يده وأسقط المصحف، فاعترضنا جميعاً، في جميع المعسكرات، وقررنا الدخول في إضراب نمتنع بموجبه من الخروج من الزنزانات.

وبالفعل اختارني الأسرى في عنبر كيلو لأرتِّب الأمور، فتوصلنا إلى الاتفاق مع العنابر المجاورة بعدم الخروج.

وبما أن المعتقل يفتش يوميًّا.. وبما أننا رفضنا الخروج من الغرف ورفضنا التمشي.. فقد أحضروا قوات مكافحة الشغب، وكانت الفرقة التي تقتحم الزنزانة تتكون من ستة جنود يرتدون الخوذات ويضعون البلاستيك على أيديهم وأرجلهم، ويتدرعون بواقيات على صدورهم وعلى أطرافهم.

جاؤوا في شكل رتل، ومعهم مجموعة من المسؤولين والجنود المساندين. كان عددهم يفوق عشرين فرداً.

ومن عادتهم أنهم عندما يأتون إلى المعتقل يقوم المسؤولون والضباط بشغل الشخص المعتقل بالحديث، بينما يرش شخص آخر على عيني الأسير وجسده مادة من الفلفل، تصيب العيون بحرقة شديدة، كما أنها مسيلة للدموع، ويتعمدون رش المادة على بقية الجسم، بحيث لو وضع عليها الماء تزداد تفاعلاً وحرقة!

وبالتزامن مع ذلك، يداهمونه بالقوة ويفتشونه ويأخذونه إلى الخارج بعد أن يشبعوه ضرباً.

وقد ركزوا على عنبر كيلو (K) عندما واصلنا الاحتجاجات وصمدنا أياماً عدَّة على تلك الحال، ثم جاؤوا وأبلغوني أنه تقرر نقلي من هذا المكان.

تشاورت مع الإخوة، فقالوا: إن كان نقلاً فاخرج معهم. فخرجت معهم، وكانوا يريدون ضربي فأخذوني إلى العنبر الانفرادي في أوسكار (O)، وهناك دفعوني من سلم العنبر المرتفع، وهو سلم حديدي، فتشبثت بأحد الأعمدة على طرفي السلم ولم أسقط، فدفعوني مرة أخرى على الأرضية التي كانت متَّسخة وفيها بقايا حلاقة شعر المعتقلين ولُحاهم...

وعندما لم أسقط.. كبَّلوني، ثم دفعني أحد الجنود علــى الأرض وأنا مقيد ومكبل اليدين والرجلين، وأمسك برأســي مــن الخلــف وضرب مقدِّمته بإسمنت الأرضية، مما تسبب لي في جرح عميــق في جفني..

ثم ركلني برجليه وضربني بقبضتيه، ثم قاموا بحلق شعري ولحيتي وشاربــي، وبعد ذلك أدخلوني إلى زنزانة انفرادية، وهنــاك فكــوا القيود من رجليَّ، وتبادلوا رفسي وركلي وضربــي...

كانوا أكثر من عشرة جنود، وكان الدم ينزف مــن أمــاكن متعددة من جسدي، ثم أغلقوا علي الزنزانة ونظروا إليَّ من النافــذة، فلاحظوا أن الدماء تسيل بغزارة وأن أرضية الزنزانة اصطبغت باللون الأحمر وأنا جالس أدعو الله عز وجل عليهم.

أرسلوا طبيباً من المستشفى، فاقترب من النافذة ونظر إلى عينيَّ، وكانت الدماء تغطي وجهي وملابسي، فطلــب مــني الاقتــراب فرفضت، فعرض عليه الجنود اقتحام الزنزانة فنهاهم عن ذلك.

بقيت على تلك الحال حتى قاربت الإغماء، واتكــأت علــى الباب، فجاء وأمسكني من رأسي وهو في الخارج، وجذبني إليه مــن خلال الفتحة وضمد جرح الجفن الذي كان ينزف بغزارة، وخاطــه من خلال تلك الفوهة الصغيرة!

تركوني هناك ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أخذوني إلى التحقيــق، فرفضت الحديث مع المحقق، فلما رأى الجروح والكدمات في جسدي طلب نقلي من التحقيق إلى المستشفى.

أخذوني إلى العيادة، وهناك ضمدوا الجروح، وفتحــوا ملفــاً بذلك؛ لكنهم لم يحققوا مع أي جندي بشأن الموضوع!

كان الاتهام أنني قاومت الجنود، وأنا في الحقيقة لم أقاوم لأنني كنت مكبلاً ومقيد اليدين والرجلين، ولا أستطيع فعل شيء سوى رفض الاستجابة لأوامرهم.

ثم علمت من المحققين أن الجنود فعلوا بي ما فعلوا بسبب ما قمت به من تحريض للإخوة في العنبر، قالوا لي: "إنك كنت تحرض المعتقلين، وهذا جزاء من يفعل ذلك".

لم أبتئس، فبقيتُ أسبوعين في زنزانة انفرادية باردة، وأنا على وضع مؤلم، والجروح منتفخة، وبعضها متقيح...

ثم حولوني إلى عنبر تانغو (T)؛ ومن ثَمَّ إلى عنبر "سيارة"، وبقيت في "سيارة" أشهراً عدة نقلوني بعدها إلى عنبر "بابا" (P)، ومنه إلى فاكستر (F) حيث بقيت أياماً معدودة، وهو في الدرجة الثانية، ثم عادوا بي مرة أخرى إلى عنبر مايك (M)، فالتقيت لأول مرة مع جمال الأوغندي، وهو معتقل من أوغندا كان يعيش في بريطانيا، وقد جاورتُه مدةً طويلة، وكان بجوارنا - أيضاً - محمد القرعاني، وهو شابٌ تشادي صغير السنِّ، مولودٌ في المدينة المنورة، وقُبض عليه في باكستان.

كما كان معنا - أيضاً - جمال البريطاني، الذي جمعتنا به قواسم مشتركة، لا تقتصر على الأَسْر والمعاناة، بل ولوْنُ البشرة، فكان الجنود يسبوننا بألفاظ عنصرية وبأننا زنوج (Negro) مع أن القاموس الحديث استبدل تلك الكلمة بصفة أسود (Black).

وكثيراً ما كانوا يعتدون علينا من دون سبب؛ بتفتيش غرفنا، وتعمد إزعاجنا بشتى الطرق. بقينا في مايك، بينما نُقل جمال البريطاني إلى المعسكر "الرابع".

الفصل العشرون

مضى هزيعٌ من الليل، وشعرت بالعطف على زوجتي، فأخذت منها القلم والأوراق، وقدمَا إلى الحجرة وأنا أردد: "إن أردت راحتي فاخلدي للنوم، أرجوك". أغلقتُ باب الحجرة وعدتُ إلى مجلسي أتامل الليل العربي. من أجلي عاد الطائر المسكين فحطَّ على إفريز النافذة، وانطلق يُغَنِّي لي فيُشجيني.. يبُثُّ شجونه على نافذة منزلي، هنا في الخليج العربي.. فيثير شجون آلامي في العُدوة القصوى، في خليج غوانتانامو...

لقد جافاني النوم، حتى وجدتُني أكرِّرُ مع الشاعر غيلان ذي الرمَّة:

فَبِتُّ بلَيْلِ الآرِقِ الْمُتَمَلْمِلِ

وتزاحمتْ في ذهني ساعاتُ القَسوة البربرية، في معتقل غوانتانامو.. حيث الكراهية، وحيث يتعطَّش السَّجَّان للعنف؛ فيبالغ في الضرب والرّكل، والسبِّ والشَّتم.. ثم لا يروي الغليل إلا بتعرية أجسادنا التي أنهكها الهزال!

لم أكن أصدِّق أن يصل الأمر بالسجانين إلى تعرية بعضنا أمام بعض!

كانت البداية من عنبر إنديا (i) حيث جُرِّد الأخ جمعة الدوسري

من لباسة على مدى شهرين كاملين وأسيئت معاملته.

من عادة الإدارة، في معتقل غوانتانامو، أنها إذا أرادت تطبيق عقوبة جرَّبتْها على شخص واحد، أو على مجموعة قليلة من المعتقلين، ثم بعد ذلك تعمد إلى تطبيقها على الجميع؛ ولذلك خصصت الإدارة عنبر روميو (R) وصممته على نحو خاص، بحيث يحتوي على ثمانٍ وأربعين زنزانة موصدة من الأمام بزجاج بلاستيكي شفاف، يفصله شباك من حديد صلب، مغطى من جوانبه بنافذتين: إحداهما كبيرة؛ والثانية صغيرة، لا يرى من كلتيهما شيء.

كانت الأضواء تُسلَّط علينا من كل جانب ونحن نُعرَّى!

وكان المرحاض عبارة عن حفرة صغيرة يخرج الماء من جانبها، وقد يُصدم القارئ إذا علم أن ذلك هو الماء الذي نشرب منه، وبه نغتسل!

لم يكن نظام العنبر يسمح لأي معتقل بأن يلبس ملابسه، بل لا بُدَّ أن يبقى في ملابسه الداخلية فقط!

أمَّا الطعام فكان يوزع في ورق المرحاض! ولم تكن الوجبة سوى قطعة عجين مخلوطة بخضار لا طعم لها ولا رائحة!

بعد أن اكتمل بناء العنبر نُقلتْ إليه مجموعة من المعتقلين الذين كانوا في العنبر المجاور.

ووصل الخبر إلى بقية العنابر، فبدأت المشورة على الفور بين المعتقلين للتصدي لهذا العدوان الذي يمس عوراتنا وشعائر ديننا.

وبعد يوم من التشاور، اتفق المعتقلون على عدم الخروج من الزنازين؛ احتجاجاً على التعدي والعدوان على الخصوصية.

ومع أني حينئذ كنت أرى أن الاعتصام غير مناسب؛ نظـــراً إلى عدم تكافؤ القوى، وأنه قد يجعل السجانين يمعنون في أذى المعتقلين.. فإنه - على الرغم من ذلك - كان أجدى من عدم التحرك للتصدي لذلك المسلك الهمجي.

تضامن الجميع وامتنعوا من الخروج من الزنازين باستثناء أفـــراد قلّة.. فشُلَّت الحركة داخل المعسكر.

عند ذلك، قررت الإدارة إدخال قوات مكافحة الشغب علينـــا، فتفنَّنَ أفرادُها في أساليب الضرب والإيـــذاء، فكُســـرت الأيـــادي والأرجل وتورمت الوجوه وانتفخت..

استمروا قرابة شهر وهم يتفننون كل يوم في أساليب التعـــذيب البدني العنيف.. وأطلقتْ أيدي فرق مكافحة الشغب فظلت تطحـــن المعتصمين طحناً، ليلاً ونهاراً.. فلا تسمع إلا الأنـــين ولا تـــرى إلا الدماء. ألا بُعداً للظالمين.. غُلَّت أيديهم!

في الأيام الأولى كانوا يحلقون شعر الرأس على شكل صـــليب وأشكال مقززة ومهينة، ثم توقفوا عن ذلك النوع من الحلاقة.

كان موظفو الصليب الأحمر حاضرين؛ ولكن دورهم في أحايين كثيرة لم يكن يتجاوز توصيل الرسائل التي ربما نجدها وقد شـــطبت منها جُمَل (وأحياناً سطور)، كما كان المحققون يستغلونهم للحصول على معلومات من الأسرى، عن طريق التنصتِّ لما يدور بينهم وبـــين المعتقلين من حديث.

ثم إني قُيِّضت لي فسحة من الأمل، حينما حضر إلى المعســـكر وفد من السودان، وجاءني عدد من الجنـــود وأدخلـــوني إلى غرفـــة التحقيقات وسألوني: هل تريد أن تقابلهم؟

أبلغتهم أنني لم أكن على علـــم بمَقْـــدمهم، ولكـــنني أرحـــب بمقابلتهم.

فكوا القيود من يديَّ؛ لكنهم تركوا القيود في رجلي.

قابلت سودانيَّيْنِ اثنين، أحدهما عرَّف نفسه بعثمان والآخر قال: إن اسمه خالد.

قبل أن أتحدث إليهما، طلبت منهما إبراز أوراقهما الثبوتية، فقد تعوَّدنا في جزيرة غوانتانامو أن نقابل أشخاصاً من جنسيات مختلفة (بما فيها الجنسية السودانية) يعملون مع هؤلاء الأميركيين في مجال الترجمة وغيرها من المجالات الأخرى.

ذهب عثمان لإحضار جوازي سفرهما، وبقي معي خالد وبدأنا حديثاً عاماً عن أخبار السودان، كان ذلك في عام 2003، وكانـــت فرصة طيبة لسماع أخبار البلد لأول مرة من مصادر سودانية.

طمأنني خالد بأن أحوال البلد آخذةٌ في التحسُّن، وأن البتـــرول قد استُخرج وبدأ يحقق عائداً مقبولاً.

وبعد نصف ساعة أتى عثمان ومعه وثائق السفر التي تثبت أنهما مقبلان من الخارجية السودانية.

تحدثت معهما بشفافية كاملة، وأخبرتهما عن نفسي، فقالا: نحن أتينا هنا لنتعرف إلى أوضاعكم، ونكوِّن صورة حقيقية عن أســـباب وجودكم هنا.

رويت لهما قصتي كاملة من حادثة توقيفي إلى أن وصـــلت إلى غوانتانامو، وقدمت لهما شرحاً إضافيًا عن أوضاع السجن وأساليب التحقيق، وكيف كانوا يخدعونني بأنني على وشك الخروج والرجوع إلى السودان، وما شابه ذلك.

استمعا إلى قصتي بانتباه، وقالا لي: قصتك واضحة، ونحن نرى أن هناك سوء فهم، وسنبذل قصارى جهدنا لتعودوا إلى السودان في أقرب وقت.

وبيَّنا لي أنه ليس بمقدورهما الآن فِعْلُ أي شيء خلال هـذه الزيارة؛ فقد جاءا في رحلة استكشافية لفهم القضية، وسيرفعان الموضوع إلى جهات الاختصاص في البلد لتبدأ التحرك في الموضوع.

أخبرتهما كذلك عن بقية السودانيين الموجودين في غوانتانامو، كما أبلغتهما عن الإهانات وكيف يُترك المعتقلون في سراويل قصيرة، وكيف تتم تعريتهم، ثم كيف تمادى الحراس فأهانوا القرآن... وقد كنت صادقاً معهما، ودقيقاً في إفاداتي.

أخبرتهما أن الأميركيين طلبوا مني العمل معهم، وأني رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، وأنهم ما زالوا يحاولون إقناعي بذلك ولكني مُصرٌّ على موقفي حتى النهاية.

في آخر المقابلة سألاني إن كانت لديَّ رسالة، وعندما التقيت بهما في اليوم الثاني سلمتهما رسالة موجهة إلى الرئيس عمر البشير، أطلب منه فيها التدخل في قضيتنا؛ أخذاً بالأسباب لا مدافعة لقدر الله عز وجل.

وفي الرسالة عكستُ معاناة بقية المعتقلين السودانيين الموجودين معنا؛ خصوصاً أن الكثير منهم لا يملكون أي معلومات عن أسرهم أو زوجاتهم وأبنائهم منذ فترة طويلة، وأن وضعيتي أفضل، مقارنةً بهم، فأنا أعرف مكان إقامة أسرتي، وأعرف أن الجزيرة تصرف لهم راتبي.

ولم أنسَ أن ألوم الوفد السوداني على تأخره، فالوفود بدأت تترى على المعتقل منذ عام 2002، بينما لم يحضر الوفد السوداني إلا في أواخر عام 2003م.

كنت صريحاً معهما كطبيعة السودانيين في التعامل بشفافية تامة ووضوح كامل.

بعد تلك الزيارة بفترة نُقلتُ إلى المعسكر الأول ووُضعتُ في عنبر إيكو (E) لأول مرة.

بقيت هناك فترة، ثم نُقلت إلى عنبر فاكستر (F)، وفي 15 من ديسمبر/كانون الأول من عام 2004، نقلوني إلى المعسكر الرابع الذي كان عبارة عن معسكر نموذجي فيه خمسة عنابر، كل عنبر يحتوي على أربع غرف، وكل غرفة تحتوي على عشرة أسرَّة، وهو السجن الجماعي الوحيد الموجود في غوانتانامو، وفي وسطه حمام جماعي فيه أماكن للاستحمام، ومراحيض، ومغاسل وأحواض للوضوء، وفي كل غرفة حمام خاص بها.

والعنابر الخمسة التي ضمَّها هي: يونيفورم (U)، وويسكي (W)، وزولو (Z)، ويانكي (Y)، وفيكتور (V).

نقلوني إلى الغرفة رقم ثلاثة من عنبر زولو، فوجدت هناك مجموعة من المعتقلين اليمنيين، ونِعْم الإخوة كانوا!

فيما بعد، أحضروا أبا أحمد السوداني، وكانت كل غرفة مُعدَّة لتضم عشرة معتقلين؛ ولكنها لا تمتلئ، فيكون هناك ستة أو سبعة في الأغلب.

كان القصد من هذا المعسكر دعائيًّا، فكانوا يحضرون إليه الزوار الأجانب من دون أن يسمحوا لنا بالتحدث إليهم.

الفصل الحادي والعشرون

مجدداً عادت زوجتي وأخّت:

"إما أن تخلد للنوم وإما أن تدعني أجلس قربك ها هنا".

فأشرت لها أن تجلس ناظراً نحو النافذة التي على عجل غادرها طائر الليل الجريح.

"خذي القلم والورقة إذن واكتبي يا أم محمد".

"هيا أملي عليَّ يا أبا محمد".

"حسناً اكتبي: هناك قضية استحوذت على اهتمام وسائل الإعلام، ألا وهي:

هل جزيرة غوانتانامو أرضٌ أميركية؛ فينطبق عليها القانون الأميركي؟

أم أنها أرض كوبية؛ فتكون خارج الاختصاص الترابي للقضاء الأميركي؟!

صدر حكم قضائي بأن الأرض أميركية؛ ولكن المعتقلين فيها لا يشملهم القانون الأميركي!

أرادت الحكومة الأميركية أن تصرف الموضوع عن واجهة الإعلام، فشكّلت محكمة صورية لإسكات الرأي العام.

كانت محكمة عسكرية مكونة من قاضٍ ومُدَّعٍ عامٍّ وضابط عسكري يمثل المعتقل!

يعرض عليك المدعي العام تُهماً تشمل ما فكَّرتَ به وما نويته حتى و لم تفعله!

ثمَّ يبلغك القاضي أن هناك أدلة "سرية" لا يسمح للمعتقل بالاطلاع عليها، فضلاً عن الرد عليها!

وتطلب المحكمة من الضابط المساعد للمعتقل أن ينوب عن المتهم، سواء برضاه أو بغير رضاه!

وفي غوانتانامو.. حدثت أمور لا أعلم لها مثيلاً في تاريخ القضاء العسكري ولا المدني!

فمساعدي هذا مثلاً قد لبس ثوب الادعاء، ومثَّل الاتهام في مراحل لاحقة من جلسات المراجعة! حدث ذلك معي شخصيًّا، وسأذكر تفاصيله في موضع لاحق من هذا الكتاب.

هكذا، إذاً، وبكل جرأة.. أنشؤوا هذه المحكمة وخولوها محاكمة ما يزيد على سبعمائة شخص.

في أواخر عام 2004 وُجهت إليَّ اتهاماتٌ ذاتُ خلفية سياسيَّة، بعد أن تعرض البيت الأبيض ووزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) لضغوط سياسية وحقوقية، يلخِّصها سؤال واحد:

لقد اعتقلتم المئات في ظروف غير إنسانية، وخالفتم جميع النظم القانونية لديكم ولدى الدول المتحضرة، ومع ذلك لم تستطيعوا أن توجهوا إليهم اتهاماً واحداً، أو تقدموهم إلى محاكم عادلة! فلماذا؟

وبناءً على تلك الضغوط، وفي محاولة للخروج من ذلك المأزق السياسي والقانوني.. قررت وزارة الدفاع إنشاء محاكم عسكرية لتصنيف المعتقلين بين من هو "مقاتل عدو"، ومن هو غير ذلك.

أُخبرنا أن جميع المعتقلين في غوانتانامو سيخضعون لعمليات تصنيف قبل تقديمهم إلى المحاكمة العسكرية، وسيحدِّد ذلك التصنيف مدى خطورة المعتقل على أمن الولايات المتحدة الأميركية، وهل يعتبر هذا المعتقل أو ذاك "مقاتلاً عدواً"؟ أم لا!

بدأت إجراءات المحاكمة وأُخبرنا أنها ستُشكَّل من قضاة عسكريين تابعين لوزارة الدفاع، على أن يُوفَّر لكل معتقل مساعدٌ من وزارة الدفاع أيضاً!

فعلمنا أن ذلك العسكري لن يكون حافظاً لسر المعتقل، بقدر ما سيكون مصدر معلومات للقضاة!

والعجب، كل العجب.. أن يكون هذا العون القانوني للمعتقل هو في الوقت نفسه عوناً للقاضي، يمده بما يحصل عليه من أسرار المعتقلين!

وبما أننا - نظريًّا على الأقل - خصومٌ للعسكريين، فكيف يكون الخصم حكماً!؟

بمعنى، كيف يمكن لمعتقل لدى القوات الأميركية أن يثق بمحكمة أميركية عسكرية في جميع تفاصيلها، من قضاة ومحامين ومساعدين، وفوق كل ذلك، سوف يطبق قانون عسكري، وسوف تُتَّبع إجراءات عسكرية!

وما زاد في عجبي: وجود بند يشير إلى أن هناك معلومات سرية وأدلة سرية ستبني المحكمة قرارها عليها!

والأغرب من ذلك أن هذه الأدلة لا يُسمح للمعتقل صاحب الشأن أن يطلع عليها!

كيف يمكن لأي متهم أن يدافع عن نفسه في وجه أدلة ومعلومات سرية يطلع عليها القاضي - الخصم وحده؟

تلك أسئلة طرحناها على الجنود، فحاروا جواباً!

وقف حمارهم في العقبة؛ لأنهم يعلمون أنها إجراءات تخالف منطق القانون والمحاكم، بل هي ضد منطق الأشياء أصلاً!

عندما تسلمت البيان الذي أصدرته وزارة الدفاع، قلت للمسؤول العسكري الذي حمل إليّ الأوراق:

كيف تقدمونني إلى محكمة عسكرية وأنا لست عسكريًّا؟!

تعلمون أني مدني، وأني اعتُقلت وأنا أؤدي رسالتي الإعلامية بمهنية..

ولا علاقة لي بأي عمل عسكري، فبأي حق ترسلونني إلى محكمة عسكرية؟!

أجابني جواباً مقتضباً، قائلاً: "هذا سؤال لا أستطيع أن أجيبك عنه، فمهمَّتي تنحصر في تسليمك هذه الأوراق، وإخطارك أن هناك محكمة عسكرية ستعقد في غضون الأشهر القليلة المقبلة".

بعد أشهر عدَّة، اتصلوا بـــي وأخذوني إلى شخص يرتدي بزَّةً عسكرية أميركية، فجلست أمامه مقيداً، فقال لي:

أنا الشخص الذي سوف يساعدك في المحكمة العسكرية، وأريد أن أبلغك بأنني لا أستطيع أن أخفي عن القضاة أي معلومة تقولها لي، وبموجب القانون علي أن أبلغهم بكل ما يدور بيني وبينك!

فرددت عليه: كيف تقدم نفسك لي باعتبارك مســاعداً لي وفي الوقت نفسه تخبرني بما يخلٍّ بصفتك القانونية تلك!

ألا تتحول بذلك إلى متآمر مــع القاضـــي العســكري ضـــد مصالحي؟!

بأي منطق تسمي نفسك مساعداً؟ أنت إذنْ مساعدٌ للمحكمة، لا للمتهم!

وحتى يبين لي أن له دوراً في المساعدة بعد تلك المناقشة، قال لي: إنني أريد أن أبلغك بأن لك أن تطلب شهوداً يحضرون الجلسة.

فابتدرت بالسؤال: هل تسمحون بقدوم شهود من الخـــارج إلى غوانتانامو؟

قال: نعم؛ ولكن هناك بعض العقبات، فهؤلاء الشهود سيجدون صعوبة في الدخول إلى هنا؛ لأن هذه الجزيرة يمنع على غير الأميركيين دخولها إلا بتصاريح خاصة.

قلت له: معنى ذلك أن من أريد شهادتهم لا يستطيعون الحضور، وإن حضروا فسيكون ذلك بصعوبات كبيرة! فعـــن أي مســـاعدة وشهود تتحدث؟

وزيادةً في الإحراج سألته: هل هنالك ضمانات بـــأن هـــؤلاء الشهود سيعودون إلى بلادهم؟

أم أنهم قد يجدون أنفسهم بجوارنا في الزنزانات؟

قال لي: لا أستطيع أن أجيبك عن هذا السؤال، فالولايات المتحدة الأميركية تعتقل كل من تظن أنه يدعم الإرهاب أو يتواصل مع الإرهابيين، فحتى شهودك الذين ستأتي بهم إذا وجدنا أي سبب لاعتقالهم فلن نسمح لهم بمغادرة غوانتانامو.

ضحكتُ ساخراً، وقلت له: يعني أنكم تريدون أن تجعلونا مصيدة للآخرين.

وعزمت عزماً قاطعاً على مواصلة سياسة الإحراج للسيد المساعد المزعوم، فقلت له: أريد أن أتصل بأهلي ليحضروا لي أوراقاً تثبت أنني صحفي أعمل في قناة الجزيرة، وتساعدني على تفنيد الادعاءات والتهم التي لفّقتموها ضدي.

فقال: إن الاتصالات غير مسموح بها، ولا نستطيع أن نوفر لك وسيلة اتصال بالخارج؛ ولكن يمكنك أن تعطيني الأسئلة التي ترغب في إرسالها إليهم وأنا أحاول الاتصال بهم من جهتي.

فكرت سريعاً بين أن أقتنع بذلك، أو أواصل سياسة الإحراج إلى نهايتها.. ففضلت الخيار الأخير، ثم بادرته قائلاً: إذا اتصلت بهم فماذا ستقول لهم؟

قال: سأقول لهم: أنا مساعد المعتقل رقم 345 وهو يطلب منكم كذا وكذا.

قلت له: إنهم لن يتعاملوا معك ولن يثقوا بك، فأنت في النهاية أميركي وفي الجيش الأميركي، فكيف تريدهم أن يثقوا بك؟ ما لم أتصل أنا بهم وأتكلم معهم شخصيًّا، فلن يتعاملوا معك.

قال: لا نستطيع! فالقوانين لا تسمح لك بأن تتصل بأهلك.

وإمعاناً في المناكفة، قلت له: إذا كان الاتصال الهاتفي متعذراً، وفّروا لي سبل المراسلة العادية، كأن أراسلهم بالفاكس ليكون الرد سريعاً، وإذا كنت لا أستطيع الاتصال بهم هاتفيًّا فاسمحوا لي بكتابة الرسائل، أعطوني فرصة حقيقية حتى أستطيع أن أذهب إلى هذه المحكمة وأدافع عن نفسي.

قال: هذا - أيضاً - ممنوع.

قلت له: فلتكن الرسائل عبر البريد السريع. قال: سننظر في ذلك، ولا أستطيع أن أعدك بشيء.

قلت له: كيف لا يمكنك أن تساعدني وأنت أتيت لهذا الغرض؟

قال: أنا أتيت لأساعدك؛ ولكن مساعدتي محصورة في تبليغك التهم الموجهة إليك، وكيف ستكون الجلسة في المحكمة.

قلت له: هذه ليست مساعدة قضائية!

عليك أن تقر أنك مخبر فقط، وأنك جئت لتبلغني طلبات رؤسائك؛ ومن ثَمَّ فأنت لست مساعداً لي؛ بل لهم!

قال: هذا كل ما لدي، فدعني أخبرك بالتهم الموجهة إليك. وبدأ بسرد التهم...

كانت التهمة الأولى أن المعتقل (وإيَّايَ يَعْنُون) عندما حاول الدخول إلى أفغانستان، في الخامس عشر من شهر ديسمبر/كانون الأول عام 2001، اعتقلته السلطات الباكستانية وأوقفتْه، ثم سلّمتْه إلى الولايات المتحدة الأميركية.

فضحكت وقلت له: هل هذه تهمة!؟!

هذه حقيقة قامت على وصف حال، هذا شيء حقيقي، وهذه لا تحسب ضدي بل تحسب لي.

لم أنكر أنني ذهبت إلى باكستان، فأنا دخلت تلك البلاد بتأشيرة وإذن من الحكومة الباكستانية، وبوثائق سفر سليمة وموثقة وصالحة، وببطاقة صحفية للقيام بعمل صحفي، واتبعت الإجراءات القانونية في باكستان، وفي الحدود أبرزت لهم وثيقة سفري وطلبت منهم أن يختموا لي جوازي.

أنا لم أتسلل عبر الحدود، ولم أستعمل وثائق سفر مزورة، ولم أنتحل شخصية أخرى، ولم أكن ذاهباً إلى أفغانستان لأقاتل، أو لأشتري مخدرات، أو لأعتدي على الناس، أو أمارس أي فعل غير قانوني...

كنت ذاهباً من أجل عمل صحفي، وفي مجموعة صحفية، ويوم وصولي كان هناك أكثر من سبعين صحفيًّا من مختلف المؤسسات الصحفية في العالم.

وأردفت قائلاً: ماذا لديك، غير هذا؟

قال لي: هناك تهمة تقول: إنك اعتُقلت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، إثر دخولك إلى أفغانستان، وكنت تحاول شراء صواريخ "ستينغر" لتقوم بشحنها إلى الشيشان.

ضحكت ملءَ فِيَّ.. ثم قلت له: كيف لي أن أشتري صواريخ "ستينغر" وأرسلها إلى الشيشان بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول؟

بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، تغيرت الأوضاع في أفغانستان؛ بل تغيرت الأوضاع في العالم أجمع.. فكيف لي أن أذهب إلى أفغانستان لشراء صواريخ؟!

أنتم تعلمون علم اليقين أنني ذهبت في مهمة صحفية.

حتى لو أردت شراء تلك الصواريخ، فتعلمون أنه ليس لدي من المال والوقت ما يكفي لتنفيذ ما تدَّعون!

ثم كيف أرسلها بعد أن أشتريها؟ ومع من أرسلها؟ وبأي ثمن؟

وكيف لي أن أتفاهم مع الأفغان وأنا لا أعرف لغتهم، ولأول مرة أزور أفغانستان؟

قلت له: هذه ادِّعاءات باطلة، وأنا أعرف من أين أتيتم بهذه القصة.

وبالفعل؛ فالقصة لها أصل، ذكرتُه في البداية، إبَّان حديثي عما جرى لي في المعتقل الباكستاني؛ فقد وقعت أمامي مناقشة بين أفغاني وأحد رجال الاستخبارات العسكرية الباكستانية؛ حول مسألة صواريخ "ستينغر"، وكان الأفغاني يؤكد أن عنده "ستينغر"، والباكستاني ينكر عليه ذلك.. وتراهن الاثنان على دفع مبلغ معين وأرادا أن يجعلاني شاهداً في ذلك الرهان...

سردتُ له تلك القصة، وقلت له: إن الذي صاغ نص الاتهام قام بتحوير القصة الأصلية، وقال: إنني أتيت إلى أفغانستان لشراء السلاح. مع أنني لم أقم بذلك!

وتستطيعون أن ترجعوا إلى أشرطة التحقيقات المسجلة ووقائع التحقيق، وستعرفون أن تلك كانت قصة سردها عن حادثة مرَّت بي أثناء اعتقالي عند الاستخبارات الباكستانية.

عندئذ، قال لي: بلِّغ هذا الكلام للقاضي في الجلسة.

قلت: وهل هنالك تهم أخرى؟

قال: إنك خلال الأعوام من 1996 إلى 2001 سافرت إلى مناطق ساخنة في الشرق الأوسط، وإلى دول البلقان والاتحاد السوفيتي السابق، وأخيراً وصلت إلى أفغانستان عام 2001م.

قلت له: علينا أن ننظر إلى الحقائق المجرَّدة؛ دون هذه البهارات التفخيخية!

لقد سافرت إلى بلدان عدة في ما تسمونه الشرق الأوسط:

- سافرت إلى السعودية لأداء العمرة والحج، والسعودية في الشرق الأوسط، فهل معنى ذلك أنني ذهبت إلى أماكن ساخنة في السعودية؟

  السفر حقيقة؛ ولكن الكلام الذي تذكرونه غير صحيح.
- وسافرت إلى سوريا سائحاً، ولم تكن سوريا ميدان عمليات ولا تدريب، ولا هي محطة لفعل أي شيء من ذلك.. فهل تُعَدُّ السياحة ضرباً من الإرهاب؟
- والأمر نفسه ينطبق على لبنان الذي زرته سائحاً؛ وكذا الأردن.
- وزرت الإمارات لغرض العمل.

ولم تكن هناك أهداف أخرى، ولم يحدث أثناء تلك الأسفار ما يوحي بأي مشكلة، وسجلات تلك البلدان شاهدة إن أردتم شهوداً.

أما دول البلقان فهذه عبارة مطاطة، تشمل كوسوفو وألبانيا والبوسنة والهرسك وغيرها، وأنت تعلم أنني إنما زرت كوسوفو في صيف عام 2000 بعد نهاية الحرب.

زرتها في سياق عمل صحفي بحت؛ لتغطية مشكلة المقدونيين الذين نزحوا من مناطق في مقدونيا في اتجاه كوسوفو.

وقد ذهبت لنقل الحدث؛ الذي لم تصاحبه حرب أصلاً!

فلمَاذا تُقَدِّمون تلك الواقعة على أنها تهمة ضدي، وأنها دليل على أنني ذهبت إلى البوسنة وقاتلت فيها، وذهبت إلى كوسوفو وقاتلت فيها، وذهبت إلى ألبانيا وقاتلت فيها!؟

قلت له: إن التمطيط والتدليس المتعلق بالبلقان ودولها ينطبق كذلك على ما سميتموه جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، أعني: أذربيجان، وجورجيا، وروسيا، والشيشان، وداغستان.. وغيرها.

الحق أنني ذهبت إلى أذربيجان فقط دون أي دولة أو جمهورية أخرى من تلك المنظومة، وقد زرت أذربيجان في سياق عمل مهني محض، وللتواصل مع عائلة زوجتي الآذرية، ولم أزرها لأي غرض آخر.

وقلت له: إن كان لديكم دليل فأبرزوه.

وعند ذلك، قال لي المساعد: إنك حاولت استخراج إقامة لرجل أعمال عراقي له ارتباط بأسامة بن لادن في الإمارات.

قلت له: هذا شيء عجيب، بل مستحيل!

فلا يوجد في القانون الإماراتي أي بند يشير إلى أن شخصاً مقيماً مثل إقامتي يستطيع أن يستخرج إقامة لأجنبي آخر!

هذا غير وارد في القوانين الإماراتية، وأنا لا أستطيع أن أستخرج إقامة لشخص آخر! كل ما أستطيع فعله هو طلب تأشيرة زيارة لأقاربي من الدرجة الأولى بعد أن أقدم أسباباً مقنعة تسمح للسلطات الإماراتية بإصدار الزيارة.

وطبقاً للقانون ذاته، لا أستطيع أن أكفل أي شخص باستثناء زوجتي وأبنائي، حتى أبنائي هناك شروط معينة لكفالتهم.

كيف لي أن آتي برجل أعمال عراقي وأستخرج له إقامة في الإمارات!

هذا كلام لا أساس له من الصحة، والإجابة القاطعة تجدونها عند السلطات الإماراتية نفسها.

أما عن علاقة العراقي أو غيره بأسامة بن لادن فهذا شيء يخصه هو، ولا يعنيني أنا في شيء.

بعد ذلك تلا عليَّ تهمة جديدة تتعلق بنقل أموال طائلة في الفترة بين عامي 1996 و2000 من دولة الإمارات إلى أذربيجان.

قلت له: عن أي أموال تتحدَّث؟ من قال لكم: إنني نقلت أموالاً طائلة؟

تلك كانت مبالغ أخذتها من الإمارات إلى أذربيجان، وكانت استثمارات لرجل الأعمال الذي كنت أعمل معه، إنه مستثمر يقيم مشاريع في البلد، وأنا أعمل موظفاً معه، يكلفني بمهام كما يكلف أي رجل أعمال موظفيه، فما العيب في ذلك؟

تلك مبالغ عادية جدًّا بالنسبة إلى رجال الأعمال، وليست أموالاً طائلة كما زعمتم في تكييفكم المُغرض؛ لقد كان أكبر مبلغ نقلته مرة واحدة هو 220 ألف دولار، نقلتها إلى أذربيجان، وكان نصف المبلغ لمؤسسة خيرية هي مؤسسة الحرمين، أرسلها إليها المكتب الرئيس للهيئة في الرياض.

أما المبلغ المتبقي وهو 120 ألف دولار، فقد كانت لمصنع دقيق أقامه رجل الأعمال الإماراتي في أذربيجان، والمبلغ مثبت في الأوراق،

ويمكنكم الاستفسار من الحكومة الآذرية ليفيدوكم في هذا الأمر، إن كان لديكم التباس في شأنه.

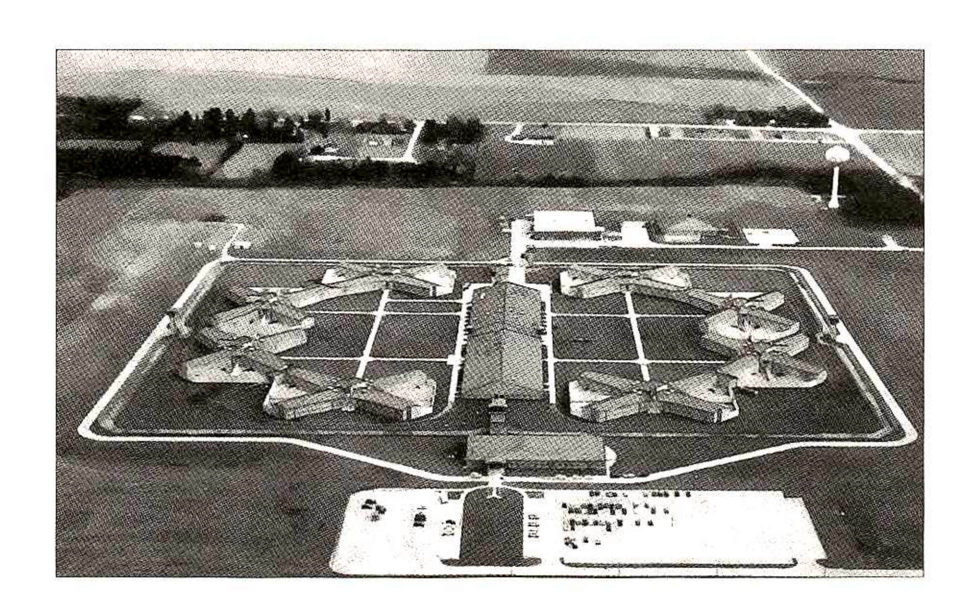
ثمَّ وجَّه إليَّ تهمة أخرى مفادُها: أنني كنت أساعد المجاهدين الشيشان بإرسال مواد غذائية لهم من الإمارات عبر أذربيجان إلى الشيشان، وأنني أقوم - أيضاً - بنقل الأموال إليهم.

- وهذا الكلام غير صحيح مطلقاً، فليس لي أدنى علاقة مع المجاهدين الشيشان، فأحرى أن أرسل إليهم أموالاً ولا مواد غذائية!

وأخيراً، أبلغت المساعد برفضي المطلق الذهاب إلى محكمة تصدر أحكامها بناءً على أدلة سرية لا يعلمها المتهم، فكيف لي أن أناقش تلك الأدلة أو أفندها؟

قلت له: إنني لن أشارك في تلك المسرحية، فابحثوا لكم عن كومبارس غيري، فأنا صحفي لا أعمل في المسرح، وإذا قررتُ المشاركة في مسرحية، فيجب أن أقتنع بنصها وأدواتها؛ وذلك ما لا يصحُّ في هذه المهزلة التي تسمونها محاكمة، وهي في الحقيقة مسرحية سيئة النص والتمثيل والإخراج.

وبالفعل، لم أذهب إلى المحكمة، مثلي مثل كثيرين من معتقلي غوانتانامو؛ الذين تقرر مثولهم أمام تلك المحكمة - المهزلة".



الفصل الثاني والعشرون

واستطردت في الإملاء وأم محمد تكتب: "إن التعريف المطاط الذي وضعته وزارة الدفاع الأميركية للمعتقل العدو كما سمَّته، يشمل كل شخص يدعم تنظيم القاعدة أو طالبان أو الجماعات المرتبطة بهما، سواء أكان هذا الدعم أو العلاقة عن قصد أم غير قصد، وإن لم يتضمن أي فعل مُعادٍ للولايات المتحدة الأميركية وحلفائها.

التعريف مطاط؛ وتستطيع أن تدرج تحته أي شخص، على الرغم من أنهم - كما هو واضح - لم يستطيعوا إثبات مقتضيات هذا التعريف عليَّ أنا خاصة.

ثم حدث بعد ذلك، أن قابلت المحامي كلايف سميث لأول مرة، عام 2005م.

ذكرت له أنهم صنفوني مقاتلاً عدوًّا؛ بناءً على التهم الموجهة إليَّ.

وأعطيته ردودي على تلك التُّهم، فأخبرني أنه سوف يَطَّلع على الأدلة السرية بحكم أنه محامٍ وله الحق في ذلك.

كانت تلك أول مقابلة معه، فقال لي: إذا أنت اعتمدتني محاميًّا وأعطيتني توكيلاً، فسيكون بإمكاني الاطلاع على تلك الأدلة السرية؛ ولكن لا أستطيع أن أخبرك بها.

أبلغته بأن تسعة وتسعين بالمائة (99%) من المعتقلين في غوانتانامو تم تصنيفهم على أنهم مقاتلون أعداء.

وأكدتُّ له أن هذا الأمر لم يكن مفاجئاً لأيٍّ واحد منا، فقد كنا موقنين بهذه النتيجة؛ فالولايات المتحدة الأميركية لن تستطيع أن تقول (بعد اعتقالٍ دام أكثر من خمس سنوات): إن هؤلاء أبرياء، وإنهم ليسوا مقاتلين أعداء.

فكان لا بُدَّ أن يجرمونا في البدء على الأقل، ونحن لسنا جزعين ولا مستغربين من هذا التصرف؛ وحتى تكتمل المسرحية، كان لا بُدَّ لهم أن يبرئوا بعض المعتقلين.

من الأشياء المضحكة قضية إخواننا التركستانيين (الإيغور) المقبلين من إقليم تركستان الصيني، الذين هاجروا إلى أفغانستان بسبب أوضاع سيئة كانوا يعيشونها في الصين.

واعتقل الأميركيون عدداً منهم، ثم قرر البنتاغون تبرئة ستة منهم، وصنَّف أكثر من سبعة عشر شخصاً منهم في إطار المقاتلين الأعداء، مع أنهم جاؤوا لغرض واحد معروف، لا علاقة له بالحرب.. فكيف والحالة هذه، أن تقرر المحكمة تبرئة بعضهم وتدين بعضهم الآخر، والسياق ذات السياق!

من المتناقضات الأخرى التي حدثت: تبرئةُ أحد السودانيين، وهو حماد، كما بُرئ دكتور جزائري وأحد المصريين وأحد السعوديين.

كانت تلك سياسة ذر الرماد في العيون، فهم يبرئون أشخاصاً على غير معيار؛ ليبرهنوا أن القضية تتعلق بتُهم فعلية حقيقية، لا

عشوائية؛ لقد برَّؤوا أشخاصاً من كل جنسية ليقدِّموا آخرين للمحاكمة، وكأن ذلك هو مقتضى التحقيق الفعلي في قمم لم ترَ النور إلا بعد خمس سنين من الاعتقال.

الأخ السعودي الذي برؤوه – وهو بريء أصلاً من دون شك – أبلغوه بالبراءة من تصنيف مقاتل عدو، فلما جاؤوا يبلغونه الخبر نظر الضابط العسكري إلى رجله المقطوعة وطرفه المقطوع، وقال: نحن أخطأنا، برَّأنا شخصاً نمتلك دليلاً قاطعاً على أنه شارك من قبل في عمليات، فكيف نبرئ هذا الشخص ونتهم أشخاصاً أرجلهم سليمة وأطرافهم عادية!

لقد كنا موقنين تماماً أن جميع المعتقلين في غوانتانامو أبرياء؛ سواء برأهم الأميركيون أو أدانوهم؛ كنا على قناعة تامة بذلك، ولم تغير تلك التصنيفات ولا التبرئة المتأخرة تلك القناعة.

وقد قال لي كلايف: هناك لجان تم تشكيلها للمراجعة السنوية، وهناك – أيضاً – لجان عسكرية سيسمح للمعتقل بالمثول أمامها بعد أن تُقدم له التهم ويدافع عن نفسه؛ لكنهم ما زالوا يحتفظون بما يطلقون عليه أدلة سرية.

ثم قال لي كلايف كذلك: إن اللجنة السنوية لعام 2005 ستعقد لي أنا، ونصحني بأن أحضرها، وأنه يعتقد أنني لو ذهبت وقابلت القاضي في لجنة التصنيف فلسوف يصنِّفني ضمن الأبرياء، وأن امتناعي وعدم ذهابي قد يؤثران سلباً في القرار الذي سيتخذونه.

لكني حقيقة أحببت أن أوجه إليه رسالة من زاوية قد تكون خفية، أو لا يدركها في سياقه الثقافي؛ إذ قلت له: أحب أن أوضح

لك أمراً وهو أننا مسلمون، ونؤمن بأن هناك ما نسميه القدر، وأننا على هذا القدر نسير، فنحن نأخذ بالأسباب دون شك؛ ولكن قدر الله فوق كل شيء، فأنا على يقين أن هناك يوماً محدداً لخروجي بغض النظر عن أي لجان أو أي مراجعات.

تقبل كلايف ذلك القول على مضض، فقد كان يتوقع أن أقابله بالشكوى والتوسل والرجاء في أن يساعدني، فأبديت له منذ البداية أنني موقن ومؤمن ببراءتي التامة، وأعرف أن براءتي واضحة لا تحتاج لمن يرشد الأميركيين إليها، فهم مقتنعون في قرارة أنفسهم بأنني بريء وليس لي أي قضية معهم؛ ولكنهم أرادوا تجريمي حتى لا أخرج وأنقل ما رأيت.

بينت للمحامي كلايف أنني سأتعامل معه في ثلاثة أمور:

أولها: أنني أريد منه أن يكون ناقلاً لما يحدث في غوانتانامو؛ فأنا صحفي ساقتني الأقدار إلى هذا المعتقل، وسأؤدي رسالتي الصحفية من داخله، وأريد من المحامي أن يساعدني على إيصال رسالتي إلى الخارج، فإذا قَبِلَ أن يساعدني في هذا الأمر فسأواصل التعامل معه.

والأمر الثاني: أنني أريده أن يكون حلقة وصل بيني وبين أسرتي، لأنني أعاني كثيراً من انقطاع الرسائل.

أما الأمر الثالث: فهو أنني أريد أن أعرف ماذا يدور في الخارج، لأننا في عزلة تامة فرضتها علينا إدارة المعتقل، ولا ندري شيئاً عما يحدث في العالم من حولنا.

فقال لي: حسناً، ولكنني أقول لك إنه لا بُدَّ أن تذهب يا سامي أولاً إلى لجنة المراجعة هذه وتقف أمامها وتتحدث إليها، فهذا رجائي الحار وأرجو أن تنفذه. جرِّبْ مرة واحدة!

كتب لي كلايف ورقة وقال لي: اذهب واقرأ هذه الورقة فقط، لا تقل أكثر مما أكتب لك في هذه الورقة، ولا تجب عن أي سؤال خارج عن هذه الورقة.

اقرأ هذه الورقة ولا تزد على ما فيها.

وبالفعل، وبناءً على رغبته واستجابةً لهاجس داخلي في معرفة ما يدور في هذه الجلسات.. ذهبت إلى اللجنة وجلست أنتظر أسئلتهم.

بالطبع، لا يُسمح لك في هذه اللجنة بإحضار أي شهود، فلما مثلت أمامهم وجدت أن التهم قد تغيرت وأسقطوا بعضها وجاؤوا بتُهم أخرى!

ومن التهم الجديدة: أنني عملت سكرتيراً لعبد اللطيف العمران المدير العام لمصنع مرطبات الاتحاد.

وهناك تهمة ثانية، مفادُها: أن مصنع مرطبات الاتحاد له ارتباط بالمجاهدين في البوسنة والشيشان!

وثمة تهمة ثالثة، وهي: أنني أنكر أن يكون لرئيسي السابق في العمل عبد اللطيف العمران صلة أو علاقة ما بالقاعدة.

يعني ذلك ببساطة أنني عندما أنفي علمي بأي واقعة أكون متهماً، وأنا متهم إذا كان لي علم بالموضوع.

أي عبثية في هذه التهم!

فهمت أن المطلوب فعلاً هو أن أقر بصلة للسيد عبد اللطيف العمران بالإرهاب، وأتبرأ منه حتى يكون ذلك إثباتاً لتُهم تُوجَّه ضده لا صلة ولا معرفة لي بها!

غير أني في قرارة نفسي أجزم أنهم كاذبون، وأن كل ذلك لا علاقة له بالحقيقة.

ذلك كنت أعتقده ولا أزال أعتقده حتى هذه اللحظة.

فالسيد عبد اللطيف العمران، ومن خلال عملي معه، رجل أعمال ناجح يدير أعمال والده، وله أعمال خاصة، وهو إنسان مسلم يحب مساعدة المسلمين في الخير، وأعماله مقتصرة على بناء المساجد وكفالة الأيتام؛ وذلك مثال المسلم المؤمن.

زدت على ذلك في ردي عليهم: أنني لن أجرِّمه ولن أبتعد عنه ولن أدينه بسبب تصرفاته التي أعرفها حق المعرفة، بل قلت: إنني أتمنى لو كنت مكانه لأساعد المحتاجين، هذا مع ما يتَّصف به الرجل من حسن الخلق والمعاملة. فالرجل كلُّه خير.

هكذا أحسبه والله حسيبُه!

وكان من طرائف التهم الجديدة: أنني كنت إماماً للمصلين المعتقلين، وأنني كنت أعلِّم بعضهم اللغة الإنجليزية.

على العموم عندما ذهبت إلى المحكمة، ليلة المراجعة، جلست ومعي المساعد العسكري الذي أوضحت مهمته سابقاً.

وجلس مترجم على مقربة مني، ونصبوا ميكروفونات، وكنت مقيداً من يديَّ ورجليَّ وأجلس مقابلاً لهم.

وعندما دخل أعضاء اللجنة، وقفوا الجميع وأدوا القسم لعلم الولايات المتحدة وأمروني بالوقوف، فرفضت.

بعد ذلك طالبوني بتأدية اليمين على الطريقة الإسلامية، فقلت لهم: أنا لا أومن بمحكمتكم، ونحن المسلمين نحرِّم الكذب سواء تحت القسم أو دونه، فلا نحتاج لأداء القسم حتى نتجنب الكذب الذي نعتبره من كبائر الإثم. فسكتوا.

ثم قلت لهم: حتى لا تظنوا أنني أتهرب، سأؤدي القسم من هذا المنطلق؛ لكن لا بُدَّ أن تعرفوا أننا لا نكذب أصلاً.

أقسمت بالله بأن أقول الحق، وطلبت منهم إعطائي فرصة لشرح قضيتي، فإذا بـــي أفاجأ بأن ممثل الاتهام في لجنة المراجعة هو المساعد العسكري الذي عينوه لي في محكمة التصنيف الأولى!

لقد أصبح المساعد ممثلاً للادعاء!

وعندما نظرت إليه ضحكت في باطني ساخراً، وعرفـــت أنهـــا بعض فصول مسرحية سيكون على أبطالها تمثيل أدوار متناقضة علـــى الخشبة نفسها، وربما في اللحظة نفسها!

ما المانع؟ إنه منطق محكمة الكاوبوي.. اليـــوم معـــك، وغـــداً ضدك! وفقاً للمآرب المتعددة والصفات المتناقضة للمساعد العجيب.

اكتفيت بقراءة الورقة التي كتبها المحامي كلايف، ومع أنني كنت غير مقتنع بالكثير مما ورد فيها، فقد قرأتها حتى أرى النتيجـــة الـــتي ستحدث.

وجهوا لي عدداً من الأسئلة، فلم أردّ عليها، وقلت لهم: إنـــني ألتزم بتوجيهات المحامي، فبدا الاستياء على وجه مساعدي القاضـــي، وكانوا ينظرون إليّ نظرة احتقار، ظهرت حتى في كلامهم وأسلوبهم في التخاطب.

الحقيقة أنني ندمت وقتها على الذهاب إلى تلك اللجنة؛ ولكنها كانت تجربة رأيت فيها ما رأيت.

وكما توقعتُ، فقد جاءت النتيجة بأنني ما زلت أمثـــل خطـــراً على الولايات المتحدة الأميركية، وسيستمر احتجازي لمـــدة ســـنة أخرى!



الفصل الثالث والعشرون

قلت لأم محمد: "في جلستي الأولى مع المحامي كلايف، وفي الجلسات التي تلتها.. شرحت له مشكلة التواصل معك ومع بقية أهلي، أخبرته بأنني كتبت رسائل عدَّة، أرسلتها عبر الصليب الأحمر ولم يصل أي منها لا إليك ولا إلى الأهل.

كانت أول رسالة تصلني عن طريق الصليب الأحمر بتاريخ 20 من سبتمبر/أيلول عام 2002، بعد مُضيّ أكثر من عشرة أشهر على اعتقالي.

ثم أصبحت أراسل أهلي عبر الصليب الأحمر.

كانت الرسائل تأتي متأخرة ومتقطّعة ومقطّعة ومشوهة... حتى الصور كانوا يتعمدون تشويهها بحيث تبدو غائمة غامضة لا تعبِّر عن أصحابها بوضوح.

أعطيته أمثلة من صور ابني التي أرسلت إليّ وتسلمتها، وأبلغته أنني شكوت عدة مرات، وفي كل مرة كانوا يتعمدون أذيتي وإهانتي بتكرار السلوك نفسه.

لم يكن متيسراً لنا أن نوصل أخبارنا ووجهات نظرنا، فضلاً عن واقعنا المأساوي وحالنا المزري.

اتفقت مع المحامي كلايف على أن يقوم بنقل ما يحدث (كما

نرويه له)؛ لأننا كنا نعتقد جازمين أن الإدارة الأميركية تنشر أخباراً زائفة عما يدور داخل هذا المعتقل، فكنا حريصين كل الحرص على أن نستغل نافذة المحامين لنشر ما أمكن من أخبارنا وأخبار معتقلنا التَّعِس البائس، كتبت مقالات كثيرة وسلمتها للمحامي كلايف في زياراته، وكان يزورني كل ثلاثة أشهر، فكنت أحضر له في كل زيارة ست مقالات أو سبعاً، أجهِّزها وأسلمها له وهو بدوره كان يقدمها إلى الرقابة، وبعد ما تمر من الرقابة كان يحاول نشرها.

من المقالات التي سلمتها لكلايف على سبيل المثال: مقال بعنوان "إنني أبحث عن إنسان".

وكنت أتناول في المقالات التي أكتبها قصص المعتقلين، ومن المقالات التي كتبتها مقالة عن معتقل كان يجلس بجواري، جزائري الأصل بوسني الجنسية كان يُقيم في البوسنة، وله أولاد وزوجات فيها. وهو رجل بسيط، عاش في البوسنة، ولا علاقة له بأي تنظيم.

ومن أهم الرسائل التي سلمتها للمحامي كلايف الرسالة التالية:

"إلى بسمة عمري وعطر حياتي..

إلى ابني ووحيدي وحبيبي محمد..

سلام الله يغشاك، وعين الله ترعاك..

وبعد، فإني أعلم أنك - ليلة البارحة - قد أطفأت شمعتك الخامسة، غير أن شموع أحزاني لم تزل موقدة، ونار حنيني وشوقي إليك لم تزل مؤجَّجة.

أعلم أنك الآن قد حان وقت اصطحابك إلى المدرسة، غـــير أن رجليَّ ما زالتا موثقتين ويديَّ إلى الجيد مغلولتين.

هل تذكر - بُنيَّ - عندما أطفأنا شمعتك الأولى ثلاثتنا؟

وهل ما زالت حرارة القبلات التي أمطرتك بها مرتسمة علـــى خديك وحمرتها تملأ وجنتيك؟

لا أظنك تذكر ذلك اليوم، غير أنني - مع نأي الديار وانقطاع الأخبار وما حال بيننا من المحيطات والبحار، والفيافي والقفار.. مـــع كل ذا وذاك - لم أزل أحيا على ذكراك، فصورة مُحيَّاك لا تفـــارق خاطري ولا تغادر ناظري.

ومما جدد الذكرى وأجج نار الحنين والاشـــتياق إلى رؤيتـــك: صورتك الفوتوغرافية؛ ولكن للأسف قد نكأت فِيَّ جراحاً بعـــدما كادت تلتئم بعض الجروح، وازداد نزيف جرحـــي عنـــدما قـــرأت كلماتك المتكررة في كل رسالة وأسئلتك الحائرة:

أين بابا؟

لماذا لم يأتِ بابا؟

يا بابا تعال.

عذراً يا فلذة كبدي، ويا ثمرة فؤادي.. فلن تجد إجابةً عـــن سؤالك المرير غير ما يتكرر من أمك المكلومة: سيأتي بابا وقريبـــاً تراه.

لو وجدتْ هذه المسكينة غير هذا الجواب لمـــا بخلـــت بـــه عليك!

ولكم تساءلتْ ولكم ألحّت في السؤال..

ولكن أباك لا يملك إجابة عن هذا السؤال!

الحقيقة يا بنيَّ أن أباك عائم في لجة الأسر، ومُلْقًى في غياهب السجون، ومثقلٌ بقيود الجور، ومكبَّلٌ بسلاسل الظلم والقهر في جزيرة تبعد عنك آلاف الأميال..

جزيرة قد انفصلت عن عالم الحياة ولم يعد فيها إلا صوت سلسلة وقيد، وأنين مظلوم قد أوثق بهما.

لم يعد يرى فيها إلا صورة سجَّان عبوس، أو وجه مظلوم محبوس..

في جزيرةٍ؛ الداخلُ فيها – يا ولدي – مفقود مفقود مفقود..

والخارج منها – يا ولدي – مولود مولود مولود!

فأبوك ضحية نظام عالمي جديد، لا يعرف سوى لغة التهديد!

طائرات وبوارج وحشود مدججة بالحديد.

وأحرار بحفنة من الدولارات صاروا عبيداً، تخلى عنهم القريب والبعيد..

تخلوا حتى عن لغة التنديد!

غير أن هؤلاء صابرون محتسبون يرتقبون فرج المجيد.

أملي الفقيد، ونجلي الوحيد..

قد كنت أخبرتك فيما مضى: أن في هذه الحياة عدلاً وإخاءً ومحبةً ووفاءً ورحمةً ورجاءً.

كنت أظنها مقومات الحياة، ولكنني صُدمت وفوجئت عندما اهتزت مسامعي ممن يدَّعي العدالة، ويزعم الحرية، ويتشدق بالديمقراطية...

عندما قالوا لي مراراً: إنك لن تخرج من هذا المكان حتى نرضى عنك، ولن نرضى عنك حتى تتبع ما نريد!

وهل تعلم يا بنيَّ ما يريدون؟

إنهم يريدون أن يفسدوا عليَّ آخرتي كما أفسدوا عليَّ دنيـــاي؛ ولكن هيهات! ثم هيهات!

الله المستعان، وعليه التُّكلان، وإليه المشتكى!

وهو حسبنا، ونعم الوكيل! وله الأمر من قبل ومن بعد.

والدك الأسير رقم 345 أبو محمد سامي محيي الدين الحاج".

كانت تلك رسالتي الأولى التي أرسلتها مع المحامي إلى أســـرتي، وطلبت منه أن يكون همزة وصل بيني وبينهم، وأن يحضر لي ما أمكن من صور ابني وينقل لي أخباره، لأطمئن عليه، ويحدث الأهـــل بأنـــه رأى (سامي) حتى يَطمئنُّوا هم كذلك.

"ألا توقفنا هنا يا أبا محمد؟".

"يبدو أنكِ قد تعبتِ".

"لا ولكن أعتقد أنكَ ينبغي أن تنال قسطاً من الراحة".

"إن أردتِ راحتي فاذهبـــي واخلدي للنوم".

"ولكن!"..

"لا تقلقي لأنني لن أكون وحيداً؛ سيعود صديقي".

فضحكتْ وسألتْ: "طائر الليل؟"

فأومأتُ أن نعم؛ بينما قلت في نفسي: "طائر الليل الجريح".

وحدَّقتْ فيَّ مليًّا أم محمد، ثم أبعدت الخطى. وبالفعـــل حـــال دخولها الحجرة وإغلاقها الباب عاد طائر الليل الصديق، وحطَّ مجدَّداً على إفريز النافذة المطلة على ليل الخليج.

وراحت أفكاري للبعيد تقطع آلاف الأميال صـــوب الخلـــيج الآخر، خليج غوانتانامو.

ثم ساد الصمت إلى حين.

وسرحت بخاطري.

الفصل الرابع والعشرون

وأعادني صدى موج الخليج العربـــي إلى الليل العربـــي.

وعلا صوتُ الطائر الوحيد، الطائر الحزين..

فتذكرت قصة ذلك المعتقل، الذي تضافرت عليه المآسي وحـــلَّ به عذابٌ نُكرٌ؛ إذ فُجع في فلذة كبده من دون أن يحضر لها دفناً، ولا أن يبل بدمعه قبراً لها.

كان ذلك الرجل قد علم أن الشرطة البوسنية تبحث عنه، فسلَّم لهم نفسه، وسألهم ماذا تريدون؟

فتم اعتقاله بناءً على أكاذيب ووشايات لأشخاص متورطين في قضايا كانوا يريدون عبر هذه الوشايات أن ينالوا الحرية.

وقعت الوشاية برجال جزائريين، فتم وضـــعهم في الســـجن، وقُدِّموا إلى المحاكمة، فتمَّت تبرئتهم في جميع المراحل بمـــا في ذلـــك المحكمة العليا.

حصلوا على البراءة؛ لأنهم حقيقة أبرياء، و لم تكن هناك قضـــية ضدهم!

وحاولت الحكومة البوسنية بـــأمر مـــن الإدارة الأميركيـــة أن تخرجهم من البوسنة بأي طريقة كانت.

وعندما عجزت الحكومة عن تجريمهم ووضعهم في الســـجون،

اختطفهم الأميركيون في جنح الظلام، ونقلوهم عبر طائرات هليكوبتر إلى قواعدهم في ألمانيا، ومنها إلى تركيا، ثم جيء بهم - على متن طائرة أخرى - إلى غوانتانامو.

فتحوا عيونهم بعد أن أخرجوا رؤوسهم من الأكياس السوداء، فوجدوا أنفسهم في مناخ مداري، في جزيرة تبعد عن ديارهم آلاف الكيلومترات.

وجدوا أنفسهم في معسكر (إكس. راي)؛ الذي لا يصلح - إن صح التعبير عن حاله - أن يكون حديقة للحيوان؛ فما بالك بأن يكون مكاناً للإنسان ومأوى له.

ولكن دعوني أسرد قصة هذا الرجل الأربعيني، الجزائري الأصل، البوسني الجنسية، الذي كنا ندعوه "الحاج البوسني":

لقد كان يقيم بجواري في السجن، وهو رجل حكيم هادئ صامت، ترى في عينيه حزناً عميقاً، كان دائماً يخلو بنفسه ويسرح بعيداً عن الجالسين، وعلى الرغم من هدوئه المتواصل فإن المراقب يدرك أن هناك شيئاً ما في داخله يدفعه للصمت.

كانت هناك غصة على ما يبدو في أعماقه لم يَبُحْ بها لأحد على الرغم من أنني كنت أجاوره وأبادله المودة والاحترام.

كانت بداية معرفتي بالقصة عن طريق رسالة موجهة إليه من زوجته تقول:

"إلى زوجي الغائب أبي الشيماء سلمه الله من كل مكروه،

سلام الله عليك ورحمته وبركاته وبعد،

فقد ترددت كثيراً في كتابة هذه الرسالة إليك، حتى لا أزيدك بلاءً على بلائك، وأضيف محنة إلى محنتك!

ولكنها حقيقةٌ لا بُدَّ أن أبوح لك بها ولو كانت ثقيلة قاسية..
وواقعٌ لا بُدَّ أن نرضى به ولو كان مريراً.
زوجي الغائب،
أمسكتُ بالقلم لكي أكتب إليك فتعثرت كلماتي وارتجفت أناملي.
وها أنا ذي أكتب إليك هذه الرسالة، ومدادُها دمعُ العين المذروف على الخد الحزين.
وردتي، شيماء.. ذاتُ السبع سنين أيقظتها في الصباح الباكر كي تتناول إفطارها فقالت لي: ماما جرت العادة أن يموت الآباء قبل أبنائهم، أليس كذلك؟
قلت: بلى؛ ولكن لماذا هذا السؤال؟
أجابت: لأنني أحس بأنني سوف أموت قبلكم.
وضعت يدي على فمها حتى لا تسترسل في الكلام وقاطعتها، قائلة: الإفطار جاهز يا صغيرتي، هيا حتى لا تتأخري عن المدرسة، وهربت منها حتى لا ترى الدموع تنهمر من عيني، ثم عدت إليها بعد أن تمالكت أعصابي، فوجدتها لا تزال على فراش نومها، فقلت لها: لِمَ كل هذا الكسل يا وردتي؟
أجابتني بصوت ضعيف متقطع، ماما أشعر بأنني متعبة، ولا أستطيع الذهاب إلى المدرسة اليوم.
وعندما نظرت إلى عينيها أدركت حقيقة ما تقول، فهرعت نحو الهاتف واتصلت بالمستشفى، فلم يمضِ وقت طويل إلا وشيماء في سيارة الإسعاف بدلاً من حافلة المدرسة، وصفير السيارة يشق زحام الناس في الصباح الباكر.

أخيراً وصلت شيماء إلى مستشفى سرايفو التخصصي، ومن لطف الله ومنّه أن كان اختصاصي القلب الخاص بشيماء موجوداً في المستشفى آنذاك، وبعد فحوصات سريعة وحركة دؤوبة نقلت شيماء إلى غرفة العناية المركزية، وهناك بقيت صغيرتنا ممددة على السرير في غيبوبة تامة، وأنا أراقبها وأتابع حالتها من خلف الزجاج ليلتين لا تسألني عن طولهما.

وفي اليوم الثالث، أشرقت شمس الصباح على غروب عمر صغيرتنا وغياب قمر بيتنا، وأسلمت شيماء روحها إلى بارئها.

بعدها لا أدري ما حدث، كل ما أذكره أنني شهدت مراسم دفنها في مقابر سرايفو مع جمع غفير من الناس، ممن أعرف وممن لا أعرف.

حتى زميلات شيماء الصغيرات شيّعنها إلى مثواها الأخير مُطرقات الرؤوس، باكيات الأعين.

عُدت بعد ذلك إلى البيت ولكنني لم أستطع الدخول!

شعرت بوحشة، ووقفت أمام عتبة البيت ساكنة لا أقوى على الدخول، ولا سيما أنني منذ غيابك الذي طال أكثر من أربع سنوات لا أقوى على المبيت في غرفتنا.

كنتُ أهرب منها إلى غرفة شيماء، أما الآن فلا يوجد مكان في البيت ألجأ إليه!

قررتُ الهروب من البيت نفسه والإقامة مع والدي حتى تعود إلينا، ونشعل مصباح بيتنا من جديد، أتمنى أن يكون ذلك قريباً بإذن السميع المجيب.

زوجتك أم شيماء".

قطع المحامي آلاف الكيلومترات، وبعد إجراءات عقيمة ومطولة وصل إلى خليج غوانتانامو وهو يحمل تلك الرسالة الحزينة إلى أبـــي الشيماء.

جلس أبو الشيماء على كرسي حديد صلب قبالة محاميه، وقـــد كبلت يداه وضُمَّت إلى وسطه، وثُبِّتت رجلاه بقضـــيب معـــدني في الأرض.

لم تكن هذه أول مقابلة لأبـــي الشيماء مع محاميه؛ ولكن كانت مهمة المحامي هذه المرة صعبة وثقيلة.

بدأ المحامي الجلسة بعبارات الترحاب، وكالعادة سأل موكله عن أحواله، فما كان من أبـــي الشيماء إلا أن عرض على محاميه شـــيئاً يسيراً من معاناته وجزءاً من مأساته، وحكى له عن أصناف الظلـــم والقهر؛ التي لا يزال يتجرع كؤوسها لـــيلاً ونهـــاراً، في المعـــتقلات الأميركية الآثمة.

كما أطلع أبو الشيماء محاميه على معاناته المستمرة والمتجددة مع المحققين، وأنه يؤخذ إلى التحقيق يوميًّا لأكثر مـــن عشـــر ســـاعات متواصلة في تلك الغرفة ذات البرودة القاسية، ويطلب منه أن يعترف بأنه كان في تورا بورا في أفغانستان إبان الحرب الهمجية التي شـــنتها الولايات المتحدة الأميركية على الشعب الأفغاني الأعزل عام 2001م.

في حين أن أبا الشيماء كان - آنذاك - موقوفاً في البوسنة، قبل تلك الأحداث، ثم برَّأته المحكمة العليا في البوسنة؛ ولكن الأميركـــيين اختطفوه من أسرته، واتهموه ظلماً وجوراً.

ربَّت المحامي على كتف أبـــي الشيماء ثم قال له: لا عليك، غداً سيُفضح كل شيء، وستنكشف الحقيقة للعالم أجمع.

ثم استطرد قائلاً: إن إثارة الإدارة الأميركية للرأي العام من أجل تحقيق مكاسب قصيرة الأجل عملٌ خاسر لا محالة.

ولكن، دعك من هذا وذاك، فلديك رسالة من أسرتك في البوسنة.

وبكل لهف وشوق لأخبار أهله وأسرته، أخذ أبو الشيماء الرسالة وشرع في قراءتها.

أدرك أبو الشيماء الفاجعة، وأحس بالمصيبة من مقدمة الرسالة، فانهمرت الدموع شلالاتٍ من عينيه، وبدأ يهمهم: إنا لله وإنا إليه راجعون... إنا لله وإنا إليه راجعون.

بقي المحامي واجماً، ثم هرب من هول الموقف ليأتي الجنود ويحملوا أبا الشيماء إلينا.

جاءنا يجر أرجله جرًّا والدموع لا تزال تنهمر من عينيه، ولسانه لا يكف عن ترديد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

عندما رأينا أبا الشيماء أدركنا لأول وهلة أن أمراً عظيماً قد حدث له، وخطباً جسيماً حلَّ به، فقلنا: خيراً يا أبا الشيماء، ماذا حدث؟ فلم يرد.

سألناه: هل أصابك مكروه؟ كان لا يرفع نظره عن الأرض.

ساد المكانَ صمتٌ رهيب، الكل ينظر إليه بحزن وقلق وترقب!

ماذا حدث؟ نرجوك، أخبرنا يا أبا الشيماء، ماذا حدث؟

رفع عينيه إلينا وهو يذرف الدموع، وقال بصوت متحشرج يقطعه البكاء: لقد ماتت حبيبتي شيماء.

طأطأنا رؤوسنا إلى الأرض ما بين باكٍ متشنِّج، وحزين دامع، وفاغر فاه؛ لهول الصدمة لا يستطيع التعبير عن هول المصيبة.

وبتنا تلك الليلة والحزن يكاد يفطّر قلوبنا.

في صباح اليوم التالي أخبرنا أبو الشيماء أن ابنتـــه شـــيماء ذات السبع سنين وُلدت وهي تعاني ثقباً في قلبها، وأنه كان ينوي إجـــراء عملية جراحية لها في صغرها، غير أن الأطباء نصحوه بتأجيلها حـــتى تبلغ الخامسة.

وذكر أنه بدأ يجمع ويدخر من راتبه المتواضع ليغطي تكـــاليف تلك العملية التي تقدر بثلاثين ألف دولار.

وقبل أن يتمكن من جمع ثلث المبلـــغ لعـــلاج ابنتـــه، ســـجنه الأميركيون، بل اختطفوه على الأصح!

قال لنا: لقد ضاع جهدي، وذهب تعبـــي أدراج الرياح؛ لقـــد كنتُ كثير التفكير في ابنتي وفي حالها الذي أنســـاني هـــمَّ اعتقـــالي وظروفه المشينة، ولقد كنتُ أقضي الساعات الطوال وأنا أفكـــر في أمرها.

ومضى أسبوعان على تلك الفاجعة، وجاء البريد ومعه رســـائل قديمة مضى عليها أكثر من ثلاثة أشهر، بعضها يحمل صـــوراً لتلـــك الوردة الصغيرة التي ذبلت بعينيها الناعستين وابتسامتها الخجولة وبراءة الأطفال تقطر من وجنتيها.

من بين تلك الرسائل رسالة متواضعة كُتبت بأنامل تلك الصغيرة بعبارات طفولية رائعة نكأت جراحاً كادت تندمل.

كتبت شيماء إلى أبيها قائلة:

"حبيبـــي بابا،

السلام عليكم

إنني مشتاقة إليك كثيراً جدًّا جدًّا.

أنا بخير لا تقلق، ما زلت أنتظرك، وأترقب قدومك حتى تأخذني لزيارة جدتي في الجزائر.

بابا، في الأمس القريب احتفلنا في المدرسة بيوم السلام، والذكرى العاشرة لاتفاقية دايتون، وقد شكرت معلمتي أميركا راعية السلام.

وقبل انتهاء الحفل سألتُ معلمتي: إذا كانت أميركا راعية السلام، فلماذا تحتجز الناس وتأخذهم بعيداً عن أولادهم؟

فأجابت: أميركا - يا صغيرتي - لا تعتقل سوى مجرمي الحرب من أجل الحفاظ على السلام.

فقلت لها: لكن بابا لم يكن يوماً مجرم حرب!

بابا كان يعمل في كفالة الأيتام ومساعدة المرضى، بابا كان يقدم الغذاء والدواء والكساء.

لماذا يحرمونني من بابا أكثر من أربع سنوات؟

فصمتت معلمتي طويلاً ثم قالت: سيعود بابا قريباً يا شيماء.

بابا..

لقد تأخرتَ عنا كثيراً، ولقد طال غيابك عنا.

لا نستطيع العيش من دونك يا بابا.

إنني أنتظرك في كل يوم، وأذكرك في الصباح والمساء.

بابا.. أستودعك الله ولك مني أحر القبلات.

المشتاقة إليك كثيراً حبيبتك شيماء".

قرأتُ رسالة شيماء رحمها الله بكل حزن وأسى، ثم تلقفتْها أيدي المعتقلين الآخرين؛ الذين شاركوا أبا الشيماء في أحزانه وقاسموه محنته.

قرأ أحدهم رسالة الشيماء، ثم تنهد طويلاً وزفر زفرات حَرَّى؛ لأن تلك الرسالة نكأت جراحه، وقلبت مواجعه وآلامه.

لم يكن حال هذا المسكين المظلوم بأفضل من حال أبي الشيماء، فلقد وصلته رسالة من أسرته في السودان قبل عام، تفيد بأن ابنته "شفاء" التي وُلدت بعد دخوله إلى السجن - كحال عشرات السجناء الذين لم يروا مواليدهم بعد - قد وافاها الأجل المحتوم بعد صراع مرير مع مرضها الذي دام عاماً ونصف عام، وقد عجزت أسرته عن توفير الدواء اللازم لابنته قبل رحيلها.

تألم أبو الشفاء كثيراً، وحزن طويلاً، وخاطبني قائلاً:

منذ أكثر من خمسة عشر عاماً وأنا أخدم في مجال العمل الإنساني في مخيمات اللاجئين الأفغان في باكستان، وأحمل أوراق إقامتي الرسمية من قبل السلطات الباكستانية والمصدقة من قبل منظمة اليونسكو.

لقد عملت في كفالة الأيتام، ولم أكن أظن أنه سيأتي يوم تحتاج فيه أسرتي إلى من يكفلها!

كما أنني عملت أخيراً مسؤولاً عن إحدى المستشفيات؛ التي تقدم خدماتها مجاناً للاجئين والمحتاجين.

ولم أكن أظن أنه سيأتي يوم تكون ابنتي كأولئك البنات المساكين اللاتي كنتُ أراهُنَّ في المستشفى من دون أب يحنو عليهن!

و لم أكن أتوقع أن تموت ابنتي وهي تعاني آلام المرض، وتتقلب على سرير البلاء؛ لقلة ذات اليد، والعجز عن توفير الدواء!!

والآن، لماذا يحتجزني الأميركيون؟

ألم يكفهم موت ابنتي "شفاء"؟ وقبل ذلك تدمير مصنع الشفاء؟!

ذلك جزء يسير من مآسي الأسرى المحتجزين في جزيرة غوانتانامو.

وذلك غَيْضٌ من فَيْضٍ ما يعانونه من ظلمٍ وقهر وعدوان.. في ظل العدالة الأميركية المزعومة وحقوق الإنسان المزيفة!

قد يئسوا من محكمة الأرض الجائرة، ويتطلعون إلى محكمة السماء العادلة.

حينئذٍ، يعلم العالم أجمع من المجرم الحقيقي، نحن أم هم، وإن غداً لناظره لقريب!

سردتُ تَيْنكَ القصتين في إحدى الرسائل التي كتبتها من داخل السجن، وأعطيتها إلى المحامي كلايف، وكنت أظن أنه أخذها معه، غير أنني علمت بعد خروجي أن مقص الرقيب قد منعه من إخراجها!

ثم توالت الأحداث، فقد توقف صلاح السلمي (المعروف بعلي عبد الله) عن إضرابه عن الطعام، وهو أحد الثلاثة الذين حطّموا الرقم القياسي في الإضراب من حيث المدة، وعاد إلى عنبر ألفا (A) حيث كان مانع العتيبي وياسر الزهراني.

في ليلة العاشر من شهر يونيو/حزيران عام 2006 (وكانت إحدى ليالي الجمعة التي اعتاد الأسرى فيها الترفيه عن أنفسهم بالنشيد والشعر).. تعشى الجميع ونام أغلب المعتقلين.

وفي حدود الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً أخذت الجندية تصرخ: النجدة.. النجدة!

تدفق الجنود والأطباء، وخرج أول نعش عليه علي عبد الله – رحمه الله – مقيَّد اليدين من الخلف ومكمم الفم، ثم بعده خرج النعش الثاني وكان ياسر الزهراني بالوضعية نفسها، ثم تبعه النعش الثالث لمانع العتيبي!

مسرح الجريمة، عنبر ألفا (A)، يتكون من ثمانٍ وأربعين زنزانة، وهو عبارة عن حاويات حديدية مفتوحة مفصولة بالشبابيك، كل زنزانة مساحتها متر ونصف في مترين.

وتحتوي الزنزانة على سرير ومرحاض ومغسلة.

القانون الساري في العنبر يمنع تغطية واجهة الزنزانة منعاً باتًّا، ولا يُسمح بتعليق أي شيء فيها، وكان يُسمح بغطاء واحد ومنشفة وحصير.

يمر الجنود أمام الزنازين على مدار الساعة، وكاميرات المراقبة مثبتة في الممرات تراقب كل صغيرة وكبيرة.

كان أحد الشهداء الثلاثة يقيم في الزنزانة رقم 9، والثاني في الزنزانة رقم 11، والثالث في الزنزانة رقم 21 أو 23.

تقول تصريحات الجيش الرسمية: إنهم شنقوا أنفسهم. ولكن:

.بماذا شنقوا أنفسهم؟

وأين كان الجنود عندما شنقوا أنفسهم؟

وأين كانت الكاميرات؟

ومن قيدهم من الخلف وكمَّمَ أفواههم؟!

الفحوصات تؤكِّد أنه عُثر عليهم بعد ساعات من موهم، فأين كان الجنود طوال تلك الساعات؟

سؤال آخر:

ذكر الصليب الأحمر أن الجثث وصلت إلى بلدالها مجوَّفة؛ وذلك حتى لا تعلم أسباب الوفاة، إذ لا يمكن تشريح الجثث وهي مجوفة، فلماذا تخشى الإدارة كشف أسباب الوفاة الحقيقية؟!

سؤال آخر:

إن أبواب الزنازين كانت مغلقة، فمن فتحها وذهب ليعلقهم بالسقف؟

مع أن السقف ليس فيه مكان يسمح بتعليق أي شيء!

ولم يكن الشهداء الثلاثة في زنازين متجاورة، إذ كانت تفصل بين الواحد منهم والآخر ثلاث زنازين أو أربع؛ فما الذي جعل موهم يتَّحد في الزمان والمكان!؟ والطريقة والأسلوب أنفسهما!؟

هذه أسئلة لم تُجب عنها بعدُ وزارة الدفاع الأميركية!

أما نحن المعتقلون فقناعتنا أن هؤلاء إخواننا، نثق في دينهم، ورجاحة عقولهم، وصبرهم، وقوة إيمالهم بربهم..

ونقول بالحرف الواحد: لم ينتحروا؛ ولكن هناك حقيقة مجهولة تستحق البحث والتحقيق!

ذهبتُ إلى المحامي كلايف، وعرفت منه أن الخبر صحيح، وأنه قد تم إرسال الجثامين الثلاثة إلى بلدانهم.

فقد نقل جثمان كل من ياسر ومانع إلى السعودية، بينما نقل جثمان صلاح السلمي المعروف بـ "علي عبد الله" إلى اليمن.

قال المحامي: إن هناك احتجاجات كبيرة في البلدين على ما حدث، وسألني عن قصة هؤلاء، فأخبرته بما أعلم.

وقد كتب الإخوة المعتقلون قصائد كثيرة، بعد استشهاد الإخوة الثلاثة مانع العتيبي وياسر الزهراني وصلاح السلمي، نسأل الله أن يتقبلهم قبولاً حسناً، نحسبهم شهداء، والله حسيبهم، ولا نزكي على الله أحداً.

وهأنذا أنقل إحدى تلك القصائد، وقد كتبها أحد الإخوة، وكان معروفاً باسم عماد العدني واسمه الحقيقي نصر الدين العدني.

وكنتُ قد نسختُ القصيدة، وأضفت إليها مقدمة، ثم سلَّمتها إلى المحامي كلايف، ولا أدري هل أخرجها معه أم لا!

وقد كتبتُ في المقدمة:

"هذه غوانتانامو، ما زالت تكفكف أحزانها على فقدان فرسانها: مانع العتيبي، وصلاح السلمي، وياسر الظهراني.

شهدوا مع المعتقلين كل المشاهد، فكان لهم في كل منها رايةُ عزٍّ، وصحيفةُ مجد، وموقف فداء.

غير أن هذه المشاهد - على عظمتها وروعتها - لم تكن في حقيقتها سوى إعداد ضخم للموقف العظيم، الذي سنسوقه عبر هذه

الأبيات التي أعقبت غياب شموسهم بعد نبأ استشـــهادهم، نحســـبهم شهداء، ولا نزكي على الله أحداً!

ذلك النبأ الذي هز ضمائرنا في عنف كما هز ضمائر ملايـــين المسلمين منذ سماعهم بالخبر إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أن الله قد رفع في الخافقين ذكراهم، وأعلى في الأنام قدرهم، حين اختارهم إلى جواره.. فإن القلوب ما زالت تقطر دماً على فقدانهم".

وهذه قصيدة أخينا الشاعر، وهي بعنوان:

اصنع قيودك من دمي

اصِـــنَعْ قُيُـــودَكَ مِـــنْ دَمِـــي وَسَـــلامِي
وَاجْعَـــلْ نُعُـــوشَ الْعَـــالَمِينَ أَمَـــامِي

وَاشْـــدُدْ أيـــا هَـــذَا سَلاسِـــلَكَ الَّتِـــي
مُزِجَـــتْ مَـــعَ الأَيَّـــامِ بَـــيْنَ عِظَـــامِي

وَامْنَـــعْ إِذَا مَـــا شِـــئْتَ كُـــلَّ إرَادَةٍ
وَاحْكُمْ عَلَـــى الشَّـــفَتَيْنِ بِالإِعْـــدَامِ

بَـــلْ رَاقِـــبِ الأَنْفَـــاسَ حِـــينَ صُـــعُودِهَا
وَأْمُـــرْ عَبِيـــدَكَ يَسْـــرِقُونَ مَنَـــامِي

وَاصْـــنَعْ سِـــيَاطَكَ مِـــنْ تَخَـــاذُلِ قَوْمِنَـــا
وَأَدِرْ كُـــؤُوسَ الظُّلْـــمِ فِـــي خـــدَّامِي

وَازْرَعْ بُــذُورَ الْخَــوْفِ فِــي أَوْسَــاطِنَا
حَتَّــى تُمَكِّــنَ دَوْلَــةَ الْحَاخَــامِ
قَيِّــدْ إِذَا مَــا شِــئْتَ كُــلَّ شُــعَيْرَةٍ
وَاشْــدُدْ وَبَــالِغْ دُونَمَــا اسْــتِرْحَامِ
فَلَسَــوْفَ أَنْــزِعُ كُــلَّ قَيْــدٍ خُطَّتَــهُ
وَأَسُــوقُهُ تَاجــاً لِكُــلِّ هُمَــامِ
أَسْــمِعْ نَشِــيدَ الْمَــوْتِ مُــرْتَجلاً عَلَــى
وَتَــرِ الْخُلُــودِ لِفِتْيَــةِ الإِسْــلامِ
فَــالْكَوْنُ أَنْصَــتَ وَالْمَلائِــكُ دَهِشَــةٌ
وَالــرُّوحُ تَصْــعَدُ لِلْعُــلاَ بِسَــلامِ
قَــدْ سَــطَّرَ الأَبْطَــالُ ثَــمَّ قَصِــيدَةً
تُــرْوَى وَلَكِــنْ دُونَ أَيِّ كَــلامِ
سِيقَتْ حُرُوفُ الشِّعْرِ مِــنْ بَــاغٍ طَغَــى
لَــمْ يَعْتَــرِفْ بِعَدَالَــةٍ وَنِظَــامِ
كَتَبَــتْ بَغِــيضَ الظُّلْــمِ مُلْتَفّــاً عَلَــى
عُنُــقِ الْكِــرَامِ مُوَثَّــقَ الإِحْكَــامِ
وَمِــدَادُهَا نَفْــسٌ وَرُوحٌ مُجْهَــدٌ
مَخْتُومَــةٌ بِشَــهَادَةِ الأَيَّــامِ
هَــذَا فَتَــى زَهْــرَانَ يَــدْخُلُ بَاسِــماً
نَحْــوَ الْخُلُــودِ مُعَلِّمــاً بِوِسَــامِ

وَيمُـــــدُّ كَفًّــــا لِلْخَلِيـــــلِ مُبَايِعــــاً
قُمْ يَــا عَلِــيُّ فَخْــرَ كُــلِّ عِصَــامِي
وَيَجِيءُ مِــنْ تِلْــكَ الرِّمَــالِ مُهَــرْوِلاً
يَا مَــانِعٌ قَــدْ جِئْــتَ مِــنْ حَمْحَــامِ
رِبْــحَ الثَّلاثَـــةُ إِنْ تُقَبِّــلَ مِــنْهُمُ
لا.. فَـــالْكَرِيمُ يَزِيـــدُ بِالإِنْعَـــامِ
أَعْلَنْـــتُمُ أَنَّ الْحَيَـــاةَ عَقِيـــدَةٌ
وَمَبَـــادِئٌ لا عِيشَـــةُ الأَغْنَـــامِ
وَدَخَلْـــتُمُ التَّـــارِيخَ مِـــنْ أَبْوَابِـــهِ
وَسَـــكَنْتُمُ الْجَـــوْزَاءَ دُونَ خِصَـــامِ
طُـــوبَى لِمَـــنْ بَـــاعَ الْحَيَـــاةَ بِجَنَّـــةٍ
هَـــلْ مِثْلُـــهُ مَـــنْ بَاعَهَـــا بِحُطَـــامِ؟
يَــا دَوْلَـــةَ الظُّلْـــمِ الَّتِــي أَلْبَسْـــتِنَا
ثَــوْبَ الْمَذَلَّـــةِ غَيْـــرَ مَـــا إِجْـــرَامِ
فَرَمَيْتِنَـــا فِـــي بُقْعَـــةٍ مَوْبُـــوءَةٍ
وَالْكُـــلُّ يَعْـــرِفُ قَسْـــوَةَ الأَحْكَـــامِ
وَسَـــقَيْتِنَا مُـــرَّ الْحَيَـــاةِ وَجُوعَهَـــا
لَـــمْ تَكْتَفُـــوا بِنُحُولَـــةِ الأَجْسَـــامِ
وَفَتَحْـــتِ لِلشَّـــيْطَانِ سُـــوقَ تِجَـــارَةٍ
فَتَـــزَاحَمَ الـــزُّوَّارُ لِلإِسْـــهَامِ

هَــــذَا يَكِيــــدُ وَذَاكَ يَصْــــنَعُ حُفْــــرَةً
وَالْعَــــالَمُ الْمَــــأْفُونُ فِــــي أَوْهَــــامِ
وَجَعَلْتِنَــــا حَقْــــلَ التَّجَــــارِب عَنْــــوَةً
وَحَرَمْتِنَــــا مِــــنْ أَبْسَــــطِ الأَحْــــلاَمِ
مَــــاذَا كَسَــــبْتِ الآنَ بَعْــــدَ رَحِــــيلِهِمْ؟
فَلَقَــــدْ خَسِــــرْتِ الْيَــــوْمَ كُــــلَّ سِــــهَامِ
وَلَقَــــدْ تَبَــــدَّى مَــــا يُحَــــاكُ بِخِفْيَــــةٍ
كَشْفَ الصَّلِيب وَدجــــلَ كُــــلِّ مُحَــــامِ
نُزِعَ الْقِنَاعُ مِــــنَ الْوُجُــــوهِ فَمَــــا تُــــرَى
يَبْقَــــى لَهُــــمْ مِــــنْ لُعْبَــــةِ الأَفْــــلاَمِ؟
هَــــبْ أَنَّنَــــا مِتْنَــــا جَمِيعــــاً هَــــا هُنَــــا
فَلَسَــــوْفَ تُهْــــزَمُ رَايَــــةُ الأَقْــــزَامِ
وَلَسَــــوْفَ نَبْقَــــى شَــــاهِداً لِصَنِــــيعِكُمْ
وَسَــــــــنَمْزِجُ الآلاَمَ بِــــــــالآلاَمِ
مَــــوْتُ الرِّجَــــالِ حَيَــــاةُ جِيــــلٍ قَــــادِمٍ
مُتَمَسِّــــــكٍ بِعَقِيــــــدَةٍ وَحُسَــــــامِ



الفصل الخامس والعشرون

اضطرب جناحا طائر الليل الوحيد، فجاء صوتُ رَفْرَفَتِهما خفيضاً موهناً!

لعمري قد عرفت ذلك الوهن..

الوهن الذي يكادح الليل فلا يستقر ولا يستسلم، بل يصير في ذاته سلاحاً ماضياً.

نعم عرفنا - بالممارسة - أن الإضراب عن تناول الطعام سلاحٌ قويٌّ لا يُستهان به، سلاح يملكه الجميع.. سلاح لا يحتاج إلى نقود أو نفوذ؛ لأنه ببساطة سلاحٌ لا يُشترى!

ولعل أشهر الإضرابات في غوانتانامو إضراب الأنابيب، كان مناصرة للأخ حمزة التونسي؛ الذي ضربه المحقق بالكرسي على رأسه وهو مقيد فشجه وسالت دماؤه.

كان ذلك في شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام 2002م.

ونظّم المعتقلون - أيضاً - إضراب "سالم حمدان"؛ كما بات يُعرف فيما بعد، وفيه بدأت مجموعة كبيرة من المعتقلين إضراباً عن الطعام دام أسبوعين تقريباً؛ احتجاجاً على سوء المعاملة.

وانتهى بوعود قطعتها الإدارة على نفسها بتحسين الأوضاع.

ولكننا لم نرَ لتلك الوعود أثراً!

ويبدو أن المهم عندهم هو أن يضعوا حدًّا لحالة الاحتجاج تلك.

سبق إضرابَ سالم حمدان المذكور إضرابُ السجن القديم؛ الذي كان مفتاح الخير على المعسكر؛ إذ تم تحسين وضع المعتقلين المعيشي والنفسي، وسُمح بالكلام بين المعتقلين، وبالصلاة بشكل أفضل، وتحسَّن الطعام.

وكان رموز هذا الإضراب وأبطاله الذين صمدوا فيه حتى النهاية ورفعوا رايته خفّاقة هم: عبد العزيز الكويتي، وشاكر المدني، ورضا التونسي، ومحمد رجب اليمني.

وانتهى الإضراب بعد ثلاثة أشهر من الصمود.

صادف أني، في تلك الفترة، ذهبت إلى المستشفى؛ بعد تورُّم ركبتي، والتقيت وأحد المعتقلين ويدعى محمد الأمين الشنقيطي، وكان مضرباً حينئذٍ، وذكرت له أني حريص على معرفة سبب إضرابه عن الطعام، لكي أذكر ذلك للمحامي.

بدأ الرجل حديثه قائلاً: إن سبب إضرابه هو أن كثيراً من المعتقلين في المعسكرات الأول والثاني والثالث أصبحوا يعانون مشاكل صحية في مسالكهم البولية، والسبب الرئيس في ذلك هو عدم وجود ماء صحي للشرب.

والأدهى من ذلك والأمرُّ: أنهم لا يُصرف لهم الدواء إلا بإذن من المحققين!

وذكر لي أنه: ذات يوم، جرى حديث في عنبر كيو (Q) حول هذا الموضوع، وطُرحت فكرة الإضراب عن الماء الذي يلزم بداهة الإضراب عن الطعام من أجل تغيير هذا السُّم الذي فتك بكثير من المعتقلين.

روى لي الشنقيطي أنه اتفق مع عبد الله القحطاني وأبي زياد المكّي، وأدهم اليمني، وبدر السميري (المعروف هناك بجبريل) وشخصين لم يذكرهما.. قرروا معاً عدم التفاوض إلا بعد وصولهم إلى المستشفى.

بعد يومين من الإضراب، سقط الشنقيطي في زنزانته بسبب دُوار شديد أصابه، فنُقل إلى المستشفى.

فوجئ الطبيب بأنه يعاني نقصاً شديداً في السوائل، فسأله إن كان يشرب الماء، أجابه بأنه يشرب الماء الصالح للشرب وليس الماء الذي يضره.

عندها شعر الطبيب بأنه مضرب عن شرب الماء، فأمر له بالماء الصحي وقال له: اشرب، فامتنع الشنقيطي من الشرب إلا أن يكون ذلك بداية لحل دائم لمشكلة المياه.

قال له الطبيب: تشرب هذا الماء في المستشفى فقط، وعندما ترجع إلى العنبر ستشرب من الماء الثاني.

وعندما رفض أن يشرب هدَّده بتركيب السيروم، لم يأبه الشنقيطي لتهديد الطبيب، وحمل معه ثلاثة سيرومات ورجع إلى العنبر وواصل الإضراب.

بعد ثلاثة أيام نقل مرة أخرى إلى المستشفى وتم فحصه، فإذا بالحالة الصحية سيئة للغاية.

عندها جاءه رئيس الأطباء وأمر بتركيب السيرومات، وحجزه داخل المستشفى، وقال: هل تريد أن تقتل نفسك؟

فرد عليه: ذلك أفضل من أن تقتلوني بالأمراض.

سأل الطبيب: وكيف ذلك؟

فأجاب: أنتم تشربون الماء الصالح للشرب، وتأمروننا بشرب الماء الفاسد الذي تكتبون عليه في غرف التحقيق، وفي العيادة أنه غير صالح للشرب! أنا أعلم أنه غير قاتل ولكنه يسبب الأمراض.

أجاب الطبيب: إن الماء المستخدم في الغرف لن يتم تغييره. وإن عليهم أن يستمروا في شربه؛ ولكن ذلك لم يدفع الشنقيطي إلى تغيير موقفه.

رجعتُ إلى عنبري في المعسكر الرابع، وقد اشتعلت المعسكرات، وشرع الإخوة في الإضراب عن الطعام احتجاجاً على وضعية المعتقلين في السجن الخامس.

والسجن الخامس هذا هو من أشد سجون العالم حصانة وأمناً، كما أنه من أكثر السجون تطوراً من حيث استخدام التكنولوجيا المتقدمة.

وهو مكوَّنٌ من طابقين، زنازينهما انفرادية وأبوابها إلكترونية.

شاع خبر هذا السجن بأنه سيكون للذين سيبقون في هذه الجزيرة إلى الأبد، وانتهز المحققون هذه الفرصة بتهديد المعتقلين الذين لا يتعاونون معهم في توريط الناس والكذب عليهم، بأنهم سوف يحالون إلى ذلك السجن الذي سيكون مثواهم الأخير.

اتَّبعت الإدارة هي الأخرى أسلوب تفريق المعتقلين وتشتيتهم؛ حتى تتفرد بكل مجموعة على حِدَة، تسومها سوءَ العذاب.

كان المعتقلون في السجن الخامس يأكلون قشور فاكهة الموز والبرتقال.. من شدة الجوع! ويزداد الأمر سوءاً مع شدة البرد.

كان ذلك قبل أن يقرروا الإضراب عن الطعام.

أما العلاج فلا يحلم المعتقل به، ولا بصرف الدواء إلا بعـد إذن من المحققين، ونادراً ما كان المحققون يعطون إذناً بذلك.

ثم تضامنت العنابر الأخرى معهم، وانتشر الأمر ليشمل المعسكر برمته.

كان المعتقل يمر بمرحلة صعبة على نفـوس السـجناء، حيـث المشاكل والمآسي التي يعيشها بعض المعتقلين، مثل الأخ مشعل المدني الذي كان مشلول القدمين طريح الفراش يرقد في المستشفى؛ وحـتى هو لم ينجٍ من العقوبات، فقد ينام في ذلك الجو البارد بلا فـراش ولا لباس مقيداً إلى السرير!

بلغ بنا الحزن غايتَه! لا سيما أن هذا الشخص سقط دفاعاً عـن كتاب الله.

تكاثر عدد المضربين وتضـايقت بهـم العيـادة والمستشـفى، وأصبحت الإدارة في وضع حرج للغاية بعـد أن اتسـعت رقعـة الإضراب لتشمل المعسكرات: الأول والثاني والثالث والرابع، فلجأت إلى أسلوب الحوار مع بعض المعتقلين، وتعهدت بتحسين الأوضـاع كما هي عادتها في إطلاق الوعود.

استجاب السجناء على مضض، وأعطوا ما اعتبروه فرصة أخيرة للإدارة لكي تلتزم بوعودها.

وفي العاشر من أغسطس/آب عام 2005، بدأ إضراب الأنابيـب الذي حطَّم الأرقام القياسية في العالم!

وكانت بدايته بعد عشرة أيام أو أقل من تلك الهدنـة، وكـان سببه ضرب أحد المعتقلين، وهو الأخ حمزة التونسي بالكرسي علـى رأسه.

كان الدم الذي سال من رأس حمزة بمنزلة الشرارة التي أطلقت ذلك التحرك الاحتجاجي الفريد.

نعم! كان فريداً من نوعه، من حيث قناعة المشاركين فيه ومطالبهم الواضحة.. فقد اقتنع المشاركون أنه لا تفاوض بعد اليوم، ولا مطالب إلا الفصل في القضية.. فالبريء يطلق سراحه والمذنب يحاكم.

بعد معركة دامت ستة أشهر مع وزارة الدفاع الأميركية (الطاقم الطبي تحديداً)، فُكَّ الإضراب ووصلت الحركة الاحتجاجية إلى نهايتها.

صمد في الإضراب ثلاثة أبطال على الرغم من كل الصعاب، وهم:

أحمد المكي،

وعبد الرحمن المدني،

وعلي عبد الله المعروف بصلاح، رحمه الله.

كانوا هم حديث الساعة، وقد أُعجب بهم الجميع؛ فقد استسلم الأطباء بعد أن لم تبقَ وسيلة للتعذيب إلا مورست.. إلى حدها الأقصى، وأن أي زيادة ستكون قاتلة.

في تلك الفترة تم إطلاق سراح أغلب المضربين السابقين؛ أمثال: زبير المغربي، نجيب المغربي، سعود الشيباني.. ولكنْ، فك الإضراب بعد تدخل الطب الذي تعاون مع التكنولوجيا على إيذاء المضربين.

خلقت تلك الحاجة إبداعاً دخل كتاب الأوائل؛ حيث بدأ إضراب من نوع آخر وهو الإضراب السري، وقد اقتنع كثير من

المضربين السابقين بأن هذا النوع هو الوسيلة الوحيدة المتبقية لـــديهم لمقاومة الظلم.

الإضراب السري يوصل المضرب إلى حالة لا تســعفه معهــا التغذية القسرية على الكرسي ولا على غيره.

في إحدى الليالي غادرتِ المعتقلَ مجموعةٌ كبيرة من السعوديين، فكانت ليلة وداع، وكان للعشاء طعمٌ خاص، وشعرنا معـــه بفـــرح شديد ونحن نرى إخواننا يخرجون بهذا العدد الكبير.

شعرنا كأننا لم نتعشَّ من قبل مثل ذلك العشاء، نظـــراً إلى مـــا صحبه من الفرح والانشراح.

في صبيحة اليوم التالي، فوجئنا بالجنود يصـــرخون، النجـــدة! النجدة!

وبعد دقائق معدودة جاء الإسعاف ونقلوا يوسف الشهري وهو في حالة حرجة، فقد كان مضرباً عن الطعام سرًّا.

بدأ تفتيش العنبر وطلب الجنود تفتـــيش المصـــاحف، فـــامتنع السجناء وطلبوا المترجم ليتحدثوا معه.

أخبرهم المترجم أن هذا أمر من الإدارة؛ لأن هنـــاك محـــاولات انتحار من بعض المعتقلين، وتريد الإدارة أن تتحقق من ذلك بتفتيش كل شيء.

ونحن نعلم (وهم يعلمون) أنه ليس هناك داعٍ لهذا الإجـــراء إلا تعريض السجناء للإهانة، وخلق مشكلة في العنابر.

وعمَّ التفتيش مختلف العنابر بعد كشف حالـــة أخـــرى مـــن الإضراب السري في أحد العنابر.

حقًّا كانت هناك انتهاكات للقرآن الكـــريم، حيـــث فتشـــوا

المصحف مرات عدَّة، على إثرها قرر المعتقلون الدخول إلى غرفهم حتى يأتي مسؤول من قبل إدارة المعسكر.

بالفعل حضر أحد المسؤولين من الضباط فقدَّمني الإخوة للحديث معه، فقلت له بالحرف الواحد:

إن أكثر من تسعين بالمائة من المشكلات الموجودة بين المعتقلين وإدارة السجن سببها انتهاككم للقرآن الكريم، ونحن لا نريد مشاكل ولا نريد شيئاً، خذوا المصاحف، واجمعوها لديكم حتى لا تكون هناك مشكلة.

قال لي: إنه لا يستطيع أن يتخذ قراراً بهذا الحجم ما لم يرجع إلى الإدارة. وكان الوقت ليلاً فطلب مهلة إلى الصباح.

أخبرتُ زملائي المعتقلين بذلك، فأصروا على أن يأتي الرد فوراً، إما أن تُسحب المصاحف أو يمتنعوا من دخول الغرف.

خرج الرجل، وأحسب أن رتبته عقيد، وبعد هنيهة حضر وقال: إنه تكلم مع الجنرال وأبلغه بالأمر، فقرروا التوقف عن تفتيش المصاحف نهائيًّا.

أبلغتُ الزملاء بذلك القرار فعادوا إلى غرفهم وأنهوا إضرابهم.

ولكن الإدارة عادت وفتشت المصاحف مرة أخرى، وفي 18 من مايو/أيار 2006 تقريباً فتشوا المعسكر الرابع تفتيشاً كاملاً، وعندما جاؤوا إلى العنبر يونيفورم (U) الذي أقيمُ أنا فيه، جاءني أحد الإخوة وقال: إنهم يريدون أن يفتشوا المصحف.

قال لي: لقد نكثوا بعهدهم الذي قطعوه لنا بألا يعودوا إلى تفتيش المصاحف، وهم الآن مصرُّون على تفتيشها ولو بالقوة.

قلت: إن فتشوها فليأخذوها ولا يعيدوها إلينا، وبالفعل فتشوها فخرجنا وأصررنا على سحبها، فسحبوها.

تكرر الأمر نفسه مع عنبر ويسكي (W)، وفي عنبر زولـــو (Z) حدثت مشاكل بين المعتقلين والجنود الذين قاموا بتشغيل صـــفارات الإنذار إعلاناً عن الخطر، فحضر كثير مـــن العســـاكر مـــدججين بالبنادق، وأمطروا المعتقلين بالرصاص المطاطي.

اشتبكنا معهم وقمنا بتحطـــيم محتويـــات الغـــرف وكســـرنا الكاميرات؛ إذ كانت توجد في كل غرفة كاميرات مراقبة، إلى جانب الكاميرات الخارجية.

وبالمختصر: فقد انطلق تمرد فعلي في المعسكر كله، فنَقَلوا جميع من كانوا في المعسكر الرابع.

كانت الأحداث في منتصف النهار، وفي وقت العصر، قـــاموا بنقل نزلاء ثلاثة عنابر، وفي الليل نقلوا المعتقلين البـــاقين في عنـــبرين آخرين، و لم يبقَ إلا غرفتان.

نقلونا إلى المعسكر الأول ووضعونا في عنبر برافـــو (B)، ووُزِّع إخوةٌ آخرون على المعسكرات الأخرى، وعوقب جميع من كانوا في المعسكر الرابع.

في عنبر برافو (B) قابلنا معتقلين من عنبر ألفا، وكـــان بعضـــنا موجوداً في عنبر تشارلي في المعسكر الأول، أما المعسكر الثالث فقـــد كان ممتلئاً، جميع عنابره: "سيارة"، و"كوباك"، و"روميو"، و"نوفمبر"، و"أوسكار".. كلّها مُلئت بمن أُرْجِعُوا من المعسكر الرابع.

أصيب في ذلك اليوم بعض المعتقلين بالرصاص المطاطي، ومـــن بينهم أحد الإخوة الأفغان أصيب في ظهره.

كانت شرارة الأحداث يومئذ قد انطلقت من الغرفة رقم واحد في عنبر زولو (Z)، وفيها مجموعة من الأفغان ومعهم أحد الإخوة السعوديين وعوقبوا جميعاً.

بقينا في عنبر برافو (B)، وعلمنا أن بعض الإخوة نقلوا في ذلك اليوم إلى المستشفى بسبب إصابتهم بجروح خطيرة، فكنا نترقب أخبارهم.

ساءت الأحوال وضاق الخناق على المعتقلين، وأُعطِيَ الجنود صلاحيات واسعة ليفعلوا ما يريدون، فكانت تلك أسوأ أيام المعتقل؛ حيث التجويع والضرب والإهانة والاستهزاء بالدين..

وهكذا كابدنا شقاء الليالي الطوال التي لا فجر لها، والأيام العسيرة في ذلك المعسكر الرهيب، حتى طفح الكيل وبلغ السيل الزبى.

قررتُ أن أبدأ النضال والكفاح من أجل الحصول على حقوقنا المهضومة واستعادة حريتنا المسلوبة، مشهراً في وجوه الجلادين والسجانين سلاح الإضراب عن الطعام، وهو سلاح المظلومين والمقهورين.

ودامت تلك المعركة الشرسة سنة وبضعة أشهر، لقيتُ فيها من المعاناة ما يعجز اللسانُ عن وصفه، والعقلُ عن تخيله!

الفصل السادس والعشرون

للحظة شعرت بإعياء شديد، شعرت كأن ليلي لــن ينتـــهي؛ واصْطَخَبَتْ أمواج الخليج، فانطلقتْ في نفسي ذكرى أيام إضـــراب عن الطعام.

أذكر أن افتتاح المعسكر السادس كان في نهاية عـــام 2006 أو مطلع عام 2007، وكنت قد قررت أن أدخل في إضراب عن الطعام، وقبل ذلك بدأت في تقليل الأكل، والتقليل من الوجبات، واســـتمر ذلك فترة.

وبعد عيد الأضحى مباشرة، أعلنت إضراباً عن الطعام، كـــان ذلك في السابع من يناير/كانون الثـــاني 2007. وقبـــل الشــــروع في الإضراب أرسلت رسالة إلى الجنرال أخبرته فيها بخمسة مطالب لفك الإضراب:

- ✓ كان المطلب الأول: احترام مشاعرنا الدينية.
- ✓ والثاني: تمتعنا بحقوقنا التي تنص عليها اتفاقية جنيف الخاصة بالأسرى.
- ✓ والثالث: إعطاءنا حقنا في المرافعة أمام المحاكم المدنية (وهـــو حق كفلته لنا المحكمة العليا الأميركية وقـــام الكـــونغرس باغتصابه منا).

- ✓ والرابع: إعادة المعتقلين المعزولين لفترات طويلة في معسكر إيكو (E).
- ✓ والخامس والأخير: التحقيق في مقتل الثلاثة الذين تُوُفُّوا في العاشر من يونيو/حزيران 2006م.

رفعتُ تلك المطالب، وبعدها بدأتُ إضرابي من فجر السابع من يناير/كانون الثاني، عام 2007م، واستمر الإضراب شهراً قبل أن يأخذوني إلى المستشفى.

وبعد خروجي من المستشفى، واصلت إضرابي وكُلِّي عزيمةٌ، على الرغم من أصناف التعذيب التي مُورست عليَّ.

وقد مررت أثناء إضرابي عن الطعام بأربع مراحل:

أولاها: مرحلة المستشفى.

والثانية: مرحلة ما بين إيكو (E) وإنديا (E).

والمرحلة الثالثة: مرحلة بابا (P).

والرابعة: مرحلة دلتا.

كلما مررت بمرحلة لَعَنت أختها! وكانت الأولى والأخيرة أشدها وطئاً وعذاباً.

فقد تعمدوا في مرحلة المستشفى أن يهملوني شهراً كاملاً من أجل أن أيأس وأتراجع تحت وطأة الجوع والعطش؛ ولكن خاب ظنهم وأصبحوا مجبرين على حجزي داخل المستشفى بعد شهر من الإهمال في العنبر.

بدؤوا أولاً في المستشفى بالتغذية الوريدية وما صاحبها من غرز الإبر والأخطاء المتعمدة والاستهزاء والسخرية... كل ذلك لم يزدني إلا عزماً وإصراراً.

وبعد فشلهم في استخدام غرز الإبر وسيلة للضغط عليَّ، قرروا أن أخضع للتغذية القسرية عبر الأنبوب، فحالتي الصحية لم تعد تسمح بمزيد من التأخير حسب تقديرات الطبيب (المشرف على التعذيب).

كان ذلك يوماً مشهوداً، فقد اجتمع عليَّ طاقم المستشفى وقيدوا أطرافي الأربعة بحيث لا أستطيع الحركة، وأدخلوا الأنبوب في أنفي فأُصِبْتُ بعدها بشيء من الاختناق والإغماء، وبدأ حلقي يلتهب وآلامي تشتد، وأحسست أنني على فراش الموت، فجسمي تغير لونه وبدأ العرق يتصبب مني.

وبعد نصف ساعة تقريباً، بدأت أشعر بقليل من النشاط على الرغم من الآلام المتصاعدة.

طلبت منهم أن يخلعوا عني القيود الأصلية، فرفضوا بحجة الإجراءات الأمنية، فقلت لهم مستنكراً: ما عساي أفعل وأنا على تلك الحال؟ قولوا: إنكم لا تريدون أن تسمحوا لي بالصلاة!

فحمدت الله أني مضرب عن طعام قوم هذا حالهم وتلك صفاتهم.

رجعت إلى العنبر بعد أن مكثت عدة أيام على تلك الحالة المأساوية في المستشفى، وبقيت أتردد بين عنبر إيكو (E) الذي أقضي فيه سائر اليوم، وعبر إنديا (i) الذي أذهب إليه للتغذية القسرية مرتين في اليوم، وهو العنبر المخصص للمضربين آنذاك.

كان من المفترض أن أبقى في ذلك العنبر بعد رجوعي من المستشفى؛ ولكن الإدارة خشيت أن يشجعني ذلك على الاستمرار في الإضراب، ولا سيما مع وجود إخوة لديهم الحالة نفسها، وقد

مضى على بعضهم سنتان وهم مضربون؛ مثل: أحمد المكي، وعبد الرحمن المدني.

وعلى الرغم من صعوبة ظروف المكان، فقد خصص لتعذيب المضربين عن طريق العزل التام والتكييف العالي؛ حيث تصل درجة البرودة إلى ما تحت الصفر.

وكان أسلوب الحراس سيئاً للغاية، يقتحمون زنازين الإخوة بمساعدة فرق مكافحة الشغب من دون سبب ولا مبرر، ويفرطون في ضربهم، كل ذلك لثنيهم عن مواقفهم ومطالبهم العادلة!

وبعد مضي شهر تقريباً على البرنامج بين إنديا وإيكو، نُقلت إلى عنبر شارلي (C) وتم تفريغ عنبر إنديا (i) من المضربين الذين نُقل ثلاثة منهم إلينا في شارلي، وهم: أحمد المكي، وعبد الرحمن المدني، ومحمد الأمين الشنقيطي.

وخُصص لنا عنبر هوتل (H) المقابل لعنبر شارلي (C) للتغذية القسرية مرتين في اليوم.

كانت تلك من أكثر مراحل الإضراب هدوءاً، على الرغم من المضايقات التي صحبت تلك الفترة، كنوع من العقوبات المفروضة علينا بسبب الإضراب، فنحن محرومون من كل شيء ما عدا الحصير والملابس البرتقالية.

كما مُنعنا من الرسائل وسائر وسائل التواصل مع الأهالي والعائلات.

كان الدافع الأساسي لهذه التهدئة من قبل الإدارة هو تراجع بعض المضربين عن الإضراب بسبب وعود قطعتها لهم، وهذا أسلوب

من أساليب الإدارة الماكرة، فكلما تراجع عـــدد المضـــربين خـــفَّ الضغط، وكلما زاد عددهم اشتد الضغط.

استقر مكر الإدارة وكيدُها على تجميع المضربين من جديد بعد أن ازداد عددهم من أربعة إلى ما يقارب العشرين، وكان عنبر دلتـــا هو المكان الأنسب لتلك المهمة غير الأخلاقية، فعنبر دلتا مصمم على شكلٍ عنبر روميو، وهو مغطًّى بالبلاستيك المقوَّى، ونوافذه مغلقـــة دائماً، ويصعب التنفس داخله ولا سيما مع حرارة الجو وأصـــوات الآلات المزعجة التي لا تتوقف عن العمل على مدار الساعة.

كان الجنود يستخدمون بخاخات الفلفل على المضـــربين بـــلا سبب، فيتضاعف مفعول البخاخ بسبب الجو الخانق من كل جهة، أما النوم فلم نكن نحلم به، من شدة الإزعاج المتعمَّد بتنظيف العنابر ليلاً وبالتفتيش العشوائي.

في تلك الأوضاع المأساوية كانت تتم تغذيتنا علـــى كراســـي الإعدام التي صممت ليقيد المضربون عليها بأكثر مـــن اثـــني عشـــر حزاماً، ليتسنى لـــ "الطبيب" أن يتفنن في إدخـــال أنبوبـــه الملعـــون وإخراجه بلا شفقة ولا رحمة دون أن يستطيع المعـــذب تحريـــك أي عضو من أعضائه، فهو مشدود على الكرسي بإحكام.

أما غرز الإبر بحجة أخذ الدم للتأكد من حالة المضرب الصحية فعَنْهُ حدِّثْ ولا حرج!

فلم يبق عِرقٌ من عروقنا إلا غُرز بغرض التعـــذيب وتـــدريب المستجدين من الطواقم (الطبية)!!

هكذا مرت أيامي الأخيرة في ذلك المعتقـــل التعـــيس الأكثـــر سوداوية في التاريخ الحديث.

فهناك جنود قاموا بالتعذيب، وضباط شاركوا وأمروا به.

وذهب كثيرون إلى المبالغة في اتهام الجنود والضباط وتحميلهم المسؤولية في تعذيب المعتقلين في غوانتانامو، وهم صادقون..

لكن العقل المدبر والمخترع الأول لوسائل التعذيب البدني والنفسي المتنوعة في الحقيقة يتمثل في هؤلاء "الأطباء" الذين أبدعوا في القسوة والألم وإيذاء بني البشر.

وقد صرحوا لنا ذات يوم قائلين: "سنعذبكم دون موت.. ولن نسمح لكم بالموت عندنا؛ ولكن ستعيشون بين الموت والحياة"! كان هذا هو شعارهم اللعين.

بل إنَّ مقالاً نُشر تحت عنوان: "التجنب والهروب والمقاومة"، قال كاتبه الأميركي الجنسية بالحرف الواحد: "حسب معايشتي لهؤلاء الأطباء فقد كانوا مشرفين حقيقيين على كل مراحل التعذيب يُبَيِّنون للجنود كل مواضع الإحساس في الجسم، حتى يستطيع إيذاء المعتقلين وزيادة آلامهم. وقد تجاوزوا مجرد الاستشارة في أكثر من حالة.

ومع حرصهم على أن يظلوا خلف الستار، فهم مسؤولون عن أنواع من التعذيب والإيذاء، بل نقل الإفساد مع الترصد والإصرار".

إنه لهولٌ مفزع، فالأطباء الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الألم بعد أن أهَّلتهم جامعاتهم وعائلاتهم ليكونوا أعداءً له، وبعد أن أقسموا القسم الطبي أثناء تخرجهم.. أصبحوا يمارسون من مثيرات الألم أصنافاً شتى، وأنواعاً كثيرة، تبدأ من إعطاء المريض دواءً منتهيَ الصلاحية، وهذا ما حدث عندما أعطي "الكرمن" (قطرة العين) للأخ عبد الرحمن الغامدي، فالتهبت عينه وازداد ألماً على ألم..

وآخر أعطي قطرة للأذن بدلاً من قطرة العين، وغيرهم كثير.

أما العمليات الجراحية في المعتقل، فتنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الأخطاء الطبية المزعومة! وهذا أمر لا محيد عنه، ومتعارف عليه في غوانتانامو.

وكنت قد قرأتُ في أحد التقارير أن الأخطاء الطبية في عموم الولايات المتحدة تبلغ سنويًّا مائة وخمسين ألف خطأ؛ على الرغم من التقدم التقني والخوف من المتابعة القضائية، فكيف بمستشفيات غوانتانامو؛ حيث لا رقيب ولا حسيب، وحيث السوء يتجلى في أبشع صوره؟!

ومن نماذج ضحايا الأخطاء الطبية المفترضة أو المفتعلة على الأصح في غوانتانامو، الأخ عبد الرحمن المصري؛ الذي قطعت رجله بطريقة بشعة، حيث تركوا قدراً يسيراً من الساق تحت الركبة على الرغم من أنه كان بإمكانهم أن يتركوا خمسة عشر سنتيمتراً، بدلاً من خمسة سنتيمترات. زد على ذلك أنهم نزعوا من اللحم أكثر من اللازم فأصبح العظم معرضاً للألم، وينكأ الجرح كلما لامسه ثوب أو قيد أو أرضية الغرفة فيكاد يصعق من فرط الألم.

النوع الثاني: عمليات يتم إفشالها عمداً، كما وقع للأخ أنصر الباكستاني؛ الذي أجريت له عدة عمليات فاشلة، حتى أصيب بالشلل شبه الكامل، بعد أن كان من أقوى الناس جسماً، وأقومهم شكلاً، وأحسنهم مشية!

النوع الثالث: العمليات العبثية، وهي تجرى لسببين:

أحدهما: تأديب قادة الاحتجاجات، فالمعتقل عمران الطائفي

أجريت له عشرون عملية جراحية لعرقلة نشاطه في قيادة تلك الاحتجاجات.

وثانيهما: تدريب المتدربين على إجراء العمليات.

وهناك حالة أو اثنتان على الأقل أجريتا لغير الغرضين السابقين، ويزعمون أنها مجرد "عمليات جراحية عادية".

ثم جاء التعذيب من خلال منع الدواء، فبكل بساطة يسمح "قانون غوانتانامو" للمحقق أن يمنعك من الدواء حتى تعترف له بالمعلومات التي يريدها منك، وإلا أمر إدارة المستشفى بالامتناع عن علاجك، حتى وأنت في أشد ما يكون من الألم والمرض.

وحين تسأل عن الدواء يرد الطبيب مستخفاً، وقد ألقى وراء ظهره كل المشاعر الإنسانية والعواطف الآدمية: "اطلب العلاج من المحقق"!

وهذا ما حدث مع الأخ علي الوائلي؛ الذي عانى آلاماً مبرحة في أذنيه.

ولك أخي القارئ أن تتصور آلام الأذنين وهي في أشد وجعها!

كنت أرى الأخ يتلوّى، ويدور يمنةً ويسرةً؛ من فرط الألم، أمام أعين العسكريين الذين لا يزيدون على القول: "اطلب ذلك من المحقق".

وحدث ذلك مع الأخ أبي الوليد المكي؛ الذي عانى آلاماً مبرحة في أضراسه، وظل ساعاتٍ يطلب مهدِّئاً ومسكّناً للألم، ويقول له الجندي: "لم يحن بعدُ وقتُ توزيع الدواء، انتظر حتى الصباح"!

ثم أُدخل علينا نوع جديد من التعذيب، إنه التعذيب عن طريق الإجبار على الإدمان!

ويمارس هذا النوع من التعذيب وفقَ طريقتين:

الطريقة الأولى:

تُصْرَفُ المواد المخدرة للمريض على أنها أدوية حتى يُدمن عليها المعتقل من دون أن يشعر، ثم تُمنع عنه بعد أن يصبح عاجزاً عن الاستغناء عنها، وتتحول تلك المواد المخدرة إلى وسيلة للضغط عليه من قبل المحققين.

وهذه تستخدم لمن يأملون منهم في إعطاء معلومات، وقد وقع في شراكها واحد على الأقل رأيته في زنزانته وهو يدور مثل الرحى في هَوَس، لا يستطيع الصبر إلى أن تعطى له تلك الحبوب، وفي سبيل ذلك يعترف لهم بما يعرف وما لا يعرف!

الطريقة الثانية:

تُعطى إبر تخدير قسراً للمعتقلين الأشداء الغيورين على دينهم وإخوانهم، حتى يكونوا غير قادرين على الاحتجاج وقيادة النضال داخل المعسكرات.

وبعد أخذها قد يمضي الواحد منهم ثلاثة أشهر وهو هائم فاقد للعقل، لا يميز ليله من نهاره!

أعرف أحد المعتقلين (أعتذر عن إيراد اسمه هنا) وإن كان اسماً تعرفه ساحات النضال والصبر والاحتجاجات خلف أسوار غوانتانامو، سواء في رفض الظلم أو الاحتجاج على انتهاك المقدسات.. قد حيَّر إدارة السجن بصبره وثباته وتأثيره في السجناء،

وقدرته على التحمل والمقاومة...

حقنوه بتلك الحقنة الخبيثة، فبقي طريح الفراش حبيس زنزانتـــه ستة أشهر، وكأنه مجنون فاقد للعقل.

حدث ذلك - أيضاً - مع أحد الإخوة اليمنيين، وهنا أود التنبيه إلى أن كثيراً من الذين مُورست عليهم تلك المهمة القـــذرة، كتمـــوا بعض ما وقع لهم، حتى لا يؤثر ذلك في معنويات إخوانهم، وهـــم في أمس الحاجة إلى التعاطف والتأييد.

الفصل السابع والعشرون

تراخت قبضة الليل العربـــي، ورشقت فراغَ نافـــذتي أشـــعةٌ أرجوانية بنفسجية لا ريب أن الأفق الشرقي قد احتشد بها، و لم أزل أجلس وحيداً أصغي لصدى أنفاسي ونبض قلبـــي..

وطار طائر الليل بعيداً، وأصداء غنائـــه المتلاشـــي ترددهـــا الأنحاء..

ثم ما هي إلا برهة حتى علا صوت طائر آخر، لربما عاد الوليف الغائب!

وأنا قد عـــدت أخـــيراً إلى ذاتي، والصـــباح لمـــا يكتمـــل إشراقه.

وعاودتني ذكرى الشهور والأيام الأخيرة التي أفضت إلى الإفراج عني..

تلك لعمري أيام الإضراب عن الطعام..

في كل يوم من أيام الإضراب الأخير، كنت أشعر بـــأن قـــوتي تضعف، وجسمي ينحل، ووزني ينقص..

وضغوط الأميركيين عليَّ لإنهاء الإضراب، ومواصلتهم للتغذيـــة القسرية أشعرتني بأن وراء الأمر سرًّا ليس مشوباً بمصلحة، واهتماماً لا يخالطه عطف ولا حنان.. حتى جاء شهر إبريل/نيسان.

في بدايته، حضر الوفد السوداني فقابلته، وأكد لي مسألة إطلاق سراحي، وأوضح أنه قد تقرر إطلاق سراحي، وأنه سيكون معي اثنان من السودانيين.

ولكن الوفد أشار إلى أن الأميركيين يريدون مني إنهاء الإضراب.

فقلت لهم: إنني لن أنهي الإضراب إلا في بلادي.

وما دمت هنا، في هذه الجزيرة الظالمة، الظالِمِ أهلُها.. فلن أضع حدًّا لهذا الإضراب، ولو أدى ذلك إلى هلاكي!

حاولوا معي مرات كثيرة؛ ولكنني أقنعتهم بأنني لن أنهي الإضراب.

سألتهم عن أخبار السودان وعن أسرتي، فأعطوني الأخبار، وطمأنوني عن حال الأسرة.

فهمت عندها حرص الأميركيين على إطعامي بعد تجويع، ورعايتي بعد إهمال وإذلال، ومع ذلك فقد ظل الشك يساورني، فقد تعوَّدت ألاعيبَ الأميركيين وكذبهم، فلم أسرف في التفاؤل، وإن كنت استبشرت خيراً بالمؤشرات.

ومن المؤكد أن هناك أشياء ينبغي أن أسجلها، شهادةً لله، باعتبارها كلمة حق لا يجوز كتمانها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

أن الجنود لم يكونوا كلهم ظالمين، بل كان بعضهم يكف أذاه عنا على الأقل، وهذا لمسناه من طبيعة تكوين الجنود الأميركيين.

لا يخفى عليكم أن الأميركيين هم عبارة عن طبقات؛ يوجد لدى بعضها إحساس بالظلم؛ وخصوصاً السود ذوو الأصول الإفريقية، فهؤلاء كانوا يشعرون بالظلم وانعدام العدل، فكانوا يرون ظلمنا مشابهاً لظلمهم، ولا سيما حين يصادفهم شخص مثلي

يشترك معهم في لون البشرة، فكنا نجد منهم معاملة عادلة، أو على الأقل لا يمكن أن تدرجها في سياق الظلم المطلق، فكانوا يمـــدوننا بالأخبار.

وقد أخبرني بعض هؤلاء بأنه سيفرج عني قريباً، ويمكن أن تكون الرحلة في منتصف الشهر الرابع، وأن معي بعض السودانيين؛ وقـــد أبلغوني بهذا عندما كان الوفد السوداني لا يزال موجوداً في غوانتانامو، فأخبرت أعضاء الوفد بذلك فقالوا: إن التوقيت قد لا يكون دقيقـــاً؛ ولكن الإفراج قريب على كل حال.

كل تلك المؤشرات دلت على أن الخروج من غوانتانامو سيكون قريباً، فأصبحت أترقب الخروج إلى أن حل الثامن والعشـــرون مـــن شهر إبريل/نيسان عام 2008؛ يومئذٍ أخذوني إلى مكـــان التحقيـــق، فقابلت محققين لأول مرة منذ أكثر من ثمانية أشهر أو تسعة، فبادروني بالقول:

نحن نريد أن نتحدث معك ونسألك سؤالاً محدداً، ماذا ســـتفعل إذا خرجت من غوانتانامو؟

فقلت: هذا السؤال يصعب أن أجيب عنه! أنتم لم تـــوفروا لي وسيلة أتابع بها الأحداث الحاصلة في العالم الآن، ولن أستطيع أن أقرر ماذا سأفعل ما دامت الصورة عندي غير مكتملة؛ فلو أنكم أخبرتموني بما يحدث في الخارج لكان بإمكاني إجابتكم عن هذا السؤال، ولكنني الآن لست في وضع يمكنني من أن أحدد ماذا سأفعل.

وأضفت: سيكون جل اهتمامي بأسرتي؛ التي افتقدتها ســـنوات عديدة، سيكون جل عملي هو تعويض أسرتي عامة، وابني خاصة عن الفترة التي قضاها بعيداً عني، وسأسعى إلى تربية ابني التربية المنشـــودة

التي أتمناها ليكون مسلماً عادلاً لا يظلم، متمسكاً بدينه ويفيد المجتمع.

قالوا: من أين لك العمل؟ ومن أين لك الرزق؟

فقلت: الله عز وجل رزقنا في السجن عندكم هنا، وسيرزقنا ونحن هناك أحرار.

قالوا: لا، نحن نريد إجابة واضحة حتى نكتبها للمسؤولين.

فقلت: أنا أتكلم معكم ولست حريصاً على إرضاء مسؤوليكم، أنا أرد عليكم فقط من باب الرد، وتعلمون أنني لا أتكلم معكم في التحقيقات، ولا أرد على أسئلتكم منذ فترة طويلة.

قالوا: حسناً، نحن الآن نريد أن نسألك: هل ما زلت تظن أنك قادر على أداء رسالة مثل الرسالة الإعلامية؟

فقلت لهم: إن الإعلام له رسالة مميزة في نقل الأحداث بصدق ومحاولة معالجة المشكلات؛ فعندما ننقل أحداث الحرب، نحاول أن نرسل رسالة إلى المجتمع بأن هذه الحرب مدمرة، وقد عاناها كثيرون، ويجب إيقافها، هذه رسالتنا الإعلامية.

قالوا: نحن - أيضاً - نريدك أن تشاركنا في رسالة أخرى وهي وقف الإرهاب في العالم، فهل ما زلت مستعدًّا لهذا العمل حتى تفيد مجتمعك والمجتمع العالمي بمساعدتنا على إيقاف الإرهاب؟

قلت لهم: من خلال عملي في الإعلام، أسعى لأن أوقف الإرهاب من كل النواحي، حتى إرهاب إدارتكم في قتلها الأبرياء في أفغانستان وفي العراق، وهكذا من خلال رسالة الإعلام أواجه هذا الإرهاب - أيضاً - وأشارك حسب طاقتي.

قالوا: أجل، تستطيع أن تضع يدك معنا حتى نوقف الإرهاب في هذا العالم.

قلت لهم: أنا لا أضع يدي في أيديكم؛ لأن أيديكم ملوثة بدماء مجتمعي وملوثة بأشياء كثيرة؛ إن أقل معتقلينا ظلماً مكث هنا أكثر من ست سنوات من دون حق! فأي أيد هذه التي تريدون أن أضع يدي فيها؟!

قالوا: هذا يعني أنك ما زلت رافضاً للعمل معنا؟

قلت: أنا رافض وسأظل رافضاً للعمل معكم، ما دمتم تصرون على ظلم الناس وقتل الأبرياء، وترميل النساء، والتهجم على المسلمين، وإفقار الأمم والشعوب، ومحاربة الدول والبلدان، والضغط على الحكام حتى يضغطوا على الشعوب.. إن مناصرتكم للحكومات الظالمة، وسياستكم غير العادلة؛ التي تكيل بمكيالين تجعلني أمتنع من القرب منكم، وأرفض العمل معكم نهائيًّا.

بعد ذلك، أرجعوني وقابلت الوفد السوداني.

وفي يوم 28 أبلغوني أن لجنة المراجعة قررت أنني لا أمثّل خطراً على الولايات المتحدة الأميركية!

فضحكت، فسألوني: لماذا تضحك؟

قلت: هذه حقيقة أنا أعرفها من قبل سبع سنوات، هي ليست جديدة عليَّ.

إنني لم أكن يوماً خطراً على الولايات المتحدة الأميركية، بل أنتم كنتم تزعمون أنني خطر، والآن تقولون: إنني لست خطراً.

قالوا: على العموم، لقد قررت الحكومة الأميركية تسليمك إلى بلادك السودان، هل عندك اعتراض على هذا الأمر؟

قلت: ليس لدي أي اعتراض، بل هذا هو الأمر الذي كان ينبغي أن يحدث منذ أكثر من سبع سنوات.

بعد ذلك، بدؤوا معي إجراءات الفحص الطبـــي، وكان هناك "طبيب"، أجدني مضطرًّا إلى التشكيك في خبرته الطبية؛ لأنني عنـــدما كنت مضرباً عن الماء أكثر من أسبوعين تقريباً، وطبعاً عن الطعـــام، ولكنني كنت أتلقى التغذية الإجبارية بواسطة الأنبوب.. حينذاك، لم يكن ذلك الطبيب يلاحظ الجفاف في فمي، ولا انهيار قواي بســـبب الإضراب عن الطعام! فكان يقـــول في تقريـــر الفحـــص: "جيـــد" ويكررها!

ومع ذلك، يزعمون أنه طبيب، ذو رتبة رفيعة، لا أذكر إن كان نقيباً أو عقيداً!

فتعجبت من جهله، إذ لم يفطن لجفاف فمي بسبب التوقف عن شرب الماء لفترة طويلة.

بعد إجراء الفحوصات، بدؤوا إجراءات البصمة الـــتي كانـــت (سي.آي.إيه) و(إف.بـــي.آي) والاستخبارات العسكرية قد أخذتها من قبل، وكانوا في كل مرة يأخذون ثلاث بصمات مـــن ضـــمنها بصمة العين، يتبع ذلك تصوير من الزوايا.

بعد ذلك، أخذوني إلى غرفة، وسألوني عن مقاسات الملابـــس التي أرتديها.

أخذوا مقاسات الملابس ثم أرجعوني؛ ولكنهم لم يرجعـــوني إلى عنبر دلتا؛ الذي كنت أقيم فيه مع بقية المضربين عن الطعـــام، بـــل أخذوني إلى عنبر تشارلي في المعسكر نفسه، وهو المعسكر رقم واحد.

هناك وجدت بعض السودانيين؛ منهم: وليد السوداني، وأمير السوداني، ووجدت سعيداً المغربي، وخمسة من الأفغان، كانت المجموعة تضم تسعة أشخاص، هم: ثلاثة سودانيين (بمن فيهم أنا)، ومغربي واحد، وخمسة من الأفغان.

وضعوني في الزنزانة، وقد استطعنا - إلى حدٍّ ما - أن يتحدث بعضنا إلى بعض، على الرغم من تباعد الزنازين.

وقبل اليوم الأخير، يوم السفر، أخذوني للتحقيق مرة أخرى وقالوا لي:

أنت الآن ستخرج، وعندما تخرج ستتصل بك القاعدة فماذا ستفعل؟

هل ستتصل بنا وتبلغنا بذلك؟

سألتهم: ماذا تقصدون؟

قالوا: نقصد أن أسامة بن لادن، سيتصل بك على الهاتف، ويقول لك: أنا موجود في الفندق فتعال قابلني فيه.

قلت لهم: هل وصلت بكم السذاجة إلى هذا الحد؟

هل تعتقدون أن أسامة بن لادن ينزل في فندق؟

هل بإمكان أسامة بن لادن أن ينزل في فندق؟

لو حدث ذلك لقبضتم عليه قبل أنْ أحاول الاتصال بكم!

قالوا: حسناً، هب أنه كان موجوداً في أي مكان، وأرسل لك رسالة يدعوك إلى مقابلته، فهل ستخبر الأميركيين؟

أجبتهم: لن أخبركم.

سألوا: لماذا لا تخبرنا، وأنت تقول إنك ضد الإرهاب وتريد السلام؟

قلت: لأنني صحفي ولست مخبراً، ومهمة الصحفيين هي أن يعملوا في نطاق مهنتهم ولا يتجاوزوها؛ نحن لدينا رسالة، فحتى من نختلف معه لا نتعامل معه معاملة بوليسية، نتعامل معه من منطلق الصحافة والإعلام، من منطلق احترام الرأي والرأي الآخر.

قالوا لي: أسامة بن لادن يريد أن يقتل ويريد كذا وكذا...

قلت لهم: من قال ذلك؟

قالوا: نحن نفهم ماذا يريد.

سألتهم: ماذا يريد ابن لادن؟

فردت عليَّ المحققة وقالت: ابن لادن يريد أن يرغم الناس على الدخول في الإسلام.

فقلت: لا، لا ليس كذلك، أنا لم أسمع ابن لادن يقول ذلك، إلا إذا كان قال هذا الأمر وأنا في السجن!

قالت: أنت في الجزيرة، والحق أن الشعب الأميركي يثق بما تقوله الجزيرة أكثر مما يثق بحكومته؛ لذلك فالإدارة الأميركية تسعى إلى عرقلة بث الجزيرة داخل أميركا.

قلت: أشكرك على صراحتك هذه!

قالت: حسناً، إذا وصلتك رسالة من أسامة بن لادن بأنه يريد أن يقابلك، فماذا تقول؟

قلت: سأقابله بكل ترحاب، لم لا؟ وهذه أمنية يشاركني فيها كثير من الصحفيين، أسامة بن لادن شخصية معروفة عالميًّا وكل الصحفيين يتمنون أن يقابلوه؛ وحتى أنت أيتها المحققة تتمنين لقاءه.

قالت: لا، أنا لا أريد مقابلته.

قلت لها: أريد أن أطرح عليك سؤالاً، إذا كانت هناك غرفتان متجاورتان في إحداهما جورج بوش وفي الأخرى أسامة بن لادن، وقيل لك: اختاري الدخول على أحدهما والسلام عليه والتقاط صورة مشتركة معه. فستختارين الدخول على أسامة بن لادن؟

قالت: لا، سأختار بوش؛ ولكن، لَمَ تقول ذلك؟

قلت لها: لأنك باستطاعتك مقابلة بوش في مكتبه، ويمكن أن تقابليه في مزبلة التاريخ بعد نهاية حكمه وفي أي وقت؛ لكن ليس بإمكانك مقابلة ابن لادن دائماً!

أنت تدركين أن (سي.آي.إيه) منذ سبع سنوات لم تستطع أن تحدد مكانه، فمقابلتك لابن لادن هي أنجح من كل النواحي من مقابلتك لبوش.

المحقق الثاني الذي كان معها قال: صحيح، أنا سأطلب مقابلة ابن لادن.

قلت له: هذه هي الحقيقة.

فسألوني: هل عندك رسالة أخرى؟

أجبت: كنت أريد أن أسألكم: لماذا تستعجلون إخراجي من السجن؟

أنا لست في عجلة من أمري في الخروج من هذا المكان، فقد قدمتم لي خدمة كبيرة؛ أنا رجل إعلامي وصحفي، ومع أن اعتقالي سبَّب لي آلاماً جسيمة في نفسي وبدني وعائلتي، فقد أفادني عمليًّا كثيراً جدًّا.

ألا تدركون أن كل الصحفيين في العالم يتمنون الدخول إلى غوانتانامو والتحدث مع المعتقلين، وأنتم لا تسمحون لهم بذلك،

ولكنكم سمحتم لي، بل فرضتم عليَّ أن أدخل، وأن ألتقي معتقلين، وأتكلم معهم، وأن أعيش حياة غوانتانامو.

فأنا أشكركم جزيل الشكر على ما قدمتموه لي، وأطلب منكم أن تنقلوا شكري إلى المسؤولين، وتقولوا لهم: إن المعتقل رقم 345 يشكركم على استضافتكم له هذه السنوات، وأنه لن ينسى لكم هذا الفضل.

أنتم باختصار حولتموني من صفر إلى رقم مميز، فقد كنت قبل اعتقالي نكرة لا يعرفني أحد؛ والآن أنتم جعلتموني شخصية يعرفها العالم كله؛ لقد قدمتم لي خدمة كبيرة؛ إن الصحفيين يعمل الواحد منهم خمسين سنة ثم يتفرغ لكتابة مذكراته، أما أنا بعد أن أخرج من غوانتانامو فسأكتب مذكراتي وأحسب أن الكثيرين في العالم ينتظرونها.

وكررت قائلاً: أنا أشكركم جزيل الشكر، لقد قدمتم لي خدمة جليلة باستضافتكم لي في غوانتانامو.

إن التاريخ يسجل ويكتب كل شيء، والتاريخ صفحتان: إحداهما سوداء، والأخرى بيضاء.. غوانتانامو جزء من الصفحة السوداء للتاريخ، وستُكتب وتوثَّق، وسيعلم الجيل الحالي والأجيال المقبلة بشاعة الجريمة التي ارتكبتموها في حق الإنسانية بافتتاح مثل هذا السجن أو المعتقل السيئ.

سأدوِّن هذا الأمر كله، وإذا أعطيتموني عناوينكم، أعدكم بأن أرسل إليكم نسخاً من الكتاب الذي سيكتب عن هذا الأمر؛ إنكم مدمنون على الأفلام وسترون فيلماً عن غوانتانامو، وسترون الكثير إن شاء الله بعد خروجي من هذا المكان.

شكرهم وهم يضحكون.

ثم عندما كنت أهم بصعود الحافلة رأيتهم، فضحكت وقلت لهم: أي غرفة تدخلون: غرفة ابن لادن أو غرفة بوش؟

فدفعني الجنود إلى الحافلة و لم أسمع رد أولئك المحققين.

في اليوم التالي جاؤوا وأخذوني إلى الصليب الأحمر، وأخبرتهم أنني لا أمانع من السفر إلى بلادي، وتسلموا أوراقي.

مكثنا ثلاثة أيام في عنبر الترحيل، ثم كان السفر مساء الأربعاء، ليلة الخميس، بتاريخ 30 من إبريل/نيسان عام 2008م.

جاؤوا في منتصف النهار تقريباً، وكان من بين الجنود ذلك الجندي الأسمر الذي كان يخبرني بمواعيد السفر.

كان يناديني بالجزيرة، وكانوا يفعلون ذلك في الفترة الأخيرة لكثرة اهتمام الجزيرة بملفّي.

سألني قائلاً: يا جزيرة، هل صحيح أنك رفضت تغيير ملابسك؟

فقد كنت أرتدي الثياب البرتقالية وكنت مضرباً عن الطعام، فكانوا يعاقبونني بهذه الثياب، إذ كانوا يُلبسون المفرج عنهم ثياباً بيضاء.

أجبت سؤاله بسؤال: من قال ذلك؟

فأعاد السؤال من دون تحديد مصدر المعلومة: قل لي أنت، هل رفضت أن تغير ملابسك؟

فكررت عليه السؤال ذاته: من قال ذلك؟

عند ذلك، هزَّ رأسه وقال: الآن فهمت! ثم انصرف.

بعد نحو نصف ساعة جاؤوني وقالوا: لقد حان موعد تغذيتك الإجبارية، فخرجت معهم.

كبلوا يديَّ ورجليَّ وأخرجوني من الزنزانة ووضعوني على الكرسي الذي نسميه كرسي التعذيب.

قاموا بإحكام الأربطة الاثني عشر، وتهيأ الممرض ليدخل أنبوب التغذية في فمي، فدخل العسكري الذي تحدثت عنه وكان رئيس الوردية، ومعه مسؤول أكبر منه وكان - أيضاً - ذا بشرة سمراء.

دخلا وفي أيديهما أكياس فيها أغراض المسافرين، كانت تحوي ملابس وأحذية.. وكانوا في العادة لا يأتون بملابس السفر إلا قبل الإقلاع بنصف ساعة حتى لا يعلم المعتقل وقت سفره فيرتب لهذا الأمر.

في ذلك اليوم أتوا بها مبكِّرين، في الساعة الواحدة أو الثانية، فصادف ذلك موعد التغذية الثاني.

وقد جاء يحمل كيساً يحمل رقمي، وأمرني بالذهاب إلى الحمام: فاغتسل وغير ملابسك. فقلت له: أذهب بعد ما تنتهي التغذية؟ قال: لا، الآن!

وغمز لي بعينه، ففهمت واستجبت، فأخذني الجنود من فوق الكرسي، وفكوا القيد وأخذوني إلى مكان الاستحمام.

في مكان الاستحمام كانت هناك حراسة كالعادة؛ لكن العسكري الأسمر المسؤول عن الوردية أمرهم بالانصراف، وقال لهم: إنه سيتولى حراستي على الرغم من أن المفروض أن يكون هناك جنديان.

قال لي: استحمَّ، وبعد ما تستحم سأعطيك ملابسك الجديدة لترتديها.

قلت له: لماذا؟ وماذا حدث؟

فاقترب مني وقال: هناك أشخاص لا يريـــدونك أن تســـافر، وأخبروا الإدارة بأن السجين رقم 345 يرفض تغيير ملابســـه؛ لهـــذا السبب يريدون تأجيل سفرك؛ لكن أنا سأقف معك حـــتى تخـــرج، فغيرت ملابسي ثم رجعت، وبعد أن تمت تغذيتي عدت إلى غـــرفتي وكان الجو حارًّا جدًّا، وكنت أشعر بتعب من التوقف عن شرب الماء فكنت مستلقياً إلى أن جاء وقت الخروج.

كان ذلك تقريباً في الساعة السادسة أو السابعة مساءً.

أدينا صلاتي المغرب والعشاء جمعاً وخرجنا معهم.

كنا نخرج معهم وكل معتقل مربوط بسلسلة منفصلة.

كان ذلك الجندي على الرغم من انتهاء فترة عمله لا يزال هناك يراقب مع المراقبين إلى أن رآني ركبت الحافلة، فأشار إليَّ من بعيـــد، وكانت الحافلة طبعاً مغلقة.

استغرقت الرحلة في الحافلة نحو ساعة إلى نهاية الجزيرة.

وهناك ركبنا عبَّارة، مَخَرَتِ الماء بنا إلى جزيرة أخرى كان فيها المطار.

وجدنا طائرة عسكرية مخصصة لنقل البضائع، لا الأشخاص.

وضعوا أمتعتهم في الطائرة وبادروا بوضع نظارات على أعيننـــا وهي نظارات شبيهة بتلك التي يضعها اللحامون والنجـــارون أثنـــاء عملهم لحماية أعينهم.

كما وضعوا كمامات على أفواهنا، وسماعات على آذاننا حتى لا نسمع، ثم وضعونا على كراسٍ ونحن مقيدون بسلاسل من حديد من أيدينا وأرجلنا وأواسطنا، وشدوا وثاق كل واحد منا بقيد حديـــدي آخر من تحت أرجلنا يربطنا إلى أرضية الطائرة.

لم يسمح لنا بالحركة طول الرحلة.

وعندما شعرت بالتعب، طلبت منهم الذهاب إلى الحمام، فأخذوني إلى الحمام.

قلت لهم: ارفعوا النظارات عن عيني، فرفضوا.

قلت لهم: كيف أقضي حاجتي وعيناي مغلقتان؟

قالوا: لن نرفع النظارات عن عينيك، وسنضعك على المقعد فاجلس، وسنقوم بمساعدتك.

رفضت وقلت لهم: أريد أن أغلق عليَّ الباب.

فقالوا: ليس هناك باب حتى تغلقه، والمكان مكشوف تماماً.

طلبت منهم شيئاً أستر به نفسي فرفضوا، رجوتهم أن يرجعوني إلى الكرسي، فأرجعوني وأخبرت جميع الإخوة الموجودين معي. كنا نحتاط لمثل هذه المواقف، إذ إنني مضرب أصلاً عن الطعام، وكان بطني خاوياً، ولم أكن في حاجة ماسة إلى الحمام.

لكنني أردت أن أعرف إن كان هناك تغيير في المعاملة.

سألت الإخوة إن كانوا أعطوهم طعاماً، فمن البديهي ألا يعطوني بحكم أنني كنت مضرباً عن الطعام، فنفوا ذلك، وقالوا: إنهم زودوهم فقط بجرعاتٍ قليلةً من ماء، كانت هي الزاد طوال الرحلة التي استمرت نحو ثماني عشرة ساعة!

هبطت بنا الطائرة في العراق كما قالوا لنا، وهنالك نقلونا إلى طائرة أخرى.

الأفغان الخمسة ذهبوا إلى أفغانستان، وأنا والسودانيان ومعنا المغربي ذهبنا إلى الخرطوم؛ حيث حطت الطائرة في الساعات الأولى من صباح الجمعة.

كانت جمعة مباركة، فحمدنا الله كثيراً على نعمة الفرج، وسألناه أن يعيننا على شكره.

وما حدث بعد ذلك كله معروف وموثَّق.

ولكن يبقى أن قضية غوانتانامو ليست قضيتنا نحن وحدنا؛ ولكنها قضية أكثر من ثمانمائة معتقل، كل واحد منهم عاش قضية غوانتانامو من زاوية، ولكل واحد منهم قصة مختلفة، تُجَسِّد ما عاشه من آلام وأحزان، من ظلم وقهر وذل واضطهاد.



وأختم بالصلاة والتسليم على حبيبـــي الذي لم أره، وإنما آمــل أن أنال شفاعته يوم الحساب والجزاء، مع الدعاء إلى أمـــي وأبـــي اللذين افتقدت دعاءهما أيام المحنة، بسبب رحليهما إلى دار البقـــاء، ثم من بعد أسجل امتناني إلى أسرة الجزيرة رمز الوفاء، كذلك عرفاني إلى قبيلة الإعلاميين الشرفاء وإلى أحرار العالم من حقوقيين ونشطاء.

إلى كل من لم يبخل عليَّ بالدعاء.

إليكم جميعاً أهدي قصتي هذه مع الظلم والابتلاء.